رواية
تِرتِر
نزار عبد الستار
مكتبة نوميديا 179
Telegram @Numidia_Library
نوفل

تِرتِر

روایة

تِرتِر

نزار عبد الستار

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2018 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2018
المكلّس، بناية أنطوان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

صورة الغلاف: **adoc-photos ©**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **رنا حايك**
طباعة: **53Dots**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-469-292-9
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-293-6

تعظيماً لذكرى 26 آب 2016

– أنتَ تموت.. هلْ تمتَّعتَ بحياتِكَ؟

– نَعمْ.

– كيف؟

– مرَّة تحتَ شجرةٍ قديمةٍ، سلَّمتني فتاة لا أعرفها رسالةً ومضتْ..

– هلْ قرأتها؟

– نعمْ.

– ماذا تقول؟

– لا شيء!

فلاديمير هولان

إسطنبول

تشرين الأول 1898

ابنة الرايخ الثاني

احتاجت آينور هانز إلى ستة أيّام كي تقع في غرام الله. كان يوم الاثنين، الرابع والعشرون من تشرين الأول، عابساً إلى ساعة الظهيرة، ففي التاسعة صباحاً، تلقَّت من مديرها في برلين لينوس غينشر تلغرافاً يُبلغها باستغناء وكالة توماس كوك للسفر عن خدماتها، وأنَّ بإمكانها، يوم الخميس، الحصول من البنك العثماني على خمسة وعشرين ألفَ قرشٍ، مكافأة للرعاية التي قدَّمتها للإمبراطور الألماني فيلهلم الثاني في رحلته إلى الشرق.

كانت إسطنبول معتمة الأفق، ومبلّلة منذ أمس، إلا أنّها لا تزال مبتهجة بزيارة الإمبراطور الذي غادرها السبت متّجهاً بيخته إلى حيفا. بقيت أعلام النسر الملكي، والطغراء المذهّبة تملأ شاطئ البوسفور، بينما كانت الألعابُ الناريّة، في اليومين الماضيين، تستأنف انفجاراتها الملوَّنة ليلاً عند استراحات المطر. انكسرت لهفة آينور في شراء خاتم من محالّ بوي بكى، ودفعها قلقُها، بعد تسلّمها التلغراف، للتوجُّه إلى منطقة بك أوغلى بدلاً منْ سوق قبالي جارشى، والسؤال في السفارة الألمانية إن كانت هناك توجيهات وصلت من الإمبراطورة أوغستا فيكتوريا بشأنها؟ لم تنتبه آينور إلى الارتباك الذي

أحدثته، فقد كانت فرقة خيّالة أرطغرل، المكوَّنة من خمسمئة فارس، ملتزمة بالاستمرار في حفاوة واجب الحراسة التكريميّة إلى أن تطأ قدما الإمبراطور الألماني أرضَ بلاده، وعندما خرجت آينور من قصر يلدز شاله بالعربة الأرجوانيّة المعلَّمة بالتاج، تبعها ستّة من الخيّالة ببزّاتهم الاستعراضيّة البيض، وطرابيشهم الحمر، وسيوفهم المذهَّبة. ولحظة تبيَّن لها أنَّ الأنفاس احتبست، والجميع وقفوا احتراماً لها، بمن فيهم تجّار جلود شراكسة تفوح منهم تفاعلات حمضيّة، أوضحت لموظف الاستقبال أنّها تنتظر ترخيصاً بالسفر إلى بيروت على الباخرة ديلبروك الحربيّة، كي تكون في يوم الثاني عشر من تشرين الثاني برفقة أسرة الإمبراطور عند العودة إلى ألمانيا. فتحوا لها قاعة للاجتماعات رُسمَ على ضلعها الأيمن الانتصار البروسي على فرنسا في معركة سيدان، لكنّ آينور انجذبت إلى ستارة حمراء مفروشة على عرض صدر القاعة نُقشَ عليها النسرُ الإمبراطوري الأسود. ميَّزت اللمعة كنداءٍ بعيدٍ. دارتْ حولَ طاولة من خشب الجوز، سمكيّة الشكل، ودنت من القماش المربَّع المتدلّي بتوتّرٍ كشراعٍ من زاويتي السقف، متطلعة بانبهار إلى بريق السطوة. خلعت قفّازها الطحلبي، ومرَّرت أصابعها على حلقات الترتر المعدنيّة الرقيقة، المثقوبة من الأعلى، التي جعلها الميلان تبدو متدرّجة، وكثيفة كريشٍ حادٍّ، يضرب رياحاً وهميّةً. شدَّتها خفقات الضوء في الرقبة الطويلة، والرأس المنفعل، وجرَّها الشغف إلى أخذ خطوة نحو اليسار متتبّعةً بعينيها اللاهثتين اللسانَ القرمزي النافر حتى صار خصرها بين مخلبي النسر الأحمرين.

تنبَّهت آينور لدخول رجل صاخب الخطوات. بدا مظهره أقلّ شأناً من زهوه. قدَّم نفسه بصفته مستشاراً للسفير. طلب منها البقاء في قصر يلدز شاله، وانتظار توجيهات رئيس تشريفات السلطان،

وإذا ما كانت تحتفظ بأيّ أوراقٍ تخصّ وكالة توماس كوك، فإنّ عليها تسليمها إلى السفارة. ونصحها، بشيء من المواساة، بتوديع معارفها في إسطنبول، لأنّها قد لا تجد الوقت الكافي في اليومين المقبلين.

واجهته آينور بنظرة متعالية، قبل أن تسأله وهي ترتدي قفّازها:

– هل هذا كلام الإمبراطورة أوغستا فيكتوريا، أم السفير البارون فون مارشال، أم كلامك أنت؟

أجاب بارتباك:

– هذا ما أرادَ وزيرُ الخارجيّة إيصاله إليكِ آنسة هانز.

سارت آينور إلى الزاوية. التحمَ ظلها بألوانِ معركة سيدان. وقفت باعتدادٍ خلفَ مدفعٍ بروسيٍ ضخمٍ يطلق النارَ، وقالت للمستشار بنبرة صارمة:

– لا يُمكنني الوثوق بالوزير برنار فون بولو، والتخلّي عن وعد الإمبراطورة بأنْ أبقى في إسطنبول ثلاثة أيّام ثمّ أبحر إلى بيروت كي أكون برفقتها عند العودة إلى ألمانيا. وإن كانت وكالة توماس كوك الإنكليزيّة قد استغنت عن خدماتي، فهل يعني ذلك أنّني لم أعد ألمانية الجنسيّة؟ قل للبارون إنّني أمهِله حتى صباح الغد كي يردَّ بوضوحٍ واحترامٍ، إنْ كانَ مرخّصاً لي السفر إلى بيروت، أم لا؟

غلبها الشعور بالخيبة وهي تقترب من حيّ بشكطاش كي تودّع خالتها نازان. لامتْ نفسها لأنَّها تمسَّكتْ بوعدٍ هشٍّ، ولم تقدّر الذين يمجّدون صرامة بسمارك الغاربة، وينظرون باستخفاف إلى المزاج الإمبراطوري المتقلّب. أمرت الحوذي بالبحث، في الجوار، عن نسخة من جريدة إقدام. فوجئت بوجود خمس قريبات، تجاوزنَ السبعين، جئنَ يكرّرنَ العزاء بمرور السنة الأولى على وفاة زوج الخالة. بدت آينور على خطأ فور ظهورها بالبوليرو الأخضر الذي كانت ترتديه، وبتنّورتها الطويلة، وقبّعتها اللبّادية، وحقيبة يدها الإجاصيّة

الشَّكل، وكان عليها تقبّل العادة الشرقيّة في التعريف بصغار العائلة، فاستمعت من خالتها إلى حكايات عارها الطفولي، حين كانت تتبوَّل في فراشها إلى سنّ العاشرة، وتتخلّى سريعاً عن ملابسها الداخلية حين يطلب الصبيان منها ذلك. أظهرت الخالة لوعةً آسفةً وهي تُخبر قريباتها أنّ ابنة أختها في السابعة والعشرين، ولم تتزوّج بعد. وفي النهاية اضطرّت آينور، وهي متوجِّعة من حظها، إلى شمول الجميع بالتوديع، فقبَّلت أياديهنَّ، وهي تمقت نفسها، وقلبها مخرمش.

دقَّقت آينور، في طريق عودتها إلى قصر يلدز شاله، بما كتبته جريدة إقدام عن تفاصيل زيارة الإمبراطور إلى حيفا، فلم تعثر على أيّ تغيير في الخطة التي وضعتها، لكنَّها صُدمت بالاستهزاء الذي أبدته إقدام في تعليقها على صحيفة الأهرام المصرية التي عدَّت التحالف بين ألمانيا والسلطنة محضَ وهمٍ، فقد تمَّ الاتفاق في اجتماعات برلين المشتركة على تجاهل آراء المصريّين، والاهتمام بالصحف اللبنانيّة، والسوريّة. كانت أبنية منطقة بشكطاش تتبارى بطرازي الباروك، والروكوكو، وتبدو الأفاريز، وهياكل الشرفات لامعةً رغم حشمة ضوء السماء. ضيَّق الحزن أضلعها، فانقبضت أنفاسها، وراحت مناظر الطريق تتعاقب أمام عينيها كلونٍ باهتٍ. قبل ثلاثة أيّام كانت واثقة من كسب ثقة أسرة هوهنزولرن بمثابرتها الصائبة، إلا أنّها في هذه الظهيرة لا تملك، لمداواة كآبتها، سوى الرغبة في النوم.

أعلمها الطبّاخ أنّ شيئاً مميّزاً ينتظرها على الغداء. لم تعثر في القصر على أيّ ممانعة غير لطيفة بشأن إقامتها في جناح السلاملك، ولم تنجح، بعدها بساعة، في إرغام شهيَّتها لإنهاء قطعة واحدة من أفخاذ الأرانب المحمَّرة مع الفطر والبصل، والمطبوخة على طريقة بورغوني الفرنسيّة. عاودها الأسى في صالة الطعام ذات الأبواب المغلفة بالصدف. تسارعت نبضات قلبها وهي تنبش عن التقصير

الذي جعل غينشر يُنزل بها هذه العقوبة. شعرت بالبرد الخريفي في قدميها حين نفّذ الخدم أمرها في إرخاء المشابك الخشبيّة للنوافذ. انكمشت روحها من الرائحة الدهنيّة التي تحرّكت في طبق أفخاذ الأرانب، ومرَّ ببالها قول الإمبراطورة إنّ الرجال لا يثقون أبداً برحم امرأة لها اهتمامات سياسيّة.

لم يمنعها أحد، بعد سفر الإمبراطور إلى حيفا، من ترك الحرملك، والانتقال إلى جناح السلاملك، والنوم على سرير فيلهلم الثاني الذي تبدو زخارفه عند مسند الرأس كمخطّط لكنيسة على الطراز البازيليكي. بدأ الأمر حين استدعاها الإمبراطور للحضور إلى الصالون الكبير، مع الإمبراطورة وزوجة السفير، عند استقباله الوفود الشعبية، وأخذ يلحقها بزياراته، فكانت تستقلّ العربة الثانية برفقة وزير الخارجية برنار فون بولو الذي لم يكتم انزعاجه، ولجأ إلى الإمبراطورة لينبّهها إلى ضعف التمييز لدى رجال هذه البلاد، وكيف يمكن لأيّ امرأة أوروبيّة، جيّدة الأناقة، أن يُشتبه في أنها إمبراطورة. فقالت له أوغستا فيكتوريا إنّ السلطان عبد الحميد الثاني سلَّم جيشه إلى المستشارين العسكريّين الألمان، لذلك عليه تحمُّل مجاملة الإمبراطور فيلهلم لتشكيلات يلدز الاستخباراتيّة، في تقريب مواطنة ألمانيّة من أمٍّ عثمانيّة.

كانت آينور تتجوَّل في القصر كلما تمرَّدت روحها، ملاحقة وشوشات الجمال في علاقات اللون الأحمر بالبيج والكريستال، فلكلّ قطعة صوت، ونداء، واستنجادات متوسِّلة. لم ينقص من الخدم أحد بعد مغادرة الإمبراطور وزوجته، وكانوا يشعلون الشموع في كلّ صالونات القصر، ويحرصون، قبل المغيب، على أن تبدأ مدافئ رورستنرانت السيراميكيّة العموديّة كلها ببثّ حرارتها. كان القصر الذي يحوي مئة وثلاثين غرفة يلهب أحشاء آينور، ويجعلها محمرّة

الأنف، والوجنتين، ومدفوعة برغبة ملتوية في الاستحمام، فالصالون الكبير الذي بمساحة أربعمئة وخمسين متراً مربّعاً، تغطّيه بالكامل سجّادة هيريكيه، من قطعة واحدة، مشغولة برسوم من حرير ناري، والشمعدانات الأرضيّة الكريستاليّة الضخمة التي لها كؤوس زنبقيّة ملطَّخة بسيلان نبيذي، وعناقيد الثريّات المتدليّة من السقف المزخرف. كلّ هذا لم يُبتكر من أجل الضيوف الأغبياء، والهتافات الجوفاء، ولا حتى من أجل عراقة أسرة هوهنزولرن البروسيّة. وحدها آينور هانز التي كانت تسمع ضحكة أثيريّة ساخرة، يستقرُّ صداها في عمق جسدها الرطب، فتغلق باب الصالة الكبيرة عليها، وتخلعُ ثوبها لتبقى بالصدرية والسروال الداخلي، تمتحن لياقتها في الجري السريع حتى ينهك صدرها، تجلس على كرسيّ فيلهلم الثاني المذهَّب مقلّدة حركاته الانفعالية، مرتجلة بصوت هزلي مضخَّم، خطاباً إمبراطوريّاً أحمقَ مرطباً باللعاب، ثم تقفز محاكية الباشوات الأتراك في اهتزازات كروشهم، واعوجاج أفواههم، وحين ينالها الإرهاق، تستلقي بلهاثها المتعرِّق على سجّادة هيريكيه، بوضعيّة الصلب، تحت ثريا كريستاليّة، متطلِّعة إلى ارتجافات اللمعة بفعل الهواء الساخن، متخيّلة صراعات شبق الآلهة، وشاعرة بنشوة لؤلؤيّة.

نظرت آينور بشفقة إلى العصفورين الخشبيين الواقفين على مسند قدمي سرير فيلهلم الثاني قبل أن تغطيهما بتنّورتها وتتّجه إلى المغسلة الرخاميّة الخضراء التي بحوضين صغيرين، وتشبه بلوحيها الجانبيّين منضدة كتابة من طراز القرن الثامن عشر. رجَّحت، وهي تبلل وجهها، أنَّ الإمبراطور لم يسعد أبداً بالمغسلة، لكنّه تفهَّم الحاجة العثمانية للتقرُّب إلى الله. لم تتوصّل، في اليومين الماضيين، إلى الغرض من تلك الأدوات الفضّية الموضوعة أسفل المرآة، لكنها كانت في كل مرة تتذكَّر بوق سمّاعة نبض الجنين المضحِكة التي

يستعملها أطبّاء ألمانيا. استلقت على السرير وهي عارية تماماً، متلمّسة كثافة شعر عانَتها. لم تهدأ أنفاسها رغم مرور الوقت الكافي، وحين كانت تعادل في ذهنها ما يمكن فعله بالقروش العثمانية إذا ما عادت للتسكُّع في مدينة توبنغن، جاءت خادمتها بريتا لتُخبِرها أنَّ مبعوث رئيس تشريفات السلطان يسألها إن كانت ترغب في المساء بمشاهدة الاحتفالات العفويّة للإيطاليين، واليونانيين، وجماعة تركيا الفتاة الذين أمر السلطان عبد الحميد الثاني بإطلاق سراحهم؟

***

حين دخل اليخت الإمبراطوري مضيق الدردنيل في السابع عشر من تشرين الأول برفقة البارجتين هيرتا وهيلا، كانت آينور هانز قد كسبت قلب الإمبراطورة أوغستا فيكتوريا وجرّدتها من القلق. لم يغادرها طوال سنة من العمل مع وكالة توماس كوك للسفر الإحساس بأنّها تعيش خدعة كبيرة. كانت قد تدرَّبت في مدرسة الطبّ بتوبنغن لسنتين لتكون مساعدة طبيب توليد، لذلك بدت شُجاعة بما يكفي لإجهاض أولَ جنين زرعه فيها مصمّم أزياء فاشل اسمه رودولف كارل. تقبَّلت آينور الكثير من الضفادع قبل أن تُخدع بأميرها الوسيم. كان رودولف قد انتهى إلى طموح استعادة مجد الأرداف المستعارة، وكانت آينور تسير في طرقات توبنغن الغافية وهي بردف مزيّف ضخم، مصوغ بحشوات مضغوطة من شعر الحصان، وشبكة سلكيّة دفينة، كي تذكّر الرجال بإلهامهم المسلوب في حبّ الثقوب الصغيرة. لم يكنْ بوسع رودولف الاعتراف بالفشل، وبالمقابل كانت آينور مفتونة بتقليد أمّها العثمانية في البدانة، وابتكار مضاجعات من وحي الغرزة المتقاطعة على سجّاد كالح، مع لمسة من هوس الآلهة الإغريقية في عرض الجسم لأشعّة الشمس. تقلّب رودولف بين إغراءات الأزياء النابليونية، وسحر

المخرّمات الفالنسية، والتول، والباتيستا، وبين العصر الرومانسي الذي ساد قبل أربعة عقود، واعتمد مبدأ النفخ في أكمام الجيجيت، والبيريت، وخنق الخصر، ولكنّ آينور كانت متأثرة بخيال رودولف في تطريز الشالات، فهو موهوب جداً في كلّ ما يتعلق برونق جسدها، ويراها مرضعة عظيمة، ويعتقد أنّ أصابعها حلمات بقرة من سلالة الهوليشتان.

لم تعرف الكثير عن أبيها الضابط الألماني الذي قُتل بعد ولادتها بسنة وأربعة أشهر، عن طريق الخطأ أثناء التدريب في ميدان الرماية، وتاهت حين اكتشفت في سنّ العاشرة أنّ أمّها ناريمان رجعت إلى الدين الإسلامي متنازلة عن البروتستانتيّة التي اعتنقتها من أجل الحبّ. لم يحسّن الإسلام حظوظ أمّها في الزواج مرّة أخرى رغم أنّها عاشت في إسطنبول ثلاث سنوات قبل أن ينالها اليأس، كما لم تتمكن آينور من تقبّل الدين الإسلامي لأنّه يذكّرها بخيانة الحبّ. وحين نضجت لم تستطع الإبقاء على بروتستانتيّتها لأنّها تتنافى مع وثنيّة رودولف الذي كان طوله، ونحوله، وتشققات جلده النزيفيّة، تشير إلى أنَّ الربّ الحقيقي هو تلك الدقائق القليلة التي تُعاش بلا ألمٍ. وقبل أن تخسر ناريمان جمالها راحت تجمع، في برلين، كلّ ما فقدته من امتيازات عثمانيتها، فوسَّعت علاقتها بمنير باشا الذي كان يمسك بسلطة خفيّة تفوق ما للسفير العثماني من حيلة، وخلعت عن قلبها الأمانيَّ التقليديّة الآفلة، وانغمست بالوفاء للدولة العليّة. ويوم سُجن رودولف إثر دعوى قضائيّة رفعتها ضدّه شركة لانغهاينريش لأنّه أتلف خمسة آلاف مفرش مائدة طعام بتطريزات تنبّؤية معادية للشهيّة، كان على ناريمان استعادة ابنتها الوحيدة بأكثر الطرق استبداداً حتى إنّ انتحار رودولف في سجن توبنغن استحق شكّ آينور بعد أن رتّب لها أعوان منير باشا مضايقات عدّة،

فأحرقوا بيت رودولف الذي يؤوي انتظارها، وحرّضوا الشرطة الألمانية السرّية على مراقبتها وإزعاجها. وما إن عادت آينور بقلبها الكسير إلى برلين حتى ألحقها منير باشا بوظيفة مرشدة سياحيّة في وكالة توماس كوك للسفر التي أرسلتها بعد شهر واحد في رحلة إلى إسبانيا بلا أيّ استعدادات تدريبية، ثم صار بوسعها، بعدها، الرضوخ لاستعجال الوكالة بتحميلها أعباء التخطيط للمجاميع السياحيّة، وإغراء أغنياء إسطنبول بمباهج الحياة في أوروبا. كان رودولف الطويل المجنون يتهاوى في أعماقها إلى قاعٍ بعيدٍ، وهي لا تملك سوى الأسف. كانت حزينة لأنها اكتشفت أنّ الحبّ يحتاج إلى الزهد، بينما الحياة تتطلب الرفاهية. كلّ الأشياء التي تحيطها مطعونة بالشك، وغير مقنعة، ولكنّها مضطرّة للتمسّك بابتسامتها مع اهتمام متكلّف لا تعرف آينور لماذا عليها إظهاره رغم شعورها الواثق بأنّ ساعة فرارها من هذا العالم قريبة. عاش رودولف يحلم بالوصول، في يومٍ ما، إلى تنّورة واحدة بدل الطبقات الكثيرة التي تجعل سيقان النساء تتعرَّق، وكان يقول لها إنّ المشكلة ليست في قلة عطاء الشمس، بل في قرار نابليون بونابرت الذي أطفأ مدافئ الحدائق كي يحارب الأقمشة الإنكليزيّة، لذلك بقيت متمسكة بيقين أن الناس يكافحون، طوال حياتهم، للتخلص من آثار أخطاء الآخرين، بينما هم في الحقيقة يصنعون المزيد من الأخطاء للذين سيولدون لاحقاً.

لم تكن الوصاية العثمانية وحدها التي تتدخل لجعل وظيفة آينور تتقدّم وتزدهر، فالإمبراطورية الألمانية كانت تستعين كثيراً بخدمات وكالة توماس كوك في إدارة بعض المؤتمرات التابعة لوزارة الخارجية، وأيضاً في الإعداد لزيارات الوفود لبلدان أوروبا. اضطرّت آينور إلى تعلّم التعامل الدبلوماسي، وتلقّت لأشهر دروساً صارمةً باللغة العربية، إلا أنّها لم تسر كما يجب، وكانت تلمس في سلوك الآخرين

معها مبالغة مفرطة، حتى إنّ أجرها كان يفوق القياسات. اضطرّت في ظرف ستة أشهر إلى التخلي عن الوزن الزائد، والالتزام بالمظهر الحسن، وكانت تكتشف تناوباً مقصوداً بين العثمانيين والألمان على جعلها واعية تماماً للطريقة التي يسير بها العالم. أخذت تتخلّص بتسارعٍ من كل المعتقدات الاستخفافية التي أضافها رودولف إلى سلوكها، كما بات واضحاً أن جمالها تفتّح مع كثرة حضورها في الحفلات السياسية التي يقيمها القصر، وبدأ طموحها ينمو، وأحلامها تتورّد.

كانت آينور فخّاً مغشوشاً بإتقان. باهتة البياض وشقراء، لكنّها غير مأسورة في فساتينها، ولا مستسلمة للرقة، والرهافة الناعسة. مقطوفة من الحقول، لكنّ طبيعتها ليست زهرية، أو شجرية. وجهها طفولي، ويبدو من عينيها المدوّرتين المفتوحتين بلون تركوازي على دهشة دائمة، أنّه لم يكمل نموّه الجنيني بعد، لكنّها شرسة، وقويّة التحدّي، وحواسّها ذئبية. كلّ قياساتها دقيقة. التباعد بين الحاجبين. صغر الأنف، وتناسبه مع الفم المزموم على شكل القبلة. طول رقبتها المتعامد مع الغمّازات في ظاهر كفّيها. لا تهاب الذكور باعتبارهم شرفاً عضلياً صلداً، وتتوحّش حين يحاول أحدهم اختصار المسافات معها. لم يستدرجها رودولف، فقد وجدها جاهزة لتكون نسخته الأنثوية المرافقة لقطبي نزوله من السماء. يستعمل هيكل جمالها في بروفاته الابتكارية متكهّناً بـأذواق المستقبل. اختبر علاقاتها التشكيلية مع العنب، والتفاح، والأوراق الخضر، فاكتشف أنّ الروح قطنية، واعتبر الأميركي إيلي ويتني أول نبيّ حقيقي أرسلته الآلهة عام 1793 بماكنة للحلج، وبفضل ثدييها الصلبين، كجبنٍ معتّق، أسّس رودولف نظرية مغناطيس إصبع السبابة متأثراً في ذلك بمايكل أنجلو. يفضّل لآينور ما بقي من الأقمشة التي تحوّلت إلى فساتين

راهبة، ويطلب منها أن ترحم فوضى الخامات، والألوان، وعبثية الأزرار، وتشتّت الخيوط، فتشفق على قصاصات خانها القياس، وأعدمها المقصّ، وهي شاعرة مثله بالرثاء. ما كان باستطاعة أيّ رجل نبيل الإمساك باهتمامها لأنّ الكلّ كسالى، ولا يخططون لشيء إلّا وفق ما يملكون من مال، ويكذبون بدافع الغرور، بينما الرجل الحقيقي الذي يستحق انتباهها يجب أن يقدّر محتوياتها، ويستلهم ألوانها لإعادة تفسير الحياة، مثل رودولف الذي كان يدقق في عريها لساعات، قارئاً طالع العالم في برعم بظرها الوردي، ثم يذهب ليؤنّب الآلهة على تأخّرها في دعم عبقريّته، متطلّعاً، طوال الليل، إلى السماء، منتظراً سقوط شهب الأنبياء بماكناتهم العجيبة لتغيير العالم.

بدأت تحضيرات زيارة الإمبراطور فيلهلم الثاني للشرق في الأول من آذار. وقتها استقلت آينور بالسكن، وتركت أمّها ناريمان تفعل ما بوسعها من أجل تحصيل السعادة. كان منير باشا قد انتقل إلى إسطنبول ليكون رئيس تشريفات السلطان، ولحقت به ناريمان، إلّا أنّها عادت للظهور في برلين في شهر تمّوز وهي منكسرة. عرض السلطان عبد الحميد الثاني على إمبراطور ألمانيا التكفّل بكلّ نفقات الزيارة، إلّا أنّ فيلهلم الثاني رفض ذلك، وتعاقد مع وكالة توماس كوك لتمويل رحلته على أساس الدفع بالآجل. كان الإمبراطور يتوقع اندلاع حرب أوروبا الكبرى في عام 1900 لذلك وجب عليه القيام برحلة حجّ إلى بيت المقدس، واستعراض هيبته أمام أنظار الروس، وإشعار الإنكليز بقوّة تحالفاته، وشعبيّته في الشرق. صمّم وزير الخارجيّة برنار فون بولو مسار الرحلة على أهمّية يوم الواحد والثلاثين من تشرين الأول عام 1898 وهو التاريخ الذي أصرَّ عليه الإمبراطور فيلهلم الثاني كي يدشن في بيت لحم كنيسة المخلّص الإنجيلية الألمانية لأنه يتوافق مع ذكرى بدء حركة الإصلاح الديني في ألمانيا عام 1517،

وكان على الإمبراطور السفر من إسطنبول بحراً إلى حيفا، ثمّ الوصول إلى القدس، وبعدها ينتقل بحراً إلى بيروت، ثمّ بالقطار إلى دمشق، ومنها إلى بعلبك ليعود إلى بلاده من ميناء بيروت. أبقت وكالة توماس كوك على هذه الخطّة، لكنّها كلّفت آينور هانز بإعداد التصوّر العام، والتشاور مع العثمانيين بشأن توقيتات كلّ مرحلة، والإضافات التكريميّة التي يريدها السلطان عبد الحميد الثاني، فزوّدها منير باشا بكلّ ما يمكنه إبهار الإمبراطور الألماني، وجعله يشعر بكامل عظمته، فوضعت آينور خطّة لشراء مستلزمات الرحلة من سجّاد وخيام، مع إضفاء لمسة اعتناء فخمة في تصنيع أدوات مطبخية تذكارية، كما تعاقدت مع مترجمين، وطهاة، وخدم، وجرى شراء الجياد الخاصّة لركوب الإمبراطور في فلسطين وسوريا، وشحنت في الثلاثين من أيلول إلى حيفا، لكنَّ هذا لم يكن لمعة آينور الكبرى، فقد اختيرت لتقدّم الاستشارة للإمبراطورة أوغستا فيكتوريا بشأن ما عليها توخّيه، وكيف لها ألّا تؤثر بزيّها، وسلوكها، في مهابة الإمبراطور بين العرب.

جرى اللقاء الساعة العاشرة صباحاً في القصر الإمبراطوري. استغرق وصول آينور إلى مكتب فيلهلم الثاني القريب من شرفة البرج وقتاً طويلاً، وكان عليها الإسراع خلف مرشدها العسكري الذي يسير بحركة استعراضية، والانتباه لخطواتها في ذلك الجوّ الباروكي المهيب من الأرضيّات الحسّاسة، والتماثيل الشخصية المنحوتة بحركية توحي بالبطولة. انحنت آينور للإمبراطور الذي نظر إليها بعينين زرقاوين وهو متوازن الملامح بشاربيه الأشقرين المعقوفين إلى الأعلى، وجبينه العريض، وياقة الرقبة المقفلة بجديلة ذهبية. كان المكتب الأسود الضخم يبدو مثل صندوق قبر روماني. لم يتكلم الإمبراطور وهو يتلقّى شرحاً من مساعدين اثنين بشأن الأوراق التي تحتاج إلى توقيعه، والأخرى التي تنتظر قراءته. أنقذتها الإمبراطورة أوغستا

فيكتوريا التي أخذتها إلى الجانب الأيمن حيث صفّت الكراسي الفردية المذهّبة. صرفت الإمبراطورة مرافقتها، وأذنت لآينور بالكلام. غادر الجميع فرفع الإمبراطور رأسه. التقت نظراتهما، فوقفت آينور، وانحنت ثانية، فقال لها بصوتٍ قوي النبرات، وهو يوجّه إليها سبّابة مرتخية:

– ستكونين برفقة الإمبراطورة على يختنا.. لقد كتبوا لي أنّك وُلدت في الثامن عشر من كانون الثاني عام 1871 أي في يوم الاتحاد الألماني العظيم، وتنصيب الإمبراطور فيلهلم الأول، ومعنى هذا أنّك ابنة الرايخ الثاني. وأخبروني أشياء أخرى، لكنّني لا أحبّ الإشاعات التي تطلقها الشرطة السرّية.

قالت آينور وهي تواجهه بعينيها:

– أشكر عظمة جلالتكم على هذه الثقة الكبيرة.. الشرطة السرّية صادقة، لكنّي أعيش برعاية إمبراطور ألمانيا، وملك بروسيا، لذلك لا بدَّ من أن أحبّ الحياة.

كانت الإمبراطورة متريّثة في قبول نصائح آينور التي لمست قلق أوغستا فيكتوريا بشأن الاختلاط بنساء الشرق، بينما أبدى الإمبراطور فيلهلم الثاني عدم اكتراث بكلّ التصوّرات، وطلب من زوجته التركيز على بهجة الهدايا الباهرة، والثمينة التي ستتلقاها من السلطان عبد الحميد الثاني. شعرت الإمبراطورة بالحرج، فقالت آينور وقد انتشت بالثقة:

– نساء الشرق بدينات جداً يا صاحبة الجلالة، ويأكلن الحلويات بكثرة، ولا يعرفن شيئاً عمّا يحدث خارج بيوتهنّ. لا يصحّ التكلّم معهنَّ بالسياسة، ولا يجب الحديث عن جمال البلدان الأخرى وتطوّرها. يفخرن بالطعام، وأخلاقهنّ محدّدة بأدب طاعة الرجال.

كانت يد الإمبراطور اليسرى ثابتة طوال الوقت على كرة ذهبيّة موضوعة على المكتب، وقد وجد في هذا اللقاء فرصة لتجديد معارضته لهواجس زوجته:

– إنّها رحلة باهرة يا عزيزتي أوغستا. إعلان النصر على أوروبا كلها.. سأحمل للعثمانيين الكثير من المشاريع التي ستلحقهم بالتمدّن، وتزيل التخلف عن أراضيهم الشاسعة. ستعلّمهم ألمانيا كيف يستثمرون نفط الشرق، وسأزوّدهم بالسلاح، وأوافق على التوسّع في تدريب جيوشهم، ومن دمشق سأعلن وضع ثلاثمئة مليون مسلم في العالم تحت حمايتي ما سيجعل إنكلترا المغرورة ترتجف، وسأبعد عن بيروت الشبح الفرنسي.. سأطردهم من الشرق يا عزيزتي أوغستا، لذلك أرجو أن تتحمّلي أكل طبق من تلك الحلوى مع نساء السلطان البدينات.. ما اسمها؟

ردّت آينور:

– السوتلاج جلالتكم.

قال الإمبراطور بامتعاض:

– الأسماء العثمانية تحتاج إلى حبل ناقوس كي تُنطق.

اختلف الأمر بعدها بيومين، فاللقاء الثاني مع الإمبراطورة لم يكن ودوداً كما الأول، وخمّنت آينور أنّ شيئاً ما سيتغيّر. كانت الحوارات، في اللقاءات الخمسة التي عُقدت، تأخذ مسارات تبعد كثيراً عن الرحلة إلى أن جاء الموعد السادس. قادوها هذه المرّة إلى مكتب الإمبراطور بدلاً من توجّهها إلى جناح الإمبراطورة. اكتشفت وهي تجلس بالقرب من فيلهلم الثاني أنّ الكرة الذهبية التي يضع عليها يده اليسرى محفورة بخريطة العالم. سألها بصوت سلس:

– إذا طُلب منك التضحية بسنوات طويلة من عمرك في سبيل خدمة مستقبل الإمبراطوريّة الألمانيّة، فهل تقبلين؟

بادلته آينور النظرة العميقة نفسها، وأجابت:

– هذا شرف عظيم لابنة الرايخ الثاني.

ابتسم قائلاً:

– عودي إلى وكالة توماس كوك، واستعدّي للسفر.

عشيّة الإبحار إلى حيفا كانت الإمبراطورة أوغستا فيكتوريا مفعمة بالمشاعر التي يحتاج إليها الفراق، إلّا أنّ آينور لم تعجبها تقلّبات الإمبراطور ومجاملاته للسلطان عبد الحميد الثاني، وكأنّه لم يسبق له إدراك عظمة حليفه. وجدته يبالغ في عواطفه وهو يتحدّث بإعجاب عن معارك المسلمين مع الإمبراطوريّتين الفارسية والرومانية. ارتدى الزيّ العسكري العثماني، ورافق السلطان إلى صلاة الجمعة بجامع الحميدية. وأخذ يلقّبه بالخان، وصاحب الشوكة، وقال أثناء حضوره الاستعراض العسكري المقام على شرفه إنّ الإمبراطورية الألمانية ملزمة بإظهار كامل الاحترام للبطل صلاح الدين الأيوبي، وعدّه أعظم عبقرية عسكرية في التاريخ. وفي قصر يلدز شاله كان فيلهلم الثاني يتحدّث بصوتٍ عالٍ عن روعة الفن المعماري العثماني متناسياً أنّ قصره في برلين يحتوي على ستمئة غرفة. كانت آينور تظنّ أنه يتعمّد أن تحدث نياشينه تلك الجلبة كلما تكلم عن بسمارك وشجاعته في عزله، وكان يفوته أحياناً إخفاء عوق يده اليسرى، فيرتبك مظهره، وتغادره العظمة. لم تشعر بحركة قلبها إلّا حين زارت برفقة الإمبراطور آيا صوفيا. توقعت أن يقدم فيلهلم الثاني على فعل ينتصر لأوروبا، إلّا أنّه كان مقتنعاً بأنّ آيا صوفيا جامع.

بعد العودة من زيارة مصنع هيريكيه للسجّاد، طلبت الإمبراطورة أوغستا فيكتوريا من آينور أن تلتقيها في الحديقة. كانت متيبّسة الإحساس على عكس الإمبراطورة التي لم تكن قد اكتشفت بعد أن لا شيء في إسطنبول يثير الاهتمام سوى أماكن الصلاة. بدا

على وجه أوغستا فيكتوريا، وهي تعبر الجسر الخشبي الأحدب فوق القناة المائية، أنّها منتشية بالحفاوة الزائدة عن المعتاد، موحية لآينور بحماستها، أكثر من السابق، لفكرة الحجّ. كانت قد ازدادت امتلاءً في الشهرين الماضيين، وأيّ تعبير تبديه يجعل التجاعيد تظهر في زاويتي عينيها وفمها. تظهر بملابس فضفاضة، وبأكمام ضيّقة يكللها وقار التضحية مع توجّع شفّاف يلهمها الحكمة. قالت الإمبراطورة وهي تقف متأمّلة الحدود البعيدة للبحيرة الملوّنة بذهبية الشمس:

– فيلهلم يريد منك البقاء في إسطنبول لأمر ما سيبلغك هو به، ولكنّني رفضت العودة إلى ألمانيا وحيدة، لذلك ستبقين هنا مدّة ثلاثة أيّام فقط ثم تبحرين إلى بيروت. سأرسل إليك ترخيصاً بالسفر على متن باخرة ديلبروك الحربية. سنلتقي بعد أن ننهي الحجّ، وزيارة دمشق، لنعود بعدها معاً إلى ألمانيا في الموعد المقرّر.

تساءلت آينور وهي مختنقة:

– هل أغضبتُ الإمبراطور في شيء؟

التفتت أوغستا فيكتوريا إليها بوجهها الممتلئ وعينيها الصغيرتين:

– فيلهلم يرى أنّ الحرّية الوحيدة التي يمكننا امتلاكها هي التنفّس.. هو لا يغضب إلّا حين يكتشف أنّنا فكّرنا بأشياء لم تخطر بباله.

كانت آينور واجمة عندما سألتها الإمبراطورة ببرود:

– هل طلب فيلهلم منك شيئاً؟

ردَّت آينور:

– جلالته لم يطلب أيّ شيء.

أحسَّت آينور بتناقض نظرة أوغستا فيكتوريا مع مشاعر كلماتها:

– سأصلّي من أجلك في بيت لحم.

***

كان عليها أن تبتسم وهي تأخذ مكانها في ميدان هيبودروم على المنصّة الخشبية المنصوبة قبالة البوابة الجانبية لجامع السلطان أحمد باعتبارها ممثلة عن إمبراطور ألمانيا، وملك بروسيا. كانت المنصّة من طبقتين ولم تلاحظ أيّ حضور لدولة أخرى، واستغربت أن يُكتب اسمها وصفتها على قطعة ورقيّة سميكة بدل اسم السفير البارون فون مارشال. شكّل الإيطاليون، واليونانيون حلقة راقصة حول المسلة الفرعونية، فيما التزم خمسة من طلّاب كليّة العلوم الحربية وهم في زيّهم النظامي بالعبوس تعبيراً عن موقف تركيا الفتاة من الإدارة العثمانية الفاشلة. ومع وصول موكب رئيس تشريفات السلطان سيطر اليونانيون على ترنّحهم، وأخذوا يهتفون بحياة السلطان عبد الحميد الثاني الذي احتجزهم قبل موعد وصول إمبراطور ألمانيا بسبعة أيّام تخوفاً من أيّ تهوّر إثر إقدام ثوري إيطالي في العاشر من أيلول على اغتيال إليزابيث إمبراطورة النمسا، وأطلق سراحهم عشية وصول فيلهلم الثاني إلى حيفا.

جلس منير باشا بجوار آينور هانز متعمّداً إيصال رزانته إلى تحسّسها، وهمس لها بأنّه لا يحبّ رئيس بلدية إسطنبول لأنه أحد الذين يعتقدون أن أوروبا نهضت بالسحر الأسود. بدا متطابقاً مع انطباعها القديم عنه حين التقته، قبل تسعة أشهر، في برلين. وسامته السمراء وضخامته المنسّقة، جعلتا مظهره الأنيق بلا أخطاء. في الخمسين لكنّه حذِر من الإفشاء بحيويّته كلّها. نسّق الإيطاليّون تجمّعهم، وراح ثلاثة منهم يعزفون على المندولين أنغاماً سريعة الإيقاع وسط تعالي الصخب، والرقص في مجاميع متنافرة.

سألته آينور وهي متخوّفة من خطأ خفيّ:

– كيف أمثّل الإمبراطور فيلهلم الثاني، وأنا لا أملك صفة رسميّة، ولست من أسرة هوهنزولرن؟

ضحك منير باشا، وقال:

– فيلهلم الثاني طلب منّا معاملتك كممثّلة عنه. في الحقيقة أنا لا أعرف إن كنت محظوظة، أم تستحقين الشفقة.

تعالت الموسيقى اليونانية بإيقاعاتها الابتدائية الرتيبة حين انسحب الإيطاليون في حلقة مفتوحة أمام المنصّة. انتظرت آينور حتى أنهى منير باشا مجاملة التصفيق:

– أنا أستحق الشفقة.. في الصباح طردني لينوس غينشر من وكالة توماس كوك، وبعدها بساعتين طلبوا منّي في السفارة انتظار توجيهاتك بشأن سفري إلى بيروت.. ماذا تخططان أنت وأمّي يا باشا؟

مال نحوها قائلاً:

– ما دام غينشر الأحمق طردك، فمعنى هذا أنّك لن تسافري إلى بيروت.

سألته وصدرها حارّ:

– هل الإمبراطورة أوغستا فيكتوريا هي التي أنهت خدماتي؟

قال منير باشا، بابتسامة ماكرة، وهو ينهض:

– أظنّك توافقين يا هانم على أن نتمشّى قليلاً.

ردّت آينور وهي تستجيب لانحناءته الخفيفة:

– إلى آيا صوفيا يا باشا إذا سمحت.

تبعتهما عن بعد خيّالة أرطغرل الستة، وحرس رئيس التشريفات. خلت الحديقة الفاصلة بين جامعي السلطان أحمد، وآيا صوفيا من المارّة. انتبه منير باشا إلى تسارع خطوات آينور التي قالت إنّها تريد التحقق من شيء غامض في قلبها. كان الليل قد أكمل

لروله، والمواقد الكبيرة المنتشرة في صفين عند مدخل آيا صوفيا تعمّق احمرار القوس الحجري الحامل للقبّة الكبيرة. شعرت آينور وهي تقف أمام المبنى الذي بدا لها كعملاق يريد النهوض ببرودة في رحمها. سألها منير باشا باستخفاف:

– أهو الحنين إلى أمجاد بيزنطة؟

أجابت وهي تأخذ نفساً عميقاً:

– بل هو الوقوع في غرام الله.. الله يا باشا.

تقدّم منير باشا ثلاث خطوات واستدار ليقف بينها وبين آيا صوفيا، قائلاً بصوت ثقيل:

– عزيزتي آينور.. من الآن حتى شروق الشمس أريدك أن تنسي أمّك، وأوغستا فيكتوريا، وغينشر، ورودولف، وكلّ الحمقى الآخرين..

قالت بحزم، ولمعة الذكرى في عينيها:

– إلّا رودولف يا باشا.. الحبّ ليس فيه نسيان، ولا ابتعاد، ولا قطيعة.

قال وهو يقصّر المسافة بين فمه وأذنها:

– حسناً.. سنبقي على رودولف.. لا مشكلة، ولكن في الصباح الباكر أريد أن ألتقيك لأمر مهمّ جداً.. كوني مستعدّة.

حلج الورد

لم يبتسم الرجل الأسود النحيف طوال الفترة التي استغرقها صبره كي يأخذ آينور هانز في الساعة السادسة والنصف من صباح يوم الثلاثاء من يلدز شاله إلى قصر دولمة باهجة. كانت العربة ضيّقة من الداخل، وقاسية الخشب، وغير منجّدة، فرجّحت بحنق أنّ منير باشا استاء أمس من بهاء خيّالة أرطغرل الذين جعلوا حرّاسه يبدون كفريق شعبي لدفن الموتى.

كانت مسترخية في البانيو اللازوردي المصمَّم على شكل الحوت الأزرق، حين أخبرتها خادمتها بريتا بوصول مبعوث رئيس التشريفات. احتاجت آينور إلى ربع ساعة أخرى، واصلت فيها تخيّل غابتها الفردوسية، بينما بشرتها تتنعّم بزيتيّة الماء الحارّ الذي قلبه الحليب إلى اللون الزئبقي. أربكت بحركات ساقيها أعواد القرفة القاربية، وأوراق الغار، وهي تغادر بانيو فيلهلم الثاني الذي جلبه من ألمانيا على يخته لأنّه يكره الحمّامات التركية. عادت بريتا لتنقل إليها تأكيد مبعوث رئيس التشريفات ضرورة تأجيل وجبة الفطور لأنّ الوقت ضيّق. وتّرها هذا، وشعرت وهي تجلس على السرير بوخز في خاصرتها وبتنمّل أعلى فخذيها. مالت إلى الخلف مستندة إلى

وتدي ذراعيها، فتكوّن المغص في مثانتها. طلبت من خادمتها إرجاع الفستان الأصفر إلى الخزانة واستبداله بالأسود البافاري، وحين بقيت بريتا على وقفتها، قالت آينور بتوجّع:

– يبدو أنّني سأحلج الورد اليوم.. اللعنة عليك يا غينشر.

كان درع آخيل الذي جهّزته بريتا لسيّدتها من ابتكار رودولف، ويتكوّن من حفاضة قطنية كيسيّة بحجم الكفّ بسبعة جيوب وسروال ضيّق يصل إلى الركبة مدعوم بشريط جلدي يمرّ بين الساقين. دسّت في الجيوب طبقات من الصوف المتبّل بالكركم، وفرو الأرنب الثلجي المرشوش بمسحوق الطحالب البحرية المجففة، وورق الزيتون، ثمّ حصنت الحفاضة بورقتي ذرة. قالت آينور بينما بريتا على ركبتيها تلبسها درع آخيل وتثبّت مكان الحفاضة المحشوّة:

– لا تنقصني سوى خوذة البيكلهاوبه.

أسرعت في ارتداء الفستان الأسود الذي كان رودولف قد صمّمه لزوجة صانع أجبان من ألغوي في بافاريا، ولكنّها رفضته، لأنها أرادته بقصّة بيرثا الكاشفة للكتفين، بينما رودولف جعل فتحة الصدر على شكل صليب صولجاني صغير، يوحي بعذاب الضمير. وقبل أن تغادر آينور القصر طلبت من بريتا تجهيز الحقائب لأنّهما ستتركان القصر مساءً، وتذهبان إلى بيت الخالة نازان.

لاحت لعينيها من النافذة المربّعة للعربة أعلام النسر الملكي، والطغراء المذهّبة المنشورة على الطريق بأوضاع قوسية، وبأحجام تفوق تلك التي رُفعت على يخت فيلهلم الثاني عند دخوله مضيق الدردنيل. تعمّدت النظر إلى كتفها اليمنى، وبعدها إلى اليسرى كما في صلاة المسلمين، وركزت بصرها في عيني مرافقها الذي يجلس قبالتها متصلّباً وكفّاه على ركبتيه، ونظره يترنّح بين منطقتين بعيدتين عن وجهها. قالت بالتركية، وملامحها مشدودة بتحدٍّ:

– في ألمانيا، حين لا يبتسم الرجل لامرأة جميلة، دقيقة الخصر، ترتدي فستاناً من تصميم المجنون رودولف، فإنّ الشرطة تقبض عليه، لأنّ هذا يعدُّ قلّة احترام.

صحّح الرجل نظره، قائلاً:

– في إسطنبول، الشرطة تلقي القبض على المرأة، ورودولف، لأنّهما يشيعان الفساد في المجتمع.

ضحكت آينور بتكلف، ثمّ تساءلت باستسلام حذر:

– هل تقودني إلى السجن، أم ستطعنني بخنجر مسموم، وتلقي بجثتي في البوسفور؟

انتبه الرجل الأسود إلى أنّه بالغ في الاستهانة، فقال بشفتين يابستين:

– آينور هانم، أنا أنفّذ أوامر رئيس تشريفات مولانا السلطان.

لم يُسمح للعربة باجتياز بوّابة القصر. سبقها الرجل الأسود دون أيّ مراعاة لخطواتها البطيئة. لم تر مياه البوسفور، ولكنّ صدرها انقبض من أشباح مداخن باخرة مكمّمة بالغيوم الرمادية في البعيد. انتابها القلق عندما التوى مسار الرجل الأسود باتّجاه جناح تختنق واجهته بالزخارف العثمانية. باتت المسافة بينهما أقصر وهي تتبعه في ممرّات ضيّقة، ومعتمة، وبصرها معلّق بطربوشه. أوصلها إلى فسحة مربّعة جيدة الإضاءة حيث كان بانتظارها شابّ وسيم بابتسامة باهتة، يرتدي بدلة بنّية ضيّقة. كرّر مراراً جملة «أهلاً هانم» وهو يقودها عبر غرف متداخلة فاتحاً الأبواب على عجل، وكأنّه يسلبها التركيز. شعرت آينور بضيق بين ساقيها، وبتشنّج في سرّتها وهي تقف خلف الشابّ الذي طرق باباً أبيض اللون، بلا مجسّمات، ولا نقوش، وتراجع منحنياً. عاودها مغص مثانتها حين ظهر لها منير باشا الذي صرف الشابّ الوسيم بحركة من يده. كانت الغرفة صغيرة، لا تحوي

سوى طاولة لأربعة أشخاص، كراسيّها خفيفة، صمّاء، وغير منجّدة. لا خزانة للخزفيات، ولا لوحات. ورق الجدران باهت الحمرة، وفيه علامات لرطوبة قديمة. أجلسها منير باشا على كرسيّ بطرف النافذة كي لا تعترض ضوء الصباح الذي فرش نصف الغرفة، ثمّ سحب من الطاولة كرسيّاً إلى منطقة قريبة من الجدار المقابل.

قالت آينور وهي تتلقى نظراته المتفحّصة:

– أنا متوتّرة يا باشا.. لقد منعتني من تناول فطوري، وجلبتني إلى هنا في عربة بائسة برفقة عبد وقح، وها أنت تحتجزني في هذه الغرفة الكئيبة.. هل هذه خطتكما أنت وأمّي؟ ستحبسني وتبيعني جارية للصدر الأعظم؟ أنا أكره ناريمان لأنّها تآمرت معك.. لقد جعلتما رودولف المسكين ينتحر.

ابتسم الباشا:

– الأمر لا علاقة له بأمّك، ولا برودولف. أرجو أن تتمالكي نفسك، وتنتظري هنا لدقيقة.

قال هذا وهو يعدّل طربوشه، ويغادر الغرفة. سمعت آينور بعدها بقليل طرقاً خفيفاً على الباب الذي فتح بتردّد، وأطلّ رجل متوسّط القامة، لم تتبيّن ملامحه في الظلّ. أغلق الباب بحرص ثمّ استدار قائلاً بصوت رخيم:

– مرحباً آينور هانم.. أنا السلطان عبد الحميد الثاني.

دق قلبها بقوّة وآلمها ثقل ساقيها وهي تقف. كان حنطي اللون، يتجمّع عند أنفه الكبير المعقوف كلّ شحوب وجهه، بينما تبدو على شفته السفلى المشقوقة والبارزة من دائرة الشارب واللحية لمعةٌ دهنية. حافة طربوشه تقترب من حاجبيه الرفيعين، ما أعطى لعينيه الخضراوين حدّة وقوّة مواجهة. يرتدي بدلة أوروبية سوداء، وحذاءً من الروغان، ومن منتصف قميصه الأبيض يتدلى وسام آل

عثمان النجمي. حيّته آينور بانحناءة خفيفة مرتبكة، وهي متصلة النظر بعينيه الجامدتين. أشار بيده إلى كرسيّها مكرّراً دعوته إيّاها للجلوس. تلفّت متفحّصاً الغرفة وهو يتراجع إلى الكرسيّ المقابل الذي وضعه منير باشا. سحب مسنده إليه، ناظراً إلى ظهره، ثم حرّكه يميناً ويساراً قبل أن يجلس بتمهّل فاتحاً أزرار الجاكيت. قال ولحيته تقترب من وسامه:

– أرجو قبول اعتذاري، فالمكان غير لائق.

ردّت آينور وملامحها محتقنة:

– مقابلتكم شرف عظيم مولاي السلطان.

لم يستقم ظهره. رفع يده اليمنى عن ركبته، وقلب كفّه قائلاً:

– تعلمتُ من حربنا الطويلة مع روسيا أنّ الطاعة لا تلغي الخيال، ويبدو أنّ منير باشا لا تثير خياله اللقاءات السريّة.

ابتسم كي يشعرها بودّية اللقاء، وتابع وهو يشبك أصابعه بين ساقيه:

– الطاولة والكراسي من شغل يدي. الأمر ليس فيه عبقرية عالية الفنّ كما ترين، ولكنّ النجارة تهبنا مهارة التطويع.

انتبهت آينور لحركة أصابعها على ساعدها الأيسر الذي تتلبّسه الدانتيلا بمخرّمات زهرية. سحبت يدها، بينما السلطان استدرك قائلاً:

– أنا أضع أرقاماً مخفيّة على ما أصنعه من أثاث، لكي أسترجع ذاكرة تعبي معها. إنّها طريقة سهلة لتحسين الثقة، فأقول لنفسي يا عبد الحميد حتى لو كنت فاشلاً في إدارة الدولة، كما يقولون، فها أنت صنعت الكثير من الأشياء المفيدة في الحياة. حين أعثر على هذه القطع مركونة هنا أو هناك، تزول مخاوفي الوسواسية.. لو أنّ

الحياة آمنة، والإنسان يعيش كما يرغب، لتركت كلّ شيء واشتغلت نجاراً.

ابتسمت آينور معبّرة عن تقديرها لأريحية السلطان الذي بدا مختلفاً عن صورته التي ترسَّبت في ذهنها، سواء من كلام الإمبراطور فيلهلم الثاني وزوجته، أو من ظهوره المتكرّر مرسوماً ببشاعة على أغلفة Le Petit Journal الفرنسية. كان الألمان يعتقدون أنّه غير جدير بالثقة، والإنكليز يتكلمون عن بخله، وطرقه الانتقامية، والروس يخافون من قربه الشديد منهم. لم تكن آينور، طوال إقامتها في إسطنبول، ميّالة لمقابلته، ويوم رسا يخت فيلهلم الثاني عند قصر دولمة باهجة في الثامن عشر من تشرين الأول، طلبوا منها عدم مغادرة مقصورتها إلّا بعد انقضاء ثلاث ساعات على انتهاء مراسم الاستقبال، وطوال مرافقتها لفيلهلم الثاني في الأيام الأولى، كان السلطان عبد الحميد يربك المكان، ويخلق وجوده زحاماً كبيراً، إلّا أنّها لم تلمح منه غير أثره.

انقبضت ملامح السلطان وهو يسألها:

– آينور هانم.. هل سمعت بولاية الموصل؟

حبست أنفاسها مقاومة نوبة تقلّص في أسفل بطنها:

– لا أظنّ هذا يا مولاي.

مال إلى الأمام، وقال بصوتٍ مشدودٍ، وبملامح جامدة، وكأنّه يقرأ الكلمات:

– هي ولاية تقع في شمال بلاد ما بين النهرين، مركزها الموصل، وهي من ممتلكاتنا، وتشكّل ملتقى الطرق بين أوروبا، ودولتنا العليّة، وروسيا، وبلاد فارس. فقدت الكثير من زهوها بعد افتتاح قناة السويس، ولكنّها ستكون مهمّة جداً بعد ربع قرن، لذلك تتنافس الآن ثلاث دول هي إنكلترا، وروسيا، وفرنسا على احتلالها.

إنكلترا هي الأشدّ إصراراً على تحقيق هذا الهدف لأنّ هذه الولاية غنيّة جداً، ينطوي باطن أرضها على النفط، وهي رأس البرّ في الطريق إلى الهند، فمن الخليج تصعد البضائع شمالاً إليها، ومنها إلى أوروبا، وإذا ما احتلت روسيا أو فرنسا الموصل، فإنّ هذا سيوجّه ضربة أليمة إلى الاقتصاد الإنكليزي، ويجعل الهند غير ذات جدوى. هذه الأهمّية أصبحت من التاريخ، ولكنّ الإنكليز مثل الرومان القدماء، يفكّرون كثيراً بخطواتهم، ويعتقدون أن الذي تكون له أهمّية في الماضي، لا بدَّ من أن تظهر له أهمّية في المستقبل. أنا أحبّ هذا فيهم. أهمّ ما في الأعداء يا آينور هانم ليس خطرهم، بل ما يلهموننا إيّاه من أفكار. الأعداء الأقوياء، والشرفاء، يحسّنون قدرات تفكيرنا، وينشّطون العضلات. يجعلون الدم يدور بسرعة. نحن نريد التخلص فوراً من مشكلاتنا، أمّا الإنكليز فإنهم يتأمّلون لقرون، لهذا استبقوا الأمر، وهيمنوا بأموالهم وتجارتهم على الموصل، وكبّلونا بالديون، وعقدوا معنا معاهدة تجارية بغيضة عام 1838 وهم ينتظرون اندلاع الحرب الكبرى كي يحتلوا كلّ بلاد ما بين النهرين لحماية طريق الهند القديم أولاً، وإنشاء طريق النفط ثانياً. لقد وصل الإنكليز إلى بلادنا لأنّنا لا نملك الصناعات المتطوّرة، ولا الأموال، ولا حتى القوّة العسكرية الكافية، وإصلاحاتنا بطيئة، وعقليتنا قديمة.

سكت السلطان، وأخذ ينظر إلى الأرض وهو يباعد ساقيه. شعرت آينور بالبرد يتسلّل إلى أصابع قدميها، وخُيّل إليها أن فستانها الأسود يصدر أصواتاً من مثاقب الخيوط. رفع رأسه بتثاقل، فبدا من عينيه أنّه ذهب بعيداً في ذاكرته ثم عاد:

– سياسات أجدادي مع البدو والعشائر كانت خاطئة. وأنا فشلت في تحويلهم إلى فلّاحين، ولم أتمكّن من إجبار العشائر على ترك عادات السطو والنهب. صحيح أنّ الدولة العليّة الآن جزء من

النشاط التجاري والصناعي الدولي الموحّد، إلّا أنّ أوروبا تفاجئنا في كلّ يوم بشيء جديد، بينما نحن لم نسترح بعد من إعادة تنظيم هياكلنا الإدارية إثر ظهور التلغراف العجيب.. الاندماج الثقافي مع أوروبا لم يعد في حبّ الأوبرا، والعزف على البيانو. الإمبراطور فيلهلم الثاني طلب منّي إدخال الكهرباء إلى دولتنا العليّة، هذا الطلب يجعلني أقلق كثيراً.. شيء مخيف هذا الذي يحدث للعالم اليوم.

فكّرت آينور أن تخبر السلطان بالاختراعات الجديدة التي تتكلم عنها الصحف الألمانية، ولكنّه أطبق كفّيه وقال بصوت مشدود:

– لقد قرّرنا منح التجّار الألمان تسهيلات كبرى كي يأتوا ببضائعهم وصناعاتهم إلى بلاد ما بين النهرين، وسنقوّي بتحالفنا قدرات دولتنا العليّة العسكرية، ونعيد تعزيز وجودنا في الجزيرة العربية.

أرجع السلطان ظهره، وتطلّع إلى آينور التي كان قلقها يزيد من ثقل الوقت عليها، وهي غير قادرة على الربط بينها وبين طموحات الدولة العثمانية، ولا تدري إن كان وجود السلطان هنا مصادفة، أم هو جاء لرؤيتها، وتبادل الحديث معها، وقبل أن تفطن إلى أن وجود السلطان في قصر دولمة باهجة هو أمر طبيعي، نهض صوته بنبرة نشطة:

– آينور هانم.. ترك لي إمبراطور ألمانيا، وملك بروسيا، فيلهلم الثاني، مهمّة مقابلتك. لقد بحثنا كلّ التفاصيل معاً طوال سنة كاملة كنتِ خاضعة فيها لمراقبة دقيقة من تشكيلات يلدز الاستخباراتية، وكذلك من الشرطة السرّية الألمانية. كلّ الذي واجهتِه في السنة الماضية هو بتخطيط من الدولة العليّة، وألمانيا العظمى، وقد اتفقنا في الاجتماعات الثلاثة التي جرت هنا في إسطنبول على البدء بتنفيذ مشروع مدّ سكة حديد من برلين إلى بغداد، وهذه

السكّة ستمكّن ألمانيا من منافسة إنكلترا اقتصادياً، وستساعد قوّاتنا العسكرية على التحرّك بسرعة إذا ما اندلعت الحرب الكبرى. لن نترك الإنكليز يتحكمون بالتجارة العالمية، وسنضعفهم إلى حدّ التخلي عن طموحاتهم.

تلفّت السلطان وكأنّه يبحث عن شيء ما، ثم رفع رأسه، وعاد ليقول:

– بتاريخ السابع والعشرين من تشرين الثاني عام 1899 سأعلن منح شركة سكة الأناضول الألمانية رخصة العمل على أراضينا، وقبل هذا سنرسلك إلى الموصل بمهمّة إنشاء صناعة نسيجية هناك، ومساعدة التجّار الألمان على العمل في الولاية، والتوسّع بعدها إلى بغداد والبصرة.

ارتخت ملامح السلطان، وكأنّه تخلص من واجب ثقيل، وبدا من نظراته المستطلعة أنّه غير واثق تماماً من نجاحه، فقد شدّت آينور نفسها وخُيّل إليها أنّ ورق الزيتون الجافّ يتكسّر بين ساقيها، وأنّ حرارة دافقة وثقيلة تليّن الخشونة تحتها. التوت عضلات بطنها متكتمة على رائحة قاع البحر المنبعثة من حجرها وهي تتساءل بحنجرة محروثة:

– هل معنى هذا أن رودولف قُتل؟

بادلها السلطان النظرات الباهتة نفسها، محاولاً تذكّر تفاصيل موت رودولف، ثمّ قال، وهو يلوّح بيده علامة النفي:

– لم يُقتل..

– أرجو أن تتذكّروا جيداً يا مولاي.

اصفرَّت هيئته وهو يشير بسبّابته إلى طربوشه قائلاً بتوتّر:

– بالعقل يا آينور هانم.. كيف نقتل السيد رودولف ثمّ نرسلك بمهمّة تتعلق بمصير دولتنا؟

تمالكت آينور نفسها، مدركة شناعة فعلتها. نظرت بانتباه إلى السلطان عبد الحميد الذي بدت عليه الصدمة وقالت، وهي واثقة تماماً من أنّ الدم خرج منها:

– كلامكم خفّف عنّي الكثير.

سألها السلطان بخيبة:

– هل سمعت جيداً ما قلته لك؟

أجابت بارتباك:

– نعم يا مولاي، لقد سمعت جيداً، لكن حين قلتم إنّ الذي واجهته في السنة الماضية هو بتخطيط من الدولة العليّة وألمانيا العظمى، تساءلت فوراً إن كانت الشرطة السرّية الألمانية قتلت رودولف.

أشار السلطان إليها بسبّابته:

– ما واجهتِه أنت لا رودولف.. تكلّمت عنك أنت. الرجل كان يعاني من مرض عقلي، وظرف سجنه لم يكن من تخطيط أحد. لقد أعدناك إلى برلين فقط، والشرطة السرّية الألمانية استخدمت أسلوبها في هذا، ولكنّ رودولف لم يُقتل.

بان الانزعاج على ملامح السلطان، فدقّ قلبها بقوّة، وشعرت مجدّداً بثقل أطرافها:

– أعتذر يا مولاي.

هز السلطان رأسه وهو ينظر إلى ركبتيه. أدركت آينور أنّها أخطأت في أريحيّتها، وتصرّفت على الطريقة الألمانية الفجّة، فالسلطان عبد الحميد الثاني لا يمكن أن يكون مماثلاً لأوغستا فيكتوريا، أو حتى لفيلهلم نفسه، وأنّها يمكن أن تكون جرحت تواضعه، أو لم تقدّر جيداً مبالغته في الثقة. عدّلت جلستها، وانحنت إلى الأمام قائلة برجاء حذر:

– مولاي.. لقد منحني الإمبراطور فيلهلم شرف أن أكون ابنة الرايخ الثاني، وأنا الآن أشعر بهذا تجاهكم.. الابنة شديدة التعلق بشفقة الوالد، وتأمل عطفكم ومسامحتكم.

قال السلطان بصوتٍ جافّ:

– يبدو أنّك لم تسمعيني جيداً.

– لقد سمعتكم يا مولاي.. تريدون منّي الذهاب إلى الموصل، والعمل على إنشاء صناعة نسيجية هناك، ومساعدة التجّار الألمان على العمل في الولاية.

– تمام..

ارتجف صوتها وهي تسأله:

– ما علاقتي بهذا الأمر؟

ارتفعت سبابة يده اليمنى عن ركبته، وهو يطلب منها التوضيح، فعادت آينور لتقول بظهر مستقيم:

– أنا امرأة تعمل مرشدة سياحية، وتجيد توليد النساء، وجلالتكم تقدرون على إنشاء صناعة نسيجية في أيّ مكان، وتدخلون الألمان إلى أيّ ولاية ترغبون فيها.

نظر السلطان إلى الأرض ثمّ رفع رأسه قائلاً:

– كلّ واحد منّا يملك حقيقة عميقة غير التي يعرفها عن نفسه. البشر الأنقياء يمكنهم إظهار معجزاتهم إذا توفرت لهم الظروف المناسبة.. ما أطلبه منك لا يستطيع الصدر الأعظم، ولا أيّ والٍ، ولا أيّ قائد عسكري فعله، لأنّهم سيسرقون، ويغشّون، ويتحوّلون إلى مستبدّين، وظالمين، وخونة. صحيح أنّك مرشدة سياحية، وتجيدين توليد النساء، ولكنّك تملكين في حقيقة أعماقك العدالة، والحق، والأحلام.

بدا الخوف على وجه آينور وهي تتساءل بصوتٍ مرتجفٍ، بينما رطوبة الدم تتكثّف بين ساقيها:

– أتظنّون يا مولاي أنني بالعدالة والأحلام، سأقدر على إضعاف الإنكليز، ومنعهم من التحكّم بالتجارة العالمية؟

ردَّ بحماسة:

– مع السلطة، والمال.. نعم.

خُيّل لآينور أنّ كلّ شيء تعطّل فيها، فسألها السلطان، برعشة انفعال:

– هل تعتقدين أنّ السلطان عبد الحميد والإمبراطور فيلهلم لا يعرفان من أنت؟

– أستغفر الله يا مولاي.

احتدّ صوته وهو يقول:

– أنت كنت مرشدة سياحية بإرادتنا وتخطيطنا، وقبلها حاولتِ أن تكوني قابلة لكي لا تجوعي، لكنّ عملك لا يعني أنّ هذه هي آينور هانز.

تساءلت وهي تزيد من التوائها:

– هل ستمهلونني لأفكّر، أم عليّ تنفيذ أمركم في الحال؟

ازداد الشحوب في أنف السلطان:

– آينور هانم.. لقد فهمت من الإمبراطور فيلهلم الثاني أنّك على استعداد لتنفيذ أيّ مهمّة تُكلّفين بها، ولقائي بك الآن يتعلق بالتفاصيل ليس أكثر. هل سبق للإمبراطور أن فاتحك بشيء؟

تسارعت أنفاسها، وهي تردّ:

– نعم يا مولاي، ولكنّ هذا حدث في ألمانيا، لا هنا. لقد أبلغتني الإمبراطورة أنّه سيبقيني في إسطنبول ثلاثة أيّام، وسوف يخبرني عن السبب، ولكنّه لم يفعل. وكلامه معي في برلين لم يكن

واضحاً. المعذرة يا مولاي، أقصد أنّه لم يذكر لي ولاية الموصل. لم يذكر لي أنّه سيرسلني إلى خارج ألمانيا، وأنا ظننت أنّه سيطلب منّي أن أكون بخدمة الإمبراطورة بعد عودتنا، أو أنّه سيوظفني في القصر، أو يجعلني أعمل مع الشرطة السرّية. هذا ما فكّرت به وقتها.. لا تغضبوا منّي يا مولاي لطفاً.

قال السلطان باسترخاء:

– لم ير الإمبراطور فيلهلم الثاني ضرورة لتمهيد الأمر لك. نحن ننسى الكثير من الأمور بسبب الثقة. لقد حدّثني عنك بفخرٍ كبير.. آينور هانم، عليك الذهاب إلى الموصل.. أنتِ وعدت الإمبراطور بتنفيذ أيّ مهمّة تُكلّفين بها، والأمر لا يستحق خوفك وقلقك، عليك فقط الانتباه لما سأقوله.

– لم أعده بمواجهة الإنكليز، ومحاربة تجارتهم.. فيلهلم نسي أن يخبرني بهذا.

رفع السلطان يده قائلاً:

– عليك احترام الإمبراطور أمامي.

ارتجف صوتها وهي تتطلع إلى الأرض:

– غفرانكم مولاي.

نظر السلطان إلى الطاولة، وقال بحدّة:

– ستذهبين إلى الموصل يا آينور هانم، وعليك الطاعة، وإلّا فإنّني سأضطرّ إلى إحالة أمرك إلى الشرطة السريّة الألمانية.

ثقل الألم في ساقيها، وشعرت للحظة بدوار.

سألها:

– هل أنتِ خائفة؟

ردّت بارتباك، وهي تلمّ أصابعها:

– نعم.. خائفة من الشرطة السريّة الألمانية، وأشعر بالعطش وبالجوع يا مولاي.

انتظر قليلاً، ثمّ سألها بصوتٍ رخو النبرة:

– وخائفة منّي أيضاً؟

أجابت وهي تتفقد فتحتي أنفها:

– نعم يا مولاي.. كثيراً..

– ولكن يُفترض أن تكوني شجاعة.. التي ستدمّر تجارة الإنكليز يجب أن تكون شجاعة.

– لا وجود للإنكليز في هذه الغرفة يا مولاي.

وحين رأت ابتسامته تساءلت مجارية اعتدال الجوّ بينهما:

– ولكن من سيضع الزهور على قبر رودولـف إن أنا سافرت بعيداً لفترة طويلة؟

قال وهو يشير بسبّابته إلى صدره:

– أنا سأفعل هذا، أو الإمبراطور فيلهلم.. لا تقلقي بشأن الزهور.

قالت وهي متوجّسة من مظهرها:

– لا أظنّ أنّ الإمبراطور سيهتمّ برودولف كما يجب، فعظمته ينسى كثيراً.

قال السلطان بنبرة تعاطف:

– أعدك أنّني سأهتمّ به، لا تقلقي.

شدّت نفسها، وقالت بوجه عابس:

– حسناً يا مولاي، سأذهب إلى الموصل.

أطبق السلطان كفّيه ورفعهما إلى شفتيه، مخفياً ابتسامته، ثمّ أنزلهما قائلاً بصوت مشدود:

– ركّزي في ما سأقوله آينور هانم.. ستبقين هنا في إسطنبول أربعة أشهر، ثمّ تقضين مدّة شهر في باريس، ومنها تنتقلين إلى لندن.

خلال كلّ هذه الفترة ستتلقين التدريبات، وتتعلمين اللغة العربية. ستنقلين من باريس ولندن أموالاً ستودع بحساب خاصّ بك في البنك الإمبراطوري العثماني في الموصل. إنّها دفعة أولى. سيكون هناك أشخاص بقربك، وعن طريقهم يمكنك أن تتواصلي معي عند الضرورة إن كان لديك أيّ استفسار. لن أنزعج إذا ما استخدمت الأموال بإسراف ما دامت تُنفق لهدفٍ كبير، ونبيل. تحتاجين إلى إظهار الجانب الشخصي في الإنفاق وهذا يبعد عنك الشك. تمتّعي بمظاهر الترف. لن أنزعج. ستصلين إلى الموصل بعد ستة أشهر من الآن. أنت فعلياً تملكين في لندن متجراً كبيراً لبيع الملابس، وأدوات الخياطة، وتملكين شبيهاً له في باريس. المتجران تديرهما منذ سبع سنوات تشكيلات يلدز الاستخباراتية، وهما باسم أمّك، وقد كانت تتردّد على المتجرين في الخفاء، بعلمنا وبعلم الشرطة السرّية الألمانية. في السابق كنّا نفكّر بناريمان هانم، ولكنّنا غيّرنا الخطة قبل سنة، ونقلنا ملكية الأموال إليك. ستعطيك تشكيلات يلدز الاستخباراتية فكرة كاملة عن الموصل، وعن الجواسيس الإنكليز، والفرنسيين، والروس الذين ينشطون فيها. مهمّة الاستخبارات ستنتهي بعد ستة أشهر، وترفع عنك كلّ أنواع المراقبة والارتباط، من بعدها ستتلقين الأوامر منّي فقط. أنت لست جاسوسة لأنّني لن أطلب منك أيّ معلومات، ولن أتحكّم سوى بالشيء الذي يضمن سلامتك، كلّ ما سأقوم به هو مساعدتك، ودعمك. سيكون لك مطلق الحرّية في تقدير الأمور. ستتلقين دروساً في إدارة الأموال، والمشاريع الصناعية، والنسيجية، وستتصلين بالتجّار الألمان. برلين لن تتكلم معك. سأخبرك قبل سفرك إلى باريس بأشدّ الأمور سريّة، وهي تلك التي تتعلق برجال الدين في الموصل، وهؤلاء يتلقون منّي شخصياً التوجيهات السياسية، فالإنكليز

شكلوا قبل سنوات شبكة من أئمة الجوامع يعملون ضدّ مصالح دولتنا. سأعطيك كلّ الأسماء قبل سفرك.

وضع السلطان يده في جيب جاكيته الأيمن، وأخرج لفافة ورق صغيرة سمراء فتحها أمام صدره قائلاً:

– أيّ شخص يأتيك حاملاً هذه الورقة وفيها عبارة مكتوبة بخط يدي بحبرٍ أحمر، فإنّ هذا الشخص يجب أن يكون محلّ ثقتك، وما يقوله فهو منّي.

سألها بملامح بريئة:

– ماذا تحبّين أن تكون العبارة؟

بقيت آينور تنظر إلى الورقة بينما السلطان لم يغيّر وضعه:

– هل أكتب اسم رودولف؟

ردّت آينور على الفور:

– رودولف العظيم من فضلكم مولاي.

أرجع السلطان الورقة إلى جيبه. وقال وهو ينظر إلى ركبتيه:

– آينور هانم.. إذا نجحت في مهمّتك، فستعيش الدولة العثمانية طويلاً، وإذا فشلت فمعنى هذا أنّنا سنخسر الحرب الكبرى القادمة.

سألته آينور بحذر:

– هل تهبونني الثقة يا مولاي، أم هي الحقيقة؟

هز رأسه، ثم فتح ذراعيه:

– الحقيقة.. إنها الحقيقة.. لقد تأخرنا كثيراً. كان ينقصنا المال والحلفاء، وها نحن نبذل ما بوسعنا لكي نطرد الإنكليز من حدود دولتنا. في هذه اللحظة أنا أشعر بالثقة، ولكن ربّما تُسلب منّي بعد ساعات. كلّ الأعداء الآن كانوا في وقت قريب من حلفائنا. أجدادي توسّعوا أكثر ممّا يجب، ولهذا هناك الآن الكثير من المخالب

المتربّصة بنا. نحن نراهن على الصراعات في أوروبا، وإذا ما أنجزنا سكّة حديد برلين بغداد فسوف ننتصر. الإنكليز سيعملون على إثارة الروس ضدّنا لأنّ سكّة الحديد تهدّد تجارتهم أيضاً، وهم يتخوّفون من وصول جيوشنا إلى القوقاز بسرعة. فبالنسبة للإنكليز يظلّ الروس أفضل من الألمان الذين إذا ما تعاظمت مصالحهم في بلاد ما بين النهرين والخليج، فستحكم الإمبراطورية الألمانية أوروبا كلها.

قالت آينور وهي تشعر بسخونة في أسفل ظهرها:

– الدولة العليّة ستعيش طويلاً يا مولاي.

لاحت على وجه السلطان ابتسامة ضعيفة. تطلع إلى آينور قليلاً ثم قال:

– مهمّتك ليست سهلة، ولكنّني سأكون بجوارك قدر استطاعتي.. إذا وجدتِ أنّك غير قادرة على الاستمرار، فعليك إخباري قبل الإقدام على أيّ فعل، وفي حال وفاتي، أو عزلي، أرجو منك مغادرة الموصل حال سماعك الخبر. هناك بيت باسمك في جزيرة ثيرا جنوب بحر إيجه. هناك ستجدين الأمان، والسلام، والأموال التي تؤمن لك حياة جيدة. إذا ما حدث شيء لي، فكل ما تحت يدك في الموصل هو ملكك. ما دمتُ على قيد الحياة، وفي الحكم، فأنت بحمايتي، ولكنّ هذا لن يجعلك خارج الخطر تماماً، لأنّ الإنكليز سيفعلون أشياء كثيرة لإفشال خط سكّة الحديد، وإبعادك عن الموصل. لن أقيّم عملك وأحكم عليه. أنت من سيفعل هذا. التقييم لك آينور هانم.

شعرت بثقل ثدييها، وانقطعت عن أنفها رائحة أعماق البحر، فعاد السلطان ليقول بصوتٍ منخفض:

– قضيّة سكّة حديد برلين بغداد هي مسألة بين إمبراطوريتين، لكنّ مهمتك غير متّصلة بالحكومتين، وإنّما هي مهمّة شخصية بيني وبينك، لهذا، أكرّر، وانتبهي لكلماتي لطفاً، إذا ما حدث شيء لي،

فعليك ترك الموصل فور وصول الخبر إليك. وأنا أفضّل ألّا ترجعي إلى ألمانيا في حال وفاتي، أو عزلي. أمّا الأموال التي ستتصرّفين بها، فهي من مالي الشخصي. لستِ مدينة للدولة العليّة بشيء، ولن تكون هناك حقوق للدولة في ذمّتك. وأمّا إذا نجحت في أعمالك التجارية والصناعية، فأنت غير ملزمة بردّ شيء من الأموال.

تساءلت آينور بينما السلطان يغمره الظلّ:

– إذا سمحتم لي جلالتكم.. أنتم تستبدلون الإنكليز بالألمان.. هل هذا كلّ شيء؟

استند بكفّه إلى ركبته اليمنى قائلاً:

– الألمان ليست لهم أطماع بأراضينا لسبب بسيط وهو أنّ الدول الكبرى استولت على كلّ ممتلكاتنا، ولم يبق أيّ شيء.. لهذا لا تملك ألمانيا سوى الصناعة والاقتصاد، وهي الآن تبني قوّتها العسكرية لأنّها تحتاج إلى حرب كبرى كي تفرض سطوتها على كلّ أوروبا، ونحن سنتحالف مع الألمان في هذه الحرب.

اكتسى وجه السلطان بالحزن، وتابع وهو ينظر عبر النافذة:

– مشكلة الإمبراطورية ذات الأراضي الشاسعة والجيوش المتعدّدة أنّ الكثير من المصالح الشخصية يجب أن تراعى. في وقت مبكر اكتشفت أنّني لست على علم بكلّ ما يجري في دولتي، واضطررت في لحظات عصيبة كثيرة إلى الموافقة على أشياء لا أراها حكيمة. عشت لسنوات بلا إرادة، وكنت أرى رجالي يرتكبون الحماقات، ويسبّبون مشكلات غبيّة، ومنذ إعلان الدستور بدأت أعمل بمفردي. الإنكليز والروس لا يعتقدون أنّني قد أضع ثقتي في امرأة، وهذا سيبعد عن أذهانهم الكثير من الشكوك. هم يرونني رجلاً مستقيماً وفاضلاً، ولكنّهم واثقون من ضعفي، وهذا يفيدنا كثيراً.

رفع السلطان رأسه قائلاً:

– آينور هانم، أنا أهبك كامل ثقتي.

مال رأس آينور وهي تنظر إلى الأرض قائلة:

– حتى أنجح يا مولاي عليّ أن أحبّ الموصل.

قال السلطان وهو يقف:

– سأجعلك تحبّين الموصل، وليغفر لي رودولف ذلك.

نهضت آينور، تحرّكت بتردّد. نظر السلطان إليها وهو يزرّر جاكيته:

– مولاي المعظّم.. هل تريدون منّي أن أكون عثمانية، أم ألمانية؟

ردّ وهو يركز في عينيها:

– كوني المرأة التي تؤمن بقلبها، وافعلي ما يُفترض بنبيّ فعله.

عضّت شفتها السفلى مؤخرةً رجفة البكاء، فعاد السلطان ليقول:

– أنت ابنة الرايخ، وابنتي أيضاً.. أنا قلت لك الحقيقة لأنّ تشكيلات يلدز الاستخباراتية لن تخبرك بها.. لا أحد سمع منّي ما سمعتِه توّاً.. لا أحد رآني كما رأيتِني أنت.

ثقلت أنفاسها، ولاح الذبول الحزين في عينيها:

– مولاي السلطان المعظّم، أرجو أن تشملوني بعطفكم، وكرمكم، وتبقوني في قصر يلدز شاله طوال إقامتي في إسطنبول.

تساءل السلطان وعلى شفتيه شبح ابتسامة:

– بالعربة الملكية، وخيّالة أرطغرل الستة؟

– نعم يا مولاي.. وهناك أمر آخر.. أريد أخذ بانيو الحوت الأزرق معي إلى الموصل.

ظهرت الدهشة على ملامحه:

– ما هو هذا البانيو وأين يوجد؟

حافظت آينور على المسافة بينهما:

– إنّه البانيو الخاصّ بالإمبراطور فيلهلم الثاني، جلبه معه من ألمانيا، وأبقاه في جناحه في قصر يلدز شاله.

قال السلطان هو يقطع خطوة نحو الباب:

– سوف أسأل الإمبراطور، وإذا قبل، فسأرسل البانيو إليك.

استوقفته بصوتٍ لاهث:

– مولاي المعظّم.. رودولف يحب زهور الهيدرانجيا الزرقاء.

هز رأسه وهو يفتح الباب، ثم لوّح بيده وهو يغادر.

البصرة – بغداد

أيار 1899

قبّة الأحمديّة

وصلت آينور هانز إلى البصرة في السادس عشر من أيّار على متن باخرة البريد برابو الهولندية، وبرفقتها اثنان من الخدم: بريتا الألمانية، والحبشي تابور. كان قد انقضى نصف يوم على إغراق مدافع قلعة الفاو باخرة حربية إنكليزية، امتنعت عن تسليم أسلحتها عند دخولها شط العرب، وحين جاء دور آينور للحصول على التأشيرة، ادّعى ملازم أول وجود خطأ في لون العينين، فالمكتوب في جواز سفرها هو Turquoise بينما التدقيق يثبت أنّه Blue وعند مراجعتها المسؤول الأعلى، وهو ضابط برتبة يوزباشي، سلمها رسالة مشمّعة من رئيس تشكيلات يلدز الاستخباراتية في البصرة، أمرها فيها بعدم انتظار موعد شركة Lynch Brothers، والسفر فوراً إلى بغداد، عبر نهر دجلة، على متن الباخرة الفرنسية مرسيليا التي ترفع العلم العثماني. استردّ اليوزباشي الرسالة وأحرقها، وأبلغ آينور أنَّ هناك عربة تنتظرها في الخارج.

***

عانت آينور هانز، طوال الأيّام الخمسة التي أمضتها في البيت الملحق بالقنصلية الألمانية في منطقة الميدان ببغداد أعراضاً تشبه أعراض

الحمل. ومع كلّ العناية التي أحاطتها بها زوجة القنصل، بقيت تشكو من الإرهاق، والانتفاخ، والغثيان، وآلام الظهر. كانت بغداد سعيدة بتعيين الوالي الجديد نامق باشا الصغير، لكنَّ القنصلية الألمانية بدت متوتّرة إثر مقتل مهندس من برلين طعناً بالسكّين في خمّارة البلبل الأبيض. كثّف الجيش دوريّاته في منطقة الميدان، ووزعت القنصلية منشورات تدعو الألمان إلى عدم التجوال ليلاً، وتجنّب أماكن اللهو الشعبية. وفي اليوم التالي لوصول آينور إلى بغداد، تعرّض مكتب شركة Lynch Brothers الإنكليزية القريب من القشلة لرشقات بالحجارة من ملثمين، أخذوا يهتفون بحياة السلطان عبد الحميد وإمبراطور ألمانيا. كانت القبّة الزرقاء لجامع الأحمدية هي كلّ ما تطلّ عليه شرفة جناحها. أسرها السحر البصري للحجر الكاشاني المندمج مع السماء، بينما شريط الكتابات القرآنية المحيط بعنق القبّة يبدو سائراً في قراءة لا تنتهي. بقيت آينور مأخوذة بالسرّ الذي يجعلها لا تسمع ساعة القشلة إلّا مرّة واحدة حين توقظها الدقات المعدنية الرجّاجة في السادسة صباحاً، لتجد القبّة الزاهية بتعاريشها المزخرفة والتي بقطر أحد عشر متراً، أكثر قرباً إلى شرفتها من أيّ وقت في النهار. تغلغلت الزرقة في حجرة رحمها، كما فعل دجلة بأحشاء روحها طوال ستة أيّام استغرقتها الرحلة النهرية من البصرة إلى بغداد. كانت آلامها تغيب مع الدقات الستّ، وتحلّ النشوة محلّ الوجع في ذلك الاقتراب المموّه، فتشعر بدوارٍ منعشٍ وخفّة محلّقة.

لم تُبلّغ آينور بأيّ تغييرات على توقيتات ووسائل السفر شمالاً، ووَجَب عليها، وفق الجدول الذي وُضع في لندن، الظهور في سوق القماش مرّتين، وسؤال أربعة تجّار، حدّدتهم لها تشكيلات يلدز الاستخباراتية، عن السيد كروغر هايس. كان النبض السريع للقلق يجعلها غائبة عمّا حولها. لم يعلق، من لندن، بذاكرتها أيّ شيء سوى

الانكسار، والريق المرّ. استسلمت بطاعة مذلّة لكلّ التوجيهات التي تلقتها، في محاولة منها لتبريد قلبها، لكنّ تفاعلات الخوف كانت تنهك جسدها وتجعله يندحر متوعّكاً، فكلما تأمّلت اللندنيين، باعتدادهم الأنيق، أصابها الذعر ممّا تورّطت فيه، وتتليّف الغربة في أعماقها، فهي غير مقتنعة بما آل إليه الأمر سياسيّاً، ولا تجد في نفسها الرغبة في تسخير حياتها لمحاربة ازدهار التجارة الإنكليزية. شعورها بالشفقة على السلطان عبد الحميد لا يحفزها على التضحية، ورغم أنّها التقته ثلاث مرات لم تجرؤ على إفهامه أنَّ تعلقها بقصر يلدز شاله، وبخيّالة أرطغرل، وبالبانيو الإمبراطوري ما هو إلّا سلوك جمالي يشبه تعطير الإبط، وأنّها طوال حياتها لم تكتشف فقرها، ولم تنتبه للعوز، لأنّها كانت هائمة بطمأنينة الحب.

***

قبل سفرها إلى الموصل بيومٍ واحدٍ التقت آينور هانز، المشرف على قسم الخياطة كروغر هايس في مدرسة الصنايع، وهو من فورتمبيرغ، في السادسة والأربعين، قصير، وبدين. بشعر رمادي كث وجبين عريض. حليق الذق والشارب وعلى أرنبة أنفه أثر جرح. يأخذ جرعة ويسكي كلّ ربع ساعة، وإذا تُرك ساعة وحده ينام. صدمة آينور بشوارع بغداد الموحلة، وأبنيتها المتشابهة، والمشقة البادية على وجوه الناس، جعلتها مرتبكة الروح، ومتهيّبة من الكآبة التي ستواجهها في الموصل، لكنّ كروغر هايس الذي أمضى ثلاث سنوات في شمال بلاد ما بين النهرين لكتابة تقرير عن أسهل الطرق لكسب ودّ الأكراد، نصحها بالتطلع إلى المزايا، والتمتع بطاعة الأهالي الكاملة التي يمكن نيلها بقرشٍ واحدٍ.

كانت مدرسة الصنايع جيّدة البناء، تقع في الجهة الشمالية من بغداد، ولا تبعد كثيراً عن نهر دجلة. شبيهة بمستشفيات برلين، مبنية بالآجر، ولها حَوش مربع في وسطه نخلة معمّرة، بينما حديقته الصغيرة مستوية الثيل، ومسقيّة جيداً، ومسوَّرة بشجيرات الآس المشذبة. قاعات ورش النجارة، والحدادة، والخياطة سميكة الجدران، ما جعل الهدوء يغطي المبنى، أمّا طلاب المدرسة الذين لا تزيد أعمارهم عن الخامسة عشرة، فحسنو المظهر، يرتدون، عند العمل، صداري جلدية، وأحذية خشبية. كان مكتب كروغر هايس على دكة مرتفعة، يصعد إليه بثلاث درجات، وبذلك يمكنه الإشراف على صف ماكينات الخياطة التي بمحاذاة النوافذ، وكذلك على مقاعد الدراسة التي على يمينه. خلف كروغر خانات خشبية تختلط فيها الخيوط، مع قطع غيار الماكينات، والزيوت والأوراق، ما جعل القذارة بادية على فوضاه التعليمية. كانت آينور على علم بأهمّية الرجل، لا لتشكيلات يلدز الاستخباراتية فحسب، بل لوالي بغداد الجديد أيضاً. أخبرها أنَّ ماكينات نسج الجوارب، والقوالب الحرارية، ومعها غزول القطن، والصوف، والحرير، ستصل إلى ميناء البصرة في ظرف أربعة أشهر. أدركت آينور أنّ أنفاسه قصيرة، ولا يجيد التودّد، فقد انقبضت ملامحه وهو يحدّثها عن سطوة الإنكليز، وهيمنتهم على أسواق الموصل، وعن عذاباته الشخصية حين كان يخدم في الخارجية الألمانية، إلّا أنّه حسم الأمر، وترك كل شيء، وجاء إلى بغداد. استفزته آينور حين قالت إنّ تذمّر الرجال يدلُّ على الكسل، والخمول، وإنّها لا تريد أنْ تُحبط قبل رؤية أبواب الموصل.

أظهر كروغر جدّية وهو يقول:

– لست كسولاً، أو متذمّراً، ولكنَّ الناس هنا لا يتقبّلون التغيير. إنّهم يسألونني، حين أدلّهم على شيء جديد، إن كان هذا لا يتعارض

مع كلام الله. تخيّلي يا آنسة هانز، إنّهم يظنون أنّني أعرف كلام الله الذي يؤمنون به.

قالت آينور باهتمام، وقد تواطأ ضوء النوافذ، ونفحات كوى التهوية مع هيبة أنوثتها:

– أنت ألماني سيد هايس، والألماني يعرف كلّ شيء.

رفع صوته متغلباً على ضجيج ماكينات الخياطة القريبة:

– معك حق، لهذا كنت أقول لهم ما أنا واثق منه تماماً، وهو أنَّ الخياطة لا تتعارض أبداً مع كلام الله.

شعر كروغر بوخزات وجدانية سببها جمال آينور الأيقوني، ورائحتها الباتشولية، ومظهرها الأوروبي الأنيق وهي في ثوب أصفر مطرّز الصدر بالدانتيلا البيضاء. أخذ يفتّش الخانات التي في الخلف، فرأت آينور بقعة داكنة في أعلى الساق اليمنى من بنطلونه الأزرق. أبعد كروكر محبرة، ووسادة دبابيس، ومحقنة زيت على شكل طائر الكروان، قبل أن يفرش على مكتبه خريطة للموصل مطبوعة حديثاً، محدّداً بقلمٍ فحمي الأراضي التي باستطاعتها إنشاء المصنع والمتجر عليها. حافظ على جدّيته متجاهلاً قول آينور إنّ التصاق الموصل بنهر دجلة يجعلها تشبه زهرة عبّاد شمس نائمة، ونبّهها إلى أنَّ مرتّب والي الموصل هو ألف وخمسمئة قرش، وأنَّ تسعيرة الرشوة هي نصف مرتّب مرّة واحدة، ونصف قيمة الضرائب كلّ ستة أشهر، وبهذه الطريقة يضمن الوالي حقوقه، لأنَّ من النادر جداً البقاء في هذا المنصب أكثر من سنتين، وأنَّ عليها تقديم الرشوة، والتفاوض على استقرار الضرائب، وترتيبات الدفع قبل شراء الأرض. وأيضاً الاتفاق مع الوالي على ما ستقدّمه للجيش العثماني السادس من هبات مصنعها. تعمّدت آينور هانز إظهار تعاليها على ما يعدّه كروغر هايس إجراءات سلامة لتوخي المخاطر المحيطة، فالمغامرة لن تتحقق إلّا بازدراء

المصاعب، والموهبة لا تظهر إلّا من الاستخفاف بالقواعد. كان القنصل الألماني في بغداد قد طلب، في كانون الثاني، من كروغر هايس، بحضور ممثل تشكيلات يلدز الاستخباراتية، تقديم الدعم والنصيحة إلى آينور هانز باعتبارها صديقة مقرّبة من الإمبراطورة أوغستا فيكتوريا، ترغب بترك العمل في وكالة السفر لتدير أعمال أمّها العثمانية، وأنّ الخارجية الألمانية، ومعها تشكيلات يلدز، تريان في ثراء آينور فرصة لتوسيع المصالح الألمانية التجارية في الموصل. وطوال ثلاثة أشهر، كانت القنصلية الألمانية تسلّم كروغر تلغرافات الشركات الصناعية في برلين، وإشعارات شركة النقل البحري، باعتباره المدير التنفيذي. لم تكن معلومات كروغر وخبرته سوى براهين نزاهة، فقد اطلعت آينور قبل مغادرتها إسطنبول بشهر على أكثر التقارير الاستخباراتية دقة بشأن الحياة الاجتماعية في الموصل، لذلك أوجعها انكسار قلب كروغر وهو يفرش خريطة الموصل أمامها بلا أيّ شغف.

أخذ جرعة ويسكي من قارورة جيب، وقال بامتعاض:

– الروس حصلوا من الإنكليز على تجارة الجَوارِب، وأخذوا أيضاً السجّاد، الأدوات الزراعيّة، والصابون، ولكنّهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك، وعزلوا السليمانية وكركوك تجارياً، لقاء تأجيل تحريك جيوشهم نحو الموصل. ولأنَّ فرنسا تريد أيضاً احتلال المدينة، فهي تنافس الروس على الكلدان، والسريان، والآشوريين، والأرمن. هنا كلّ شيء مقسّم. عليكِ الانتباه. الإنكليز يملكون القيادة، لأنَّ أموالهم في كلِّ مكان، وهم الذين يدفعون مرتبات الجيش العثماني السادس. يحرّكون مفاصل التجارة. يستوردون من الموصل كلّ إنتاجها من الصوف، والجلود، وعرق السوس، والحبوب. ويديرون بمهارة تجارة الخيول. إنّهم يفهمون عقلية البدو والعشائر أفضل منّا. يدركون قيمة

إبقاء كلّ شيء على ما هو عليه. الأميركان فشلوا في إدخال الصناعة إلى الموصل، ولم يتمكّنوا من إغراء التجّار المحليّين بآخر اختراعات صناعة الغزل والنسيج، حتى إنّهم فشلوا في مشروع مكابس عرق السوس. الأموال كثيرة هنا، وكذلك الموارد، لكن لا أحد يعرف ما يجب فعله بها. هذا هو أسلوب الإنكليز يا آنسة.. يضخّون الأموال بكثرة، وهم يعرفون أنّها ستتبخّر.

تساءلت آينور بملامح متعاطفة، محافظة على ثقة كروغر ببراءتها:

– وماذا يفعل البدو والعشائر بأموالهم؟

أرجع كروغر هايس ظهره إلى الخلف فامتلأ الكرسيّ به. شبك أصابعه على كرشه قائلاً:

– يشترون بها الأعوان والمناصرين من أجل كسب النزاعات، فمنذ أن جاؤوا من الصحراء، قبل قرون، وهم يتقاتلون بدافع السرقة. الموصل مدينة عمرها أكثر من ألفي عام، ولكنّها بلا مدنيّة، وتشبه حظيرة خنازير. هي مكان للمبيت، وسوق بائسة لا غير. الإنكليز استغلّوا فساد الولاة، وتوغلوا بأموالهم عميقاً. النظام المدني لن يمكّن العثمانيين من السيطرة على الموارد، ولهذا هم يستخدمون الدين القديم، وتقوية البعض من شيوخ العشائر، وتأجيج النزاعات. ولأنَّ الدولة العثمانية بحاجة إلى ضخّ الأموال في أوصال مستعمراتها، فإنّها تتساهل مع الوجود الإنكليزي الذي بدوره يمدّ العشائر الكبيرة بالمال كي تبقى في نزاع مع العشائر الصغيرة الطامحة، وهكذا تموت المدينة وتحيا الصحراء.

قالت آينور بابتسامة متودّدة، وهي مشغولة البال بالحيلة التي تجعل كروغر هايس يحبّ هذه المجازفة، ويرضخ لإلهامها الأنثوي:

– إن كانت الموصل بائسة المظهر مثل بغداد، فعلينا جعلها جميلة بعض الشيء، وميّالة للحياة، وعلينا إلقاء البدو والعشائر خارج الأسوار.

ضحك كروغر هايس باستهزاء ثمّ اعتدل، واضعاً ساعديه على مكتبه. التقط علبة كشتبانات، وراح يحرّكها قائلاً:

– منذ خراب نينوى وبابل، والناس هنا يظنّون أنّ الحضارة كفر ومعصية لله.. آنسة هانز.. هذه ليست رحلة سياحيّة نظّمتها وكالة توماس كوك.

ردّت آينور بثقة، وقد استفزتها سخريته:

– لهذا أنا أفكّر بإعطاء والي الموصل مرتّباً كاملاً إذا تعاون بسلاسة.. اسمع يا سيّد هايس، حتى نتّفق عليك أن تراني كونشرتو كمان لمندلسون، أو ترى نفسك هانسل، وأنا غريتل كما في حكاية الأخوين غريم. لا تشغل بالك بالإنكليز، والعثمانيين، والعشائر المتخلفة.. غيّر العالم وأنت مخمور.

زاد الاحمرار في وجه كروغر، فقالت آينور وهي تبتسم:

– نصف السكّان هنا حفاة. علينا أولاً أن نلبسهم الأحذية، وبعدها نبيعهم الجَوارِب.

سألها بانكسار، وهو ينظر إلى عمق القاعة، مدارياً ندم الاندفاع:

– هل تفكّرين بتجارة الأحذية؟

ردّت آينور وقد انتبهت لانقباضات أسفل عينه اليمنى:

– كان رودولف يعتقد أن جمجمته تحتوي على إبرة، ومقصّ، ومخّ خيطي الشكل.

حاول كروغر إظهار الأسف:

– معنى هذا أنّ جمجمتي تحتوي على شعير، وحنطة، ومخ على شكل تفاحة عفنة.

قالت آينور برقبة ملتوية:

– أنا أعرف ماذا يوجد في جماجم الروس، والإنكليز، فلا تقلق.

طلبت منه أن يرافقها إلى الخارج لأنّها إذا بقيت في القاعة مدّة أطول فستعلق روائح الماكنات بثوبها. خُيّل إليها أنّ رأس كروغر كبر وانتفخ حين جمع أطرافه لينهض وكأنّه فطيرة أخرجت من الفرن. أمر تلاميذه، وهو يمسك بيدها لتنزل الدرجات الثلاث، بالتوقف عن الخياطة. ابتسمت آينور لوجوه كالحة أخذت تشيّعها بعيون شرهة. أنعشها الهواء في الخارج، على العكس من كروغر الذي بدا منزعجاً من الشمس. قطفت آينور ورقة آس وهرستها بين أصابعها ثمّ قربتها إلى أنفها قائلة:

– سيد هايس.. قال لي القنصل إنّك مستعدّ لخوض مغامرة كهذه، لهذا أنا حدّثتك عن رودولف، وهانسل وغريتل. أرجو ألّا تنزعج من كلماتي، وتتقبّل قلقي.

وضع يديه خلف ظهره، وقال بعينين مغمضتين:

– آنسة هانز.. لقد تلقيت من القنصلية تنبيهاً بألّا أكون متشائماً معك، والذي أخشاه هو ألّا أكون باللطف الذي تتوقّعه صديقة الإمبراطورة.

انتبهت آينور إلى خروج تلاميذ المدرسة من قاعاتهم، وإلى اقتراب جلبتهم القبقابية منها. تعادل شعورها العميق بالغربة مع تماسكها الظاهري، وهي تسأل كروغر بصوتٍ ناشفٍ:

– هل صحيح أنّ سحراً خفيّاً يسكن أعماق بغداد؟

ردّ بوجه منقبض، وهو يشير بيديه للتلاميذ بالابتعاد:

– الموت هو الشيء الوحيد الساحر هنا.. لا توجد جنّيات مرحة، ولا سجاجيد طائرة، ولا فوانيس تحقق الأمنيات.. كلّ هذه الأشياء غادرت بغداد وسافرت إلى أوروبا.

تلمّست جبينها وهي تقول:

– لقد خيّل إليَّ أنَّ قبّة جامع الأحمدية تتحرّك صباحاً.

قال كروغر بضجر:

– الغبار هو الشيء الوحيد الذي يتحرّك في هذه البلاد.. إنّهم يخذلون أنفسهم، ويكرهون الحياة.. الصيف لم يبدأ بعد، فكوني حذرة يا آنسة من سراب الحرارة.

استردّت اتزانها، وعادت لتقول بنبرة حازمة:

– ودّع الوالي، والحق بي إلى الموصل لنعمل على بناء أول مصنع ألماني في بلاد ما بين النهرين، وقبل أن تغادر جدْ لنا وكيلاً نعتمده في بغداد لبيع جَوارِب رودولف.

قال كروغر ضاحكاً:

– إنه اسم يصلح ماركة لمدفع.

واجهته بنظرة حادّة:

– بل هي ماركة تصلح للمستقبل سيّد هايس.

الموصل

صيف وخريف 1899

المهترخانة

لَمْ تعثر آينور هانز، طوال الشهرين الأولين، على أيّ شيء في الموصل يستحقُّ الحبَّ. البيت الكبير الذي نزلت فيه يحاذي نهر دجلة، ويقع جنوب السور بين القشلة العسكريّة والجامع الأحمر، كان قد اقتُطع بالأصل من نزل لمبيت الزائرين من كبار الضبّاط، واستُخدم لسنوات عدّة مكاناً تكريميّاً للأجانب الذين يعاملون كمبعوثين رسميين، ويحملون إذن مرور، أو إقامة، وهؤلاء أغلبهم من أعضاء الجمعيّة الجغرافيّة الملكيّة الإنكليزيّة، وعلماء الآثار، والمبشرين الفرنسيين المتنكرين بالشغف الطبّي. جدرانه الحجرية، مكسوّة بالجصّ، وأبوابه ثقيلة، تحتكّ بالبلاطات الرخاميّة. تنبعث رائحة البارود من أركانه، كلما تشبّع بالرطوبة، وأثاثه، وإن كان فخماً، ويجمع بين الطرازين العثماني والعربي، لا يشبه روح آينور، ويجعل سقف حلقها يابساً، ورملياً.

كانت تبدو على الوجوه السمر انكماشة مستنفرة لإطلاق النار. المباني كئيبة وبالية، والأشجار قليلة، والأتربة متراكمة على جوانب الطرق، وملابس الرجال والنساء، من غير الموظفين، تبعث على الخوف. الشيء الوحيد الذي كان يهوّن عليها الساعات الراكدة هو

الدفق الرائق لنهر دجلة، ولونه الفيروزي، وخلوّه من الرغوة التي تعفّن الأنهر في أوروبا. كان ظهرها يعاني التحسّس، يتدهّن باعتصارات الحرارة، وتغزوه بين الحين والآخر البثور الحمر. تطلّب الأمر الكثير من التروّي كي تجد آينور طريقها.

كانت تنتظر حلول الليل لتتستّر على حزنها، وتهوّن المشقّة على حواسّها. تتأمّل، وهي مغطاة بظلام غرفتها، ما جرى لها، وكلها خوفٌ من الغد وحظه. توقظها عذابات النوم لتجد نفسها غارقة بعرقها. تباغتها رجفة الحمّى حين تنجو بوعيها من أحلامها الكابوسية، مصدّقةً بهلع أنّها فشلت في إنجاز مهمّتها، أو أنّها أخطأت التقدير وتسبّبت بكارثة، أو افتضح أمرها، لكنّ هذا سرعان ما يختفي من رأسها فجراً، وتغدو امرأة أخرى وهي تخرج من بيت القشلة برفقة تابور الحبشي.

***

موظفو البنك الإمبراطوري العثماني الذي يقع في ميدان السرايا الحكوميّة هم الذين أربكوا السوق بتوقعاتهم، فهذه الشابّة الألمانية الشقراء التي دوّخت الموصل بظهورها اليومي في الشوارع، مكشوفة الصدر بفساتينها الأوروبية، وتحمل مظلة من القشّ مزيَّنة بفواكه صيفية، قد أودعت في البنك، عند وصولها، مليون قرش عثماني، وتملك فوق هذا من البسالة ما يجعلها شديدة الفضول، وذات طموح.

أينما تجولت آينور تُحرّك خلفها موجات من الرجال المذهولين، وزمر الجندرمة المأخوذين. لم يجرؤ كروغر هايس على تنبيهها لأنّه يخشى فقدان رائحتها. يلحقون بها من أجل مواصلة النظر إلى جمالها الذي أفلتته الجنّة، بينما وجوههم متهدّلة بالخدر، وعيونهم محمرّة بالأخيلة. لم تواجه آينور أيّ تعقيدات بشأن تحصيل إقامة قانونية

في الموصل، كما نالت بأوراقها المصدّقة من القنصلية الألمانية في بغداد إجازة مزاولة العمل التجاري في الولاية دون طلب منها، وأكثر ما لفت انتباهها السرعة الكبيرة التي تحرّك بها الإنكليز تجاهها، فقد كانوا يقطعون طريقها في الأسواق، ويتحدّثون معها بودٍّ شديد، ويقدّمون خدماتهم ونصائحهم بسخاء. ومع تكرار الوجوه نفسها أيقنت آينور أنّها تخضع لمراقبة دقيقة، وأنّ عليها ألّا تكون متحفظة أمام الدعوات التي تتلقاها لشرب الشاي.

كلّ الذين قابلوها في خان خواجة أحمد، وفي سوق السرايا، كانوا من الذين تعرف تشكيلات يلدز الاستخباراتية تحرّكاتهم. كانت آينور تظهر بحماية تابور الحبشي، خادمها الأسود الضخم، وهو هديّة من السلطان عبد الحميد الثاني، يتكلم التركيّة، والفارسيّة، والعربيّة، ويرتدي صدرية بلا كمّين، سوداء منقوشة بالأحمر، مفتوحة من الأمام على صدره العاري، وعضلات بطنه الدهنية، وسروالاً عثمانياً، ويحمل في حزامه الجلدي العريض المطعّم بالفضة خنجراً طويلاً معقوفاً. ورغم أنَّ هذا المظهر للخدم والعبيد اختفى منذ قرن، فإنّه منح آينور سطوة، وجعلها تنال الانبهار، فالعز، والهيبة، والجاه، بنظر الناس، من مكاسب أولياء الله.

عيّنت آينور هانز يهودياً في الثالثة والخمسين من عمره، اسمه شاؤول جلعادي، لمسك الدفاتر، ونشرت إعلاناً في جريدة «موصل» عن حاجتها لعاملات. وعلى عكس ما تلقته من نصائح، اشترت في الغرب من المدينة، قرب باب سنجار، قطعة أرض مساحتها ألف وثمانمئة متر مربع، وحصلت سريعاً على موافقات بناء مصنع جوارب رودولف، قبل أن تلتقي الوالي حازم بك.

كانت خانات الموصل، وأسواقها، ومقاهيها، وخمّاراتها تحتلّ نصف حجم المدينة التي لا يزيد عدد سكّانها على ستين ألفاً. خرائب

السور، وتراكم النفايات، وانبعاث الروائح من المدبغة والمسلخ اللذين في باب الطوب، لم تخف عن آينور الظلال الذاوية لجمال الموصل العتيق، فمن بين الركام القبيح، كان الحسُّ يمدُّ أصابعه في لمسات عمرانية بارعة السحر. ومن بين الروائح، والذوق الفقير، كانت البضائع الفاتنة في السوق تشكّك في المظهر البائس للذين يسيرون في الطرقات. كان الأوروبيون يديرون أعمالهم بلا أيّ مبالغة في الترف. بيوتهم على الجانب الشرقي من النهر بالقرب من جامع النبي يونس حيث توجد ثكنة عسكرية كبيرة، وسوق للخيول. الجولات التي قامت بها آينور في الأسواق، والتجّار الذين توقفت عندهم، وسلوكها الاستفساري، كل ذلك أنجزته وفق تخطيط تشكيلات يلدز الاستخباراتية، التي علّمتها في إسطنبول، طوال فترة أربعة أشهر، كيف تبدأ، وماذا عليها أن تفعل كي تضمن الانطباعات. إلّا أنَّ آينور كانت منتبهة أكثر لبدائع تقسيمات النهار. انجذبت لولادة الشمس من أفق الضفة الأخرى للنهر حين يشتعل الضوء الباكر إيذاناً ببدء الحياة، فتأخذ تابور الحبشي، وتقف قبالة باب الجسر الذي ينفتح عند صلاة الفجر لمئات القرويّين من المسيحيين، واليزيديين، والشبك، والبدو الذين يعبرون القناطر الحجرية إلى منتصف النهر ثمّ يكملون تقدّمهم إلى الموصل على ممشى خشبي مقام على زوارق مقيَّدة بعضها ببعض. نساء، ورجال، وحيوانات، وروائح... يندفعون نحو المدينة ذات السور المغروس في النهر، والمعلّم بحفائر الحروب، والطحالب الخضراء. كانت آينور تقف على رصيف جامع الأغوات، الصغير بمئذنته المحدّبة، والمبنيّ عام 1702، لا يفصلها عن باب الجسر سوى أمتار قليلة، تنظر بدهشة إلى تلك الوجوه السعيدة بالشمس الجديدة، والأجسام التي تبرز منها أوتار عصبها، وقصبات عظامها، متحمّلة أثقال منتجاتها الريفية، متبارية للوصول إلى السوق.

هناك رأت آينور الكثير من النساء بأزيائهنّ التقليدية المصنوعة من أقمشة رخيصة تُطبع محلياً بنقشات صبغية، وقدّرت بقلبها العناء المرير للبيع والشراء. كان منظر تسابق الناس لدفع رسوم الدخول إلى المدينة، وملامح الوجوه لحظة الخلاص من الجندرمة، توجع قلب روحها، لكنّها تشحذ فيها الأمل.

***

كان موقع السرايا يشيع الوضاعة، ويهتك المهابة، فسوق السمك تحاذيه شمالاً وتفصله عن «إيج قلعة» الحصينة التي فيها بيت الوالي، وسكن القادة من الأصول العثمانية، وعلى حدوده الغربية سوق التوابيت، وإلى الشرق منه بمسافة أربعمئة متر يقع باب الجسر، وقبالة ميدانه السوق الكبيرة التي تحمل اسمه، بينما باب الطوب بمسلخه ومدبغته إلى الجنوب الغربي منه بمسافة ستمئة متر. وعلى عكس ما حولها، كانت سرايا الوالي تبدو بكامل الوجاهة، فهي مكعّبة الشكل، بسياج حديديّ مزخرف، وبأربعة أبراج للحراسة. كانت من طبقتين، وتحتوي على عشرين غرفة متساوية القياسات بما في ذلك أوطة الوالي، وكلّ الموظفين يرتدون الزيّ الأوروبي مع الطربوش الأحمر، ويضعون المناديل في جيوب جاكيتاتهم، ويجيدون التركية، والإنكليزية، وغالبيتهم من عائلات الموصل الثريّة. صُمّم المبنى بذوق شرقي كتوم. مغلّف بالحجر الترابي اللون، وواجهته كتلة منسّقة من الزخارف النباتية البارزة. بست نوافذ مستورة بضلفات خشبية مشبّكة. مدخله عريض بخمس درجات قليلة الارتفاع، وفيه فضاء ببوائك حجرية مُسنَدة بستة أعمدة، الواحد منها بقطر أربع أذرع، بينما الباب الخشبي الذي بطول قامتين، محفور بعبارة «دَوْلَتِ عَلِيّهْ عُثْمَانِيّه».

كان الوالي حازم بك شخصاً نحيلاً، وقلقاً. أدكن البشرة وعظام وجهه بارزة. ينوء تحت زيّه الرسمي ونياشينه، ويبدو عليه أنّه لا يحتمل ثقل سيفه الذهبي، ولا يعرف كيف يتخلّص من أعباء الجلوس. حدست آينور بأنّه احتار كثيراً في طريقة استقباله لها، وأنّه سمع نصيحة غبيّة. كانت الأوطة متخمة بالتذكارات، وبسجاجيد الحائط الإسطنبولية، فأيقنت آينور أنَّ شيئاً من التعظيم للسلطان عبد الحميد الثاني دخل المكتب قبل ساعات من زيارتها.

قالت بالتركيّة، وبنفسٍ طويل:

– صباح الغد سأرسل إليكم مبلغ ألف وخمسمئة قرش هديّة متواضعة منّي تفيدكم في مهام الإنفاق على شؤون الولاية الخيريّة، أرجو تفضّلكم بقبولها.

تمسّك الوالي بذراعي كرسيّه قائلاً بصوت مرتعش:

– لا حاجة لهذا آينور هانم، فالولاية بحمد الله في غنى عن التبرّعات.

قالت آينور وهي تموّج نقرات أصابعها على سطح مكتب الوالي:

– لتطمئنّوا حضرتكم. أنا أثمّن جهودكم الكريمة في استضافتي ببيت القشلة، وأشكركم على كلّ العناية، والتسهيلات التي شملتموني بها.

سارع الوالي إلى القول:

– إنّها أوامر منير باشا، وقد نفّذناها بكلّ انضباط، واليوم يا هانم وصَلَنا من الباب العالي أمرٌ بإعفاء نشاطاتكم التجارية من الضرائب. لقد عرفنا أنَّ والدتكم المصون هي حرم معالي رئيس تشريفات مولانا السلطان المعظّم، ونحن نطمع برضى الباشا عنّا.

رفعت آينور حاجبيها قائلة:

– سأدفع ضرائبي، ولن أقبل بمعاملة استثنائية.

نشف وجه الوالي جرّاء الصدمة، فعادت آينور لتقول:

– أرجو منكم السماح لرئيس البلدية بمقابلتي، فهناك توجيهات من معالي رئيس تشريفات مولانا السلطان المعظّم تخصُّ جامع الأغوات، عليّ إبلاغه بها.

بدا الوالي كأنّه يبذل جهداً ابتعادياً بساقيه:

– تمام.. آينور هانم، نحن لدينا الكثير من الخطط لتطوير الموصل المحروسة، سيطلعكم عليها رئيس البلدية، وإذا ما تمَّ تجديد الولاية لنا، فسوف نتمكّن من إنجاز الكثير.

ابتسمت آينور قائلة:

– منير باشا مطّلع على عملكم في الموصل المحروسة، وتهمّه المصلحة العامّة.

سمعت آينور صوتاً قويّاً أتى من الخارج أطلق أمراً عسكرياً بثلاثة إيعازات لم تتبيّن معانيها، ثمّ أخذت الطبول تُقرع بإيقاع رتيب قبل أن تندمج الأنغام الوتريّة والنفخيّة مع الصنوج في لحنٍ سعيد. ابتسم الوالي قائلاً بفخر:

– لقد أمرنا المهترخانة بعزف الأنغام تكريماً لزيارتكم السرايا. عيد جلوس مولانا السلطان اقترب، لذا فنحن نشعر بالبهجة يا هانم.

كانت الفرقة الموسيقيّة متجمِّعة على الجانب الأيمن من الباب الخارجي. العازفون يرتدون زيّاً عسكرياً بأردان إضافية حمر منقوشة بخيوط ذهبيّة، بينما وقف جندي وسيم الملامح، أبيض البشرة، على بعد خطوة، يحمل راية المهترخانة الحمراء. ابتسمت آينور هانز للعازفين، وتوقعت ألّا يستغرق الأمر أكثر من لحنٍ واحدٍ، لذا بقيت منتظرة وخلفها تابور الحبشي الذي راح يراقب تجمّعات المارّة في الميدان. انتبهت آينور إلى نظرات الجندي حامل الراية،

وتذكّرت وجهه حين حيّاها بإيماءة من رأسه عند دخولها السرايا. لم تنكسر نظراته حتى حين بدا على ملامحها الاستهجان. نبّهها تابور إلى ضرورة ترك السرايا قبل أن تعوق جموع الناس مرور عربتها.

لم يتوقف عزف المهترخانة، كما لم تستسلم آينور لفضول إلقاء نظرة إلى الخلف.

رسالة السلطان

ازدادت آينور تعلقاً بالساعات الفجريّة التي تخرجُ فيها من البيت وبرفقتها تابور. كانت الطرقات الخالية تقوّي فيها الشجاعة، وتجعلها أكثر تجاوباً مع المرارة، فهذا القبح النائم، وتلك الأحجار المعتَّقة بالخذلان، تبدو كخصمٍ منهزم الروح، ونازف. علّمها رودولف أنّه لا يجوز، قبل شروق الشمس، التوجّع من خيبات الأمل، فالآلهة تكون وقتها منهمكة باختلاق الأحزان الكافية للصباح، ومزاجها لا يحبّ التذمّر. كان حين يجرّب تصميماً مستقبلياً يدفعها إلى ارتدائه، والسير به في شوارع توبنغن ساعة شروق الشمس، فهو التوقيت الذي تتندّى فيه معجزات الرحمة، لأنَّ الآلهة تكون قد تثاءبت بعد إقرار الحظوظ، وتشعر بالشفقة على البشر. كلّ مضاجعاتهما المهلكة حدثت فجراً، لأنَّ رودولف يعتقد أنّ النوم مدّة أربع ساعات، بساقين متلاصقتين يخمّر المهبل، ويجعل برعم البظر ينضح زبدة الأحلام التي تكون كرائحة البطاطا المسلوقة. كان الفجر يريها الحجم المخيف للنفايات، فيصيبها الشكّ في السلامة العقلية للدولة العثمانية ورعاياها، ولكنَّها سرعان ما تستكين لذلك الجمال الكهل في المآذن المائلة، ويدفعها أنين قلبها العميق إلى حفظ تعرّجات الأزقة، واستخراج الحكمة من عنفوان أنوثتها،

فالذي يقع في الغرام لا يتيه أبداً، بل يجد طرقه القصيرة والسريعة إلى الحقيقة. درّبت آينور نفسها على تأويل كوابيس الليل، وأخذت تدوّن الملاحظات، وترسم على قصاصات الورق الزخارف المعماريّة، والرموز النحتيّة التي تراها على واجهات البيوت، مستعملةً خيالها للتكهّن بخيبة الأحجار. حدَّدت مواقع الجوامع الموالية للسلطان عبد الحميد، وتلك التي تستجيب لتوجيهات الإنكليز. وجدت أنّ المسيحيّين أكثر غموضاً من اليهود، وأنّ الموصل رغم تعاملاتها المفتوحة مع إنكلترا، والهند، وروسيا، وبلاد فارس، وجزر آسيوية بعيدة، غير راغبة في تقبّل المظاهر التي تتطلبها أهمّيتها. انتبهت إلى أنَّ الأقمشة الإنكليزية هي الشيء العصري الوحيد، أمّا باقي البضائع بما فيها الطناجر والأحذية والملابس الرجالية الأوروبيّة، فمستعملة، بينما تدلُّ الأسواق التي تبيع المصوغات الذهبية، والمجوهرات، والسجّاد النفيس، على أنّها مفتوحة لزبائن لا وجود لهم.

***

كان تحديد الطاقم الإداري هو آخر نصيحة قدّمتها تشكيلات يلدز الاستخباراتيّة في لندن، وقد جاء اختيار آينور هانز لمصنع الجوارب بناءً على نشاطات متجر باريس الذي كان يبيع بضاعته بأسعار مرتفعة محافظاً على تزايد الطلب، وتنامي الهوس بالجودة الألمانية، وجرأتها الجمالية، على العكس من متجر لندن الذي كان يواجه الكثير من الأزمات، ففي عام 1887 أجبرت هيئة التجارة والأسواق الإنكليزية المورّدين على تعليم البضائع الألمانية بعبارة Made in Germany لكي ينتبه المستهلك الإنكليزي إلى أنّها بضاعة رديئة ورخيصة، وليست بجودة البضاعة الوطنية الفاخرة. كانت تلك العبارة محبطة للغاية، وتعني سمعة سيّئة، لذلك كان المتجر يبيع البضاعة الألمانية

على أنّها فرنسيّة، محافظاً بذلك على مكانته المرموقة في سوق Covent Garden. كان شاؤول جلعادي، على العكس من كروغر هايس، يتقبّل كلّ أفكار آينور، ويعدّل على ما يراه الأنفع من دون أن يجرح قلة خبرتها. يفهم تردّدها، واحمرار وجنتيها، ويعينها على تكوين فكرة جديدة. كان سريع التحرّك لجعل الأشياء ممكنة، ومفهومة. نحافته، وقصر قامته، يدعمان تسيّدها. لا يتكلم عن الصعوبات والعوائق، وحين يضع كلَّ الخيارات أمامها، يدلّها بتلميحات مؤدّبة إلى القرار الصائب. ورغم إدراكها أنَّ الطيبة غير مجدية في فرض الاحترام، والشفقة توقع في الاستغفال، لم ينفعها الحزم وصرامة الإدارة في تجنّب المواقف المخجلة التي قادها كروغر هايس إليها. كان يتصرّف كمحصّل ضرائب، وكعنصر جندرمة. يحرجها بسلوكه الانفعالي الذي يقطع ما تبدأه، ويجعلها متوتّرة لكثرة رفضها مقترحاته. يخرّب تملقاتها، ولا يعطي الهيبة التي تدعم صيتها. كانت تشعر بأنّها ملفوفة بالضباب، فاللهجات المحليّة صعبة، ولغتها العربية الفصيحة لا تُستعمل إلّا في المحاضرات الدينية، وكروغر لا يساعدها على الفهم، ولا يتقبّل تأنّيها، وكان يشتّتها بمزاجيته، ودائماً ما تكتشف أنَّ كلّ ما قاله لها مضلّل لدافعٍ غير مفهوم. لم يستجب لنصائحها بتحسين مظهره، وقد تساهلت في هذا لأنّه يبيت في خان الدرويش، وهو مكان تجمّع الأبقار قبل سوقها إلى المسلخ فجراً. كانا يتيهان إذا ما توغّلا في الأزقة العميقة، ولا يبدو عليه أنّه عاش في الموصل لسنتين من مدّة سنوات خدمته الثلاث في الشمال. مظهره وهو يسترجع انتباهه لنفسه، ولحقيقة ما يملك من مواهب، يجعل آينور مطعونة الروح بالأسف، فقيام إنسان ما بتدمير نفسه، يعني أنّه يملك قلباً هشاً، وصادقاً. كان كروغر يشجّع حزن آينور على الظهور. يجعلها تفقد العون المستلهم من ثقة السلطان عبد الحميد، وهوس رودولف بجمال الحياة، فتسقط

الشجاعة عن قلبها، وترى نفسها في المكان الأبشع، وتتملكها الرغبة في الفرار، بينما شاؤول جلعادي يمدّها بالشجاعة ويستأصل من قلبها أجنّة الريبة، فيدفعها إلى تخصيب المزيد من الأفكار بالافتراضات الرعناء. جهَّز شاؤول كلّ موادّ بناء مصنع الجوارب، واتفق مع عمّال مَهَرة قسّمهم إلى فريقين لمباشرة العمل نهاراً وليلاً، وعيَّن حرّاساً من أهالي المنطقة، محصّلاً من عشائرهم ضمانات قانونية بعدم الاعتداء والسرقة، ووضع عن بعد نقاط مراقبة مهمّتها متابعة عمل الحرّاس في موقع البناء، أمّا كروغر هايس فقد وجد في رسم خريطة المصنع، وتحديد مواصفات البناء المناسبة للماكينات، فرصة لتحسين علاقته بآينور، وكسب رضاها، فهذا ما يجيده أكثر من أيّ شيء آخر، لذلك كان يغيب إلى ما بعد الظهيرة، ويلحق بآينور إلى سوق السرايا، متتبّعاً رائحتها الباتشولية إلى أنْ يعثر عليها.

***

أخذت التلغرافات التي أجبرتها تشكيلات يلدز الاستخباراتية على تبادلها مع ناريمان تصيبها بالغثيان، فهي غير حقيقية مثل كلّ المشاعر الجيّاشة التي كانت أمّها تظهرها لها أمام الضيوف، أو عندما تكونان بين الناس. عاشت ناريمان مأخوذة بتسارع السنين، وغير مكترثة لاحتياجات الآخرين. وفيّة لشراهتها ولتشبّثها الأهوج بكلّ ما يخفّف عنها وحدتها، لذلك كانت عواطفها تجاه ابنتها تظهر عندما تكون هناك موسيقى، ورجال في كامل الوجاهة، وحين تعودان إلى البيت، وتختفي الأناقة، وتزول المتعة، لا تتكلمان معاً، وتبرد العواطف مثل وجه ناريمان المغسول بالماء. كان على آينور إرسال تلغرافات منتظمة فيها تذمّر، وحنين إلى صخب الحياة، وتحتوي أيضاً على طلب المشورة في الأمور المالية لأنَّ مكتب البريد والبنك

الإمبراطوري العثماني يدرّان برؤوس أموال إنكليزية وفرنسية. وأكثر ما كانت آينور تودُّ إيصاله إلى السلطان عبد الحميد هو رجاء ألّا تملأ ناريمان التلغراف لأنَّ بعض الكلمات توجعها، وتشعرها بأنّها لم تبتعد بالقدر الكافي للنسيان. لم يكنْ بإمكانها أبداً تجنّب الأثر القاتم الذي تخلّفه في نفسها عبارات أمّها، وكان عليها الانتظار إلى اليوم التالي كي تكون قادرة على الوثوق مجدّداً بإلهامها.

***

استقبلت آينور رئيس البلدية سعيد أفندي السعرتي قبل منتصف النهار بساعة. ظهرت بثوبٍ تركيّ بنيّ اللون فضفاض مطرّز من الرقبة إلى الخصر برسوم زهرية زرقاء، أمّا حافته السفلية فكانت مطرّزة بأهلّة متباعدة. أخذته إلى الشرفة المطلّة على النهر حيث توجد ثلاثة كراسيّ من الخيزران، وطاولة بطبقة زجاجية. كان في الثانية والخمسين. متوسّط القامة، ببنية قوية، لحيته الخفيفة البيضاء تبرز نقاوة بشرته الحنطية. أناقته وصوته جعلا آينور تتريَّث وتميل إلى الاستماع. حدَّثها بجملٍ وقورةٍ ومترابطة عمّا طلب منه الوالي حازم بك قوله، لكنّها أدركت أنَّ الرجل يستثقل مهمّته، ويودُّ خلع التزاماته، وإبداء رأيه الحقيقي. قالت آينور بالعربية بعدما أوجز الرجل خطة البلدية للعام المقبل:

– معمل الدباغة، والمسلخ في باب الطوب، ليسا في مكانهما السليم، ويجب نقلهما من المدينة إلى أطرافها، واستغلال المساحات الكبيرة في بناء أسواق، وخانات جديدة، وأنا على استعداد لدعمك سيّد السعرتي إن كنت توافقني الرأي.

قال رئيس البلدية محاولاً تبرئة نفسه:

– يا هانم أنا أعرف هذا جيّداً. لقد درستُ الهندسة في موسكو. هذه المنطقة كانت مطمع الولاة ولا تزال، وإذا نقلتُ المدبغة والمسلخ إلى خارج السور، فإنّ الوالي سوف يفرض رسوماً على دخول اللحوم والجلود إلى المدينة، وبذلك ترتفع الأسعار، وتحدث كارثة، كذلك سيضع الوالي يده على المنطقة الفارغة، ويستثمرها لنفسه، أو يبيعها للفرنسيين، أو الإنكليز، وبذلك نفقد أيّ أمل في تطوير الموصل.. الحياة هنا تعني أنّ الغد أسوأ من اليوم، لهذا كلما مرّت علينا ساعة، ازددنا خوفاً، وأنا أريد التمسّك بحلم أن نستطيع في يومٍ ما تعمير المدينة بنحو لائق.

ابتسمت آينور قائلة:

– يبدو أنّك تثق بي سيد السعرتي.

ردّ على الفور:

– نعم، والحقيقة أنا مجبر على هذا، ولكنّني غير متيقن من جدوى الثقة ما دمنا في النهاية لا نملك القدرة على مواجهة الأمراض التي تفتك بالناس، ولا نستطيع التقليل من نسبة الوفيات بين الأطفال. بل نحن غير جادّين في رفع النفايات، وجعل المياه صالحة للشرب.

سألته آينور:

– من الذي أجبرك على الوثوق بي؟

نظر في عينيها ثمّ قال وعلامات الحيرة بادية على وجهه:

– قد أمرني السلطان عبد الحميد الثاني المعظّم بأن أثق بك، وأنا لا أعرف إن كان الأمر حقيقة، أم مزحة، وها أنا أحاول من خلال حديثنا التأكد، فالذي نقل الرسالة جندي في المهترخانة.

أخرج من جيبه الداخلي ورقة مطويّة، وسلّمها إلى آينور التي فتحتها بعناية. كانت سمراء اللون وبحافة ذهبيّة، عليها طغراء

السلطان، ومكتوبة بالعربيّة: حضرة سعيد أفندي السعرتي.. تعاونوا مع الآنسة آينور هانز لخير ومصلحة الموصل المحروسة، وامنحوها ثقتكم العالية.

اعتدلت آينور. سألته بصوت مرتجف:

– ما اسم هذا الجندي؟

– زكريا الكواز. شاب في العشرين من عمره، وهو من عائلة غنيّة جداً تتاجر بالخيول العربية، ولها علاقات وثيقة مع الإنكليز. لقد تلقيت الرسالة قبل وصولك إلى الموصل بأسبوع، مع أمر بالسرّية التامّة، والانتظار إلى أن ترسلي في طلبي، وعندها أسلّمك الرسالة.

قالت آينور بالتركية للسعرتي الذي كانت تعابير وجهه قد انكمشت:

– الرسالة حقيقيّة وعليكَ الوثوق بي. ابدأ بنقل المدبغة والمسلخ من المدينة، وخطّط لأسواق جديدة، وسأعطيك خمسين ألف قرشٍ لإنفاقها على هذا العمل.

تساءل رئيس البلدية بتوتّر:

– لماذا لا يأمر السطان الوالي بنقل المدبغة والمسلخ.. لماذا يستعين بالمهترخانة، ويرسل الأموال معكِ.. أين ذهبت الدولة العليّة يا هانم؟

ردّت آينور بالعربيّة:

– السلطان لا يعلم بأمر المدبغة والمسلخ، ولكنّني أعلم أنّك لا تملك من عمّال النظافة سوى خمسة أشخاص بأجور يوميّة، وأعلم أنّك تريد إنارة المدينة بلمبات الغاز، ولكن لا أحد يمنحك المال من أجل هذا. أمّا حلمك الكبير جداً فهو إنشاء مستشفى الغرباء على تلّ كناس في باب سنجار، ولكنّ الوالي لا يريد إغضاب الفرنسيين والإنكليز الذين يوظفون الطبّ في أعمالهم التبشيرية، كما أنّهم

أقنعوا الطبيب الوحيد الذي تثق بعلمه، وهو جرجس غزالة، بالهجرة إلى بيروت. وما يجب أن تعرفه أيضاً يا سيد السعرتي، أنّ أمّي ليست زوجة رئيس تشريفات السلطان.

بدت الحيرة على ملامحه:

– آينور هانم أرجو أن تتقبّلي وضوحي.. حين تكلمتِ عن المدبغة والمسلخ خطر ببالي أنَّ السلطان يريد أرضهما لنفسه، أو لكِ، وها أنتِ تقولين إنَّه لا يعلم بهما، والأهم من هذا كله لماذا لم تصلْ رسالة السلطان عن طريقكِ.. ولماذا لا علمَ لكِ بها، بينما أنتِ على اطلاع كامل على كلّ تفاصيل عملي؟

ردّت بهدوء:

– الرسالة ليستْ لكَ وحدكَ، إنّها موجَّهة لي أيضاً.

ألقى رئيس البلدية بصره في النهر النازل إلى الجنوب، وقال باستسلام:

– عليكِ يا هانم تشريفنا بحضورك إلى مبنى البلدية في جادّة القشلة وتقديم تبرّعك المشروط رسميّاً، وعندما يوافق المجلس على نقل المدبغة والمسلخ، تودعين المال بحساب البلدية في البنك، بعدها سأعرض الأمر على الوالي لإتمام الإجراءات.

قالت آينور وهي مبتسمة:

– سأفعل، ولكنْ هناك خمسون ألف قرش أخرى سأسلمها إليكَ كي تستورد لمبات الغاز من ألمانيا، كما أنَّ الموصل بحاجة إلى الأشجار والزهور، كذلك يجب إعادة تعمير شارع الكورنيش من الجامع الأحمر إلى جامع الأغوات.

ضيّق عينيه مستهجناً العرض، وحين تبيّن له أنَّ آينور منتبهة، تساءل وهو يجمع طرفي جاكيته:

– ما مصلحتك في هـذا؟.. لا أريـد أنْ أكونَ فظاً، ولكنْ أرجو يا هانم أنْ تكوني واضحة معي. ما علاقتكِ أنـتِ بوضع المدينة، والكورنيش، ولمبات الغاز.. هل هناك من يرى أنّني لا أقوم بواجبي؟

انتظرت آينور حتى هدأت أنفاسه:

– يبدو أنّـك لم تنتبه إلى أنَّ السلطان عبد الحميد الثاني يثق بكَ.

ظهرت العروق في زاويتي وجه سعيد أفندي السعرتي فعادت آينور لتقول:

– أنـت لا تحبّ السلطان، وأنـا لا ألومكَ على هـذا، ولـو فعل ببرلين ما يفعله الآن في الموصل لكنت قتلته بلا تردّد. والحقيقة أنَّ السلطان يعرف أنّك لا تحبّه، ويعرف أنّك عضو في جمعية العِلم التي لم تعلنوا عن تأسيسها بعد، وهي غير ميّالة للعثمانيين، ولكنَّه وصفك بالرجل الشريف لأنّك نزيه، ولا تحبّ الإنكليز.

أخذت آينور نفساً عميقاً، وعادت لتقول، وهي تنظر إلى النهر الآتي من الشمال:

– ألمانيا تريد من الموصل أن تكون بقياسات أوروبية، وأنتم في جمعية العِلم، التي تضمّ مجموعة من المثقفين والمتعلمين، تريدون هذا. عليكم أن تفكّروا في إنقاذ حياة الناس أولاً. ألمانيا تريد مساعدتكم في بناء مستشفى الغرباء، واستبدال الجسر الخشبي بجسرٍ حديديٍ جميل، وستعمل على إدخال الصناعة إلى المدينة، وبناء جامعة، ودعمكم في الزراعة، وأرجو منكَ ألّا تسألني لماذا تفعل ألمانيا هذا، لأنَّه لا يعنيني. كلّ ما في الأمر أنَّ العثمانيين والألمان بحاجة إلى شغفي الجمالي. كان رودولف يقول إنَّ القرن العشرين هو قرن النساء الحمقاوات. في الحقيقة، أنا لا أعرف لماذا أخبرك بهذا. ربّما لأنني أريدُ كسبكَ كصديق، أو لتخفيف توتّرك من حظ مدينتك

العاثر. تستطيع القول إنّني مفتونة بمراقبة البداية. أحبّ أن تلد القطط في حضني، لذلك تعلمت طبّ التوليد. كان رودولف يقدّس قوّة الضعف الخارقة. هكذا كان يصف الحشائش، يراقبها بسعادة. هو الذي قال لي إنَّ البطّيخة لا تخرج من الأرض كبطّيخة، بل على شكل نبتة إبرية، هشّة، ورفيعة، ثمّ تتحوَّل إلى زهرة. أنا لا أعلم لماذا أنتم لستم مثلنا. لا أقصد الإهانة، ولكنْ نحن أيضا نؤمن بالله، فأين المشكلة؟ وكما قلت لك، السلطان يثق بكَ.. سيّد السعرتي، أرجو أن تساعدني كي أحبّ هذه المدينة المقرفة.

قال سعيد أفندي بحدّة:

– إن كان يجدر بي الفرح بثقة السلطان، يجب عليه أولاً أن يبيّن لي إن كان يوافق على أن أهبَ شارع الكورنيش وأرض المدبغة لك.

نظرت آينور إليه بأسى، حتى خُيّل لسعيد أفندي أنّها ستبكي:

– أنا أشفق على السلطان يا سيّد السعرتي.

– هذا هو شعوري أيضاً يا هانم.

– أنا أملك من المبرّرات الكثير.. لقد أمرك السلطان بالوثوق بي، وفعل هذا بطريقة تستحق أن توليها اهتمامك الكبير. كلّ ما في الأمر أنّني حتى أحبّ هذه المدينة يجب أن تكون نظيفة، وفيها أشجار وزهور. إن كنتُ شرّيرة، فلن أتمكّن من إخفاء هذا طويلاً، وعندها يمكنك فعل ما تريد.

تطلعت إليه بملامح فيها رجاء، وعادت لتقول:

– سيد السعرتي.. أنا تعلمت العربيّة في ألمانيا على يد أستاذ تركي، لهذا أبدو مضحكة حين أتكلّم مع الناس، وهذا يحرجني كثيراً. لقد علمت أنَّ لك ابنة اسمها جليلة.. أرجو أن تسمح لها بزيارتي كي تعلمني ما أجهله عن الحياة هنا.

ردّ بتمهّل:

– لا مانع لديَّ، ولكنْ هذه منطقة عسكرية. أنتِ تسكنين في لكنة يا هانم، من الأفضل أن تشرّفينا في بيتي متى شئتِ، وأعتقد أنَّ هذا سيفيدك أكثر.

بانَ الفرحُ على وجه آينور وهي تشكره بخجلٍ، ثمّ قالت مستدركة:

– إذا سألك الوالي عمّا جرى بيننا، فأخبره أنَّ منير باشا يريد منكَ تعمير جامع الأغوات على نفقته الخاصّة.

بدا على وجه رئيس البلدية أنّه هدم كلّ انطباعاته التي بناها قبل دقائق، وأنّه لا يملك الآن سوى أن يكون ودوداً:

– آينور هانم.. إن كنتِ مصرّة على لمبات الغاز، أرجو اتّباع الإجراءات نفسها، وأعدك أنّني سأفكر في بطيخة السيد رودولف.

)

عيد الجلوس

عمّت الزينة ميدان السرايا، وانتشرت أعلام الطغراء في الأسواق ترقباً لاحتفالات عيد جلوس السلطان عبد الحميد الثاني الذي سيصادف في الواحد والثلاثين من آب. وضع الجيش السادس مدفع هاوتزر قصير السبطانة في وسط الميدان للتبرّك به، وهو قطعة تذكاريّة من معركة مدينة بلفن البلغارية، أهداه السلطان للموصل في عيد جلوسه عام 1880 كما نشروا ثلاث فصائل من المجنّدين المحليّين لرفع الأتربة والنفايات من الشوارع. تلقت آينور هانز من الوالي دعوات لحضور ولائم احتفاليّة تقام كلّ يوم جمعة في بساتين يملكها حازم بك على الضفة الشرقية من النهر، إلّا أنّها انجذبت إلى معارض الأشغال اليدوية التي نُصبت لها السُرادقات في محيط مبنى البلدية، وأخذت، بدلاً من تلبية دعوات السرايا، تشارك في التجمّعات الشعبية في المدارس الدينية الإسلامية، التي كان شاؤول جلعادي يأخذها إليها. طُلب من الأهالي الاعتناء بمظهرهم يوم العيد، ووُزّعت الأحذية بين طلّاب مدرسة الفرقان الابتدائية الذين سيشكلون جوقة الإنشاد، وأجبرت المدارس الرشدية على الالتزام بزيّ موحّد، بينما أخذ عزف المهترخانة يمتدّ إلى ما قبل صلاة المغرب. التقت آينور بمعاون

القنصل الفرنسي فيكتور دولاباس في حفل لحفظ القرآن أقيم في جامع النبي جرجيس في سوق الشعّارين، أمّا نائب القنصل الإنكليزي السير هنري هانسفورد، فقد تعرّفت إليه في جلسة ذكر بالتكيّة القادرية في الجامع النوري. كان دولاباس أكثر وديّة، ومسلياً، على العكس من هانسفورد الذي طلب من آينور، وهما في التكيّة يستمعان إلى الموشّحات بصوت المنشد الشهير عبد القادر الموصلي، التوقيع على طلب تجديد الولاية لحازم بك، الذي سيُرفع للسلطان، ودعاها للحضور إلى مقهى كاندريان في خان خواجة أحمد. لم يكن نائب القنصل الإنكليزي هو الوحيد الذي فاتحها بالاشتراك في حملة تجديد الولاية، فقد سبقته مديرية المعارف المدفوعة من الفرنسيين، التي أرسلت إلى بيت الضيافة مندوبة عرضت عليها قائمة فيها شخصيات تعليمية مرموقة تعمل في المدارس الأهلية، والأجنبية، والمعاهد الدينية التابعة للآباء الدومينيكان تؤيّد تجديد الولاية، إلّا أنَّ آينور اعتذرت عن التوقيع لأنّها عدّته تدخّلاً في الشأن السياسي للسلطنة.

***

أخذت معالم وروح الموصل تتّضح لآينور مع ما كانت تتعلمه من شكيبة هانم زوجة سعيد أفندي السعرتي، وابنتها جليلة. لم تنبهر بشيء، ولكنّها أحبّت أنواع الكبّة، واكتشفت أنَّ أدوات المطبخ المستعملة في البيوت تعود إلى القرن الثامن عشر، ما جعلها تتفهّم ما كان موجوداً في مطبخ بيت الضيافة، وكانت قد ظنّته في البداية أسلوباً عسكرياً في قهر الرغبات. وتمكّنت، بعدما أرتها شكيبة هانم غرفة نومها، من معاينة الطفح المخيف لكآبة نساء الموصل العاطفية. كانت زيارات آينور لبيت رئيس البلدية في حيّ الخاتونية تجري في العاشرة صباحاً، وهي ذروة النشاط المنزلي، فيبدو الأمر كأنّها تؤدّي دوراً

مسرحياً، فقد كانت نساء الحيّ يتوافدن إلى بيت السعرتي لمشاهدة هذه الافرنجية الجميلة الشقراء التي تسير في الطرقات حاسرة الرأس، ومكشوفة الصدر. كانت شكيبة هانم في الخامسة والثلاثين، معتدلة الامتلاء. رومية الجمال. تملك انتباهاً لنفسها يشي بقلق مطمور. ورغم انحدارها من عائلة غنيّة، وتأثرها بالثقافة الإسطنبولية الجديدة، كانت متمسّكة تماماً بتقاليد المعيشة في حيّ الخاتونية الذي يقطنه التجّار الصغار، وقد نبَّهت آينور مبكراً إلى عدم التمادي في إبهار النساء، فهنّ لا يتقبّلن أن تفهم فتاة غير متزوّجة بأمور الحمل والولادة حتى لو كانت طبيبة، وإنّ أعراف الدراية تستوجب التجربة لا العلم، ونصحت آينور بأن تظهر تركيّتها، وتغيّب ألمانيتها، فأيّ شيء يتعلق بأوروبا هو كفر، ويجلب اللعنة، وزوال النعمة. كانت شكيبة هانم تمارس دوراً توجيهياً بين نساء الحيّ ارتكازاً على مكانة زوجها، وهو أداء لم يكن بالكبير قياساً بزوجات الوالي وكبار موظفي السرايا اللواتي يتحكّمن بالإرشاد الديني، وكلّ ما يخصّ أزياء النساء وسلوكهنّ العام في الحياة اليومية، ورغمّ أنّهنّ كلهنّ تركيّات، لا يطبّقن في الموصل ما يسري على النساء في اسطنبول. بقيت شكيبة هانم حذرة حتى بعد أن أرشدتها آينور إلى طرق جديدة للعناية بالشعر والبشرة، وعالجتها من الحكّة، وعلّمتها كيف تتجنّب التهابات الصيف المهبلية، وحين أخبرت زوجها أنّ آينور ليست مسلمة ولا مسيحية، وكثيراً ما تذكر ألمانيا أمام النساء، وأنّها تجدها بذيئة في تلميحاتها، وشهوانية في أسئلتها، نبّهها السعرتي إلى أنَّ السلطان عبد الحميد في حلف الآن مع الإمبراطور فيلهلم، وهذا يعني أنّ الله ورسوله راضيان عن ألمانيا، وحتى لا تخطئ زوجته في أيّ شيء حذّرها من إيصال انطباعاتها إلى زوجة الكتخدا جميلة خاتون، وطلب منها أن تتقبّل آينور كصديقة تتمتع بروح مرحة.

كانت جليلة في التاسعة عشرة من عمرها. متصلبة الحزن، ومحدودة الخطوات. ليست لها متعلقات مؤجّلة. تنهي كلّ ما يخصّها بسرعة، وكأنّها ذاهبة إلى الموت بعد خمس دقائق. تنقبض من أيّ تعبير فرح يظهر حولها. تتعرّض دائماً للجروح والحروق في يديها وقدميها، وتبدو بوظيفة واحدة مثل قفل باب. أمضت أربع سنوات وهي أرملة، فبعد ثلاثة أسابيع من عقد قرانها، غرق زوجها الضابط برتبة ملازم في النهر إثر سقوطه هو وحصانه من الجسر الخشبي. كانت جليلة لا تتحفّظ كأمّها في إجاباتها عن أسئلة آينور. تتكلم بترفّع كامل النقاوة، وكأنّها تتلقى صوتاً من السماء، بينما تفهّمت آينور عدم قدرتها على جمع الودّ إلى اليوم التالي، ونفورها المتعجّل، وبترها الحديث كلما وخزت متكسّرات الذكرى قلبها. اضطرّت شكيبة هانم إلى مسايرة تقاربهما، وقد أعجبها تأثر آينور بسلوك إبداء العرفان والتعظيم لسيدة البيت، وامتثالها لرغبتها في استبدال الزيّ الأوروبي بما ترتديه نساء الموصل، وهو الأمر الذي جعل آينور تُصدم بحقيقة أن ملابس النساء الداخلية لا تختلف في شيء عمّا يرتديه الرجال، وأنّ الميسورات فقط هنّ من يزلن شعر أجسادهنّ بطريقة مقبولة، وأنهنّ لا يستعملن المشدّات، لذلك تتهدّل أثداؤهنّ مثل جورب مغسول، ولا يعرفن فنّ التجميل بالمساحيق، ولم يسمعن بعجائن التبييض الطحلبية، وكلّ أعشابهنّ باطنية موصى عليها من الأنبياء، لذلك لا يُكبِرن من الجمال سوى ضيق المهبل، ولا يدركن من الحبّ سوى الزواج.

***

حافظت آينور طوال ثلاثة أيّام متتالية على الظهور بين جموع الناس حين كانت المهترخانة تعزف أنغامها ابتهاجاً بعيد جلوس السلطان.

كانت «إيج قلعة» التي تقع على دجلة، تطلق نيران مدافعها بالتزامن مع العزف الذي يستغرق، في قسمه الأول، الساعات التي تسبق صلاة الظهر. وكان الحرس يسمحون لآينور باجتياز البوابة، والدخول إلى باحة السرايا، ما يجعلها بمواجهة الجندي حامل الراية الذي لا ينكسر بصره إلّا حين يعظّم مقام السلطان عبد الحميد الثاني بدعاء يتلوه بصوت عذب. صوت حامل الراية كلما علا يدفع آينور إلى الاقتراب، وهي مغمضة العينين، ومنتشية تماماً بالروعة الروحيّة، وحين ينهي زكريا دعاءه يسدّد نظراته إليها، فيغيبان معاً في إشارات لا تعني سوى تبادل الانتباه، لكنّها تكون منعشة، ومحفّزة لابتسامات تشبه ولادة هلال خديج. لم تكن آينور وقتها تدرك أنّ إجلالها لرودولف كان اعتياداً أوجده الحياء، وانقياداً بديلاً من الأم والأب، فكلّ الأشياء تكون سميكة مثل جلد صلب، وهناك إبرة، تتأخّر كثيراً، لكنّها في النهاية تأتي لتخترقه، وتحرّر خيط ضوء. كانت آينور غير قادرة على فهم الخياطة الجاهزة، فشراء فستان يشعرها بأنّها سرقته من امرأة أخرى. في اليوم الثالث شعرت بأنّها غير قادرة على مغادرة الموسيقى، وأنَّ أحدهم سلبها فستانها، وتركها عارية أمام زكريا.

***

كان كروغر هايس قد أبلغ معاون القنصل الفرنسي فيكتور دولاباس قبول آينور هانز دعوته لتناول الغداء في بيته، وهو تفضيل ما كان السير هنري هانسفورد يتوقع حدوثه بعد دعوات كثيرة وجّهها لآينور سعياً منه لتلافي فظاظة عرضه التوقيع على طلب تجديد الولاية لحازم بك.

بدت مظاهر التديّن طاغية على فضاءات بيت معاون القنصل الذي لا يستخدمه للمبيت، بل للعمل، ومتابعة شؤون الكنائس. كان

من طبقة واحدة، وبثلاث غرف. في وسطه حَوْش مفتوح على السماء فيه نافورة على شكل زهرة توليب، وإيوان عميق مقبّب. فُتنت آينور بالكتلة الواحدة للرخام الموصلي الأزرق الذي يبدو من جمال صياغته أنَّ بحراً هائجاً دخل بين طيّات الحجر، نحت البيت، ثمّ قفز من النوافذ. كان فيكتور دولاباس يعوّض بفضوله الذي يطال كلّ شيء، وبنشاطاته الدينية الواسعة، قلّة خبرته السياسية، فهو في الرابعة والثلاثين، شديد النحافة، بفم واسع، وأنف مدبّب. أعزب، يبدو عليه الضياع إذا ما تعلّق الحديث بالشأن العثماني. يغيّر مسار الحوار في كلّ دقيقة، دون حساب لانطباعات ثقل تمثيله لفرنسا. لا يصبر حتى يستمع لكامل الجملة. يفلت ضحكاته البلهاء بلا مناسبة، وكأنّ أفواه الجنّ تتكلم في باطن رأسه. تقبّل كروغر بضجر واضح إعجاب معاون القنصل بالبراندي المحلي الذي تنتجه القرى المسيحية المكثلكة، معتبراً القياسات الفرنسية الصارمة في إنتاج الخمور مسألة توازي الشرف الحربي. انتبهت آينور لما حولها حين علت ضحكة معاون القنصل في تجويف قوس الإيوان، فقاطعته متسائلة:

– مسيو دولاباس.. هل في الموصل المزيد من هذه البيوت الجميلة؟

ردّ بزهو العارف بالخبايا:

– مدموزيل هانز.. في هذه المدينة أكثر من سبعين مليونيراً، وبمثل هذا العدد هناك أسطوات بناء مهَرة، يمتلكون حسّاً فنياً عالياً. أعرف سيّدة كاثوليكية مؤمنة في نيّتها الهجرة إلى فرنسا، لديها ثلاثة بيوت معروضة للبيع عليك رؤيتها، واختيار أحدها. يمكنني مساعدتك في هذا، فأنا على علاقة طيّبة بالسيدة، ولكنّني أنصحك بالسكن مع الأوروبيين في الجانب الشرقي من النهر، فحين يكون المرء بالقرب من خرائب مدينة يونان النبيّ، فإنّه ينال بركة الربّ.

صحيح أنّ الناس هنا لطفاء، وبسطاء، ولا يكرهون الأجانب، لكن ليس إلى درجة أن نضحّي بتميّزنا.

جعلها البراندي ترى نفسها حورية بحر. قالت آينور، وهي تميل بنصفها البشري معتدية على فراغ الأريكة الذي يفصلها عن كروغر:

– أنت سلس جداً مسيو دولاباس.. سلس ولطيف.

لم تكن هذه هي المرّة الأولى التي تدخل فيها آينور بيتاً موصلياً، لكنّها لم تتبيّن شرارة الفكرة إلّا عندما عرض عليها فيكتور دولاباس النزول إلى سرداب بيته لتذوّق البرودة المهذّبة. نصحها بشيء من التهريج ألّا تتكبّر في الحكم، فهناك فرق هائل بين سراديب أوروبا التي تُستخدم لتعتيق النبيذ، وبين الرّخام الموصلي الذي يحافظ على درجة برودته وكأنّه نزق الروح مثل من آل بوربون وينحدر من سلالة الكابيتيون. وقال لها إنّ التخزين هو القوّة العظمى لمدينة الموصل، فهنا لا تفسد البذور، ولا تقوى الرطوبة على فعل شيء، وفي كلّ بيت حنطة تكفي لسنوات طويلة. جارته آينور في الحماسة، فقد تجمّعت في رأسها الكثير من الصور الصالحة للاستعمال. كان السرداب مكعّب الشكل، معدوم الملامح، يبطّنه الرخام الذي تكثر فيه العروق البيض والزرق، يشعّ برودة هادئة تحسّن المزاج. له ثلاث فتحات دائرية قريبة من السقف تطلّ على الحَوْش، محميّة بمشبك حديدي، تمدّه بالهواء والضوء. كانت آينور قد رأت سرداب بيت شاؤول جلعادي في حيّ اليهود، إلّا أنّه أقلّ هيبة ممّا في بيت فيكتور دولاباس، لكنّ السرّ الذي أطلعها عليه شاؤول، وهو اتصال سرداب بيته بممرّ مع بيت أخيه المجاور، رطّب إلهامها.

سبقهما كروغر هايس في الخروج من السرداب. أعطى فيكتور دولاباس يده لآينور، وسألها وهو يساعدها على ارتقاء الدرج:

– ما الذي جعلك تغلقين متجرك في باريس، وتأتين إلى هنا يا مدموزيل هانز؟

أعجبها أن تكون أعلى منه، وهي تقف على الدرجة الأولى:

– الأرباح هي وطننا يا مسيو دولاباس.. في باريس أنا ألمانية، أمّا هنا فأنا عثمانية.

استوقفها قائلاً بملامح جادّة:

– ليس من الحكمة أن ننزعج من السير هنري هانسفورد.. أنا أتكلم كصديق.

قالت وهي ترتقي الدرج دون أن تنظر إليه:

– شكراً.. هذه نصيحة ثمينة مسيو دولاباس.

***

حسمت آينور حيرتها بأن طلبت من شاؤول جلعادي شراء البيوت الثلاثة المتجاورة في حيّ النصارى. لم تكن المشكلة في الأزقة العميقة، ومتاهاتها الكثيرة الضيّقة، فلا شيء يستحق القلق ما دام تابور الحبشي غير نائم، لكنّ كلّ البيوت التي كانت معروضة للإيجار، أو البيع، بليدة الحسّ، ولا تتقبّل الطموح، كما أنَّ آينور كانت منقادة لغيبوبة صورية تباغتها حين تتداخل أصوات الرجال حولها، فتظهر في غشاوة البصر، غرف قصر يلدز شاله مخلوطة بنساء يرقصن على بساط من جمر.

كانت بيوت آينور الثلاثة، تتشابه في الشكل، وتقع على زقاقين. اثنان إلى الشرق، والأخير إلى الجنوب، ولا يزيد كلّ واحدٍ منها عن مئة متر. طلب شاؤول جلعادي إمهاله مدّة شهر كي ينجز جميع التعديلات على البيوت، وربط سراديبها بعضها مع بعض، ولكي لا ترتبك روحها، أطلقت آينور على البيوت تسميات: متعة،

ورغبة، وبهجة. وعلى الجانب الغربي من المدينة كان كروغر هايس يوشك على إنجاز مخزن مصنع الجوارب، وقد تلقى من القنصلية الألمانية في بغداد تلغرافاً يعلمه أنَّ شحنة الماكينات والغزول ستصل إلى ميناء البصرة خلال أسبوع، وأنَّه قد حدث خطأ في التبليغات السابقة بشأن موعد الوصول، الأمر الذي دفعه إلى الطلب من شاؤول زيادة عدد عمّال البناء، ومنح مكتب شركة القارب في خان خواجة أحمد توكيل نقل الشحنة إلى الموصل.

أخذت آينور، في جولاتها الفجرية عند باب الجسر، تترصّد القرويات المسيحيات الحاملات سلال البيض، والديوك الرومية المقيّدة الأرجل، وتتحاور مع المسلمات اللواتي يبعن الخبز، والحليب، والقشطة، بجوار الجوامع ومقاهي الجنود. لم تعجبها أنواع الجبن التي تُصنع محلياً، فهي بثلاثة أنواع، وكلها بيضاء، وطريّة، وتخلو من العفن. بدت آينور أكثر تحفظاً في ملابسها الجديدة التي ساعدتها شكيبة هانم في اختيارها. استبدلت أحذيتها الأوروبية بالبابوج، والفساتين الضيّقة، بالإزار القصير، وتحته تنّورة طويلة، وغطّت وجهها بالبوشية. كانت تبدو قلقة في الساعات الأولى من الصباح، مسكونة بالخوف من المجهول، وما إن يفرغ الجسر من القادمين إلى المدينة حتى تتقدّم نحو النهر مرسلة بصرها إلى شبح منارة جامع النبي يونس البعيدة. طلبت من تابور مراراً ألّا يقف لصقها، كي لا يخيف الذين تحدّثهم، والحقيقة أنّها هي التي كانت تشعر بالهلع من لمعة الدهانات التي يطلي بها جسده الضخم، ومن تلك الروائح البهارية التي يطلقها مثل حيوانات الغابة السوداء. كان شاؤول جلعادي يرتعد حين يرى تابور، ويسمّيه عمليق عيسو، ويحرص على ضبط المسافة بينهما، لأنّه يتوقع أن ينسعر في أيّ لحظة، لذلك كان على آينور دائماً مسك شاؤول وتابور بعين واحدة. الجميع، بمن فيهم كروغر هايس،

يجهرون بفزعهم أمام تابور الذي يبدو نائماً مثل كلب قدّيسي مغارة أفسس، لا يتأثر فيه شيءٌ، ما دام الخطر غير موجود، وحين يكشف عن أسنانه، فمعنى ذلك أنّه لمح تهديداً يُحتمل أن يؤذي سيّدته.

***

أظهر سعيد أفندي السعرتي الكثير من الحماسة بعد إنهاء العمل في المكان الجديد للمدبغة والمسلخ الذي يقع إلى الجنوب من باب الطوب بمسافة أربعة أميال، ما أشعره بدنوّ فرصة تحقيق حلمه في لمبات الغاز، وأيضاً في إنشاء مستشفى الغرباء. وافق مجلس البلدية على منح آينور حق استغلال أرض بمساحة أربعمئة متر مربّع، تقع بجوار جامع الأغوات، وإعفائها من دفع بدل الإيجار لخمس سنوات، على أن يكون المبنى الذي ستشيّده ملكاً للبلدية. كان سعيد أفندي السعرتي يضيف المزيد من التعقيدات إلى تعاملات آينور مع البلدية، فقد تفطن إلى خطورة أن تتردّد على بيته، وفي الوقت نفسه تودع المزيد من الأموال بحساب البلدية في البنك، كما أنه أخذ يلمح تبدّلاً في موقف الوالي، فبينما كان، قبل شهر، شديد التفاعل مع خطوات نقل مكان المدبغة والمسلخ، ووعده بعدم فرض رسوم خروج ودخول على المواشي، واللحوم، والجلود بعد تدشين المكان الجديد، حتى تتشجّع آينور في تقديم المزيد من التبرّعات، وجده لا يستجيب لطلبات الإيذان ببدء عملية النقل، ويتجاهل مناقشة الأمر في اجتماعات مجلس إدارة الولاية، ما دفع سعيد أفندي السعرتي إلى الطلب من آينور مقابلة الوالي، وحثه على استكمال الإجراءات.

بقيت آينور تتردّد على السرايا مدّة ثلاثة أيّام إلى أن سمح لها الوالي حازم بك بمقابلته. بدا أكثر انكماشاً، ومتجهّم الوجه. كانوا قد أدخلوها إلى الأوطة برفقة رئيس مفتشي الضبطية الذي كان ينوي

عرض خطته في حفظ أمن الأسواق أيام الاحتفال بعيد الجلوس. استمع إليها الوالي أولاً، ونظراته فيها استعلاء، ثمّ قال محاولاً إنهاء المقابلة:

– آينور هانم.. نحن لن ننقل المدبغة والمسلخ إلى المكان الجديد لأنّ هذا سيرفع أسعار اللحوم، ويؤثر في تصدير الصوف، والجلود.

قالت آينور بصلابة:

– ولكنكم وعدتم بعدم فرض الرسوم عند تبرّعي للبلدية بخمسين ألف قرش، وأنا أرى أنّ نقل المدبغة والمسلخ إنجاز كبير سيفرح الناس في عيد جلوس مولانا السلطان.

ردّ الوالي بارتباك:

– لقد اختلفت الظروف.. واردات الولاية في هبوط متزايد، والنفقات في ارتفاع. حين تستقرّ الأمور ويكون باستطاعتنا إلغاء الرسوم سنأمر بنقل المدبغة والمسلخ إلى المكان الجديد. نحن عند وعدنا آينور هانم.

تساءلت وهي تقف:

– هل موقفكم هذا له علاقة برفضي التوقيع على طلب تجديد الولاية؟

قال الوالي وهو يعتدل في جلسته:

– طلبات تجديد الولاية عفوية، ونحن لا نجبر أحداً على التوقيع، وإذا ما نقص اسم فيها، فهذا لن يؤثر بشيء.

خان خواجة أحمد

خشنت روح آينور هانز، وتغضّن قلبها بالمرارة جرّاء فشلها في نقل مكان المدبغة والمسلخ إلى خارج الأسوار. بقيت لأسابيع تظهر في مبنى البلدية، وخان خواجة أحمد وهي متشنِّجة، وغير منضبطة الحركة مع ما تتطلبه تنّورتها الطويلة وإزارها القصير من سعة في الخطوة. كان يُخيّل إليها، بسبب تخلّيها عن مشدّ الخصر، أنّها تسير عارية، ومنتهكة الثديين والساقين أكثر ممّا لو كانت ترتدي فستاناً أوروبياً بقصّة بيرثا. صُدم رئيس البلدية سعيد أفندي السعرتي بمظهرها وهي تدخل عليه أكثر من مرة معفَّرة بالتراب، ومشلولة العينين بسبب البوشية، تتلمّس طريقها بكبرياء جريح، وهي مسلوقة تماماً وغير قادرة على تحصيل أنفاس كافية، حتى إنّه لامَ زوجته شكيبة هانم على تعسُّفها المتسرّع، وقال لها إنَّ الله لا يحاسب الألمان بشدّة كما يحاسبنا، وطلب منها إقناع آينور هانز بأنْ ترأف بحالها، ولا تظنَّ نفسها موصليّة.

كان السير هنري هانسفورد قد أبلغ سعيد أفندي السعرتي في احتفالية عيد الجلوس أنّه أخطأ كثيراً في توقّع الفائدة من نقل المدبغة والمسلخ، وأنّ التجّار الإنكليز لا يهملون النظافة والصحّة العامّة كما يظنّ، فحين لا يعرف الناس أنّ اللحوم ليست أثمن ما في

الحيوانات، فإنَّهم يقضون حياتهم بين النفايات. وفي مقهى كاندريان في خان خواجة أحمد، نبَّه السير هنري آينور إلى أنَّ الأجانب هنا لا يتبرّعون بالأموال لأنَّهم على دراية مؤكّدة بأنَّ الله نفسه لا يريد فعل شيء لولاية الموصل.

رضخت شكيبة هانم لتوصيات زوجها، وأخذت آينور هانز إلى سوق القماش بحثاً عن شيء يصلح للجسد الألماني، ولا يخالف شرع الله ورسوله. كان متجر حسين الطاهر هو الأكبر، تقصده نساء الطبقة العليا، وكبار الموظفين، مقسَّم بحسب الندرة والجمال، وكلما كان القماش أثمن وأنفس بَعُدَ عن العين، واختبأ. كان حسين الطاهر راسخ الهيبة، تتراءى السكينة في عينيه الرماديتين. في الثالثة والستين من العمر. ملامحه دقيقة، ووسيمة، وطيّات بشرته عند الجبين خفيفة، ووجهه الحليق كان مشرّباً بالحمرة. حاسر الرأس. يرتدي ثوباً طويلاً من الحرير الأسود، مفتوحاً من الأمام، وبلا رقبة، وكامل الأردان، أطرافه وفتحة عنقه مشغولة بخيوط الكلبدون الذهبية، يطوي كل جانب من ثوبه على الآخر ويثبّتهما، عند منطقة السرّة، بكلّابين من الذهب المرصَّع بالماس. ينتقي الكلمات الأكثر لطافةً، ويكرّم زبائنه من النساء، مشيداً بمقامهنَّ. يحصر توقعاته قياساً بمظهر من تدخل متجره أوَّل مرَّة، فيسألها «أنتِ من بيت العطّار، أم الفحّام؟» فيأتيه الردّ دائماً على واحد ممّا ذكر، فيأمر أحد أولاده بخدمة «ابنة العز» بما يليق بمكانتها. له ذاكرة موهوبة في التمييز بين الظلال الظاهرة من البوشية، وإذا ما شاهد امرأة ترتدي ملابس من أقمشة فاخرة باعها لها، يتغنّى بأبيات شعرية بالتركية، أو الفارسية، تحكي عن لوعة الأشواق.

قوّت الألوان المتناسقة، وإضاءة الشموع، إحساس النعومة في روح آينور، بينما أخذت رائحة البخور تهيّج اللمعة في الديباج،

والساتان، والتفتا، والمخمل، وترخي أعصاب آينور هانز، فيغشاها التوق الغامض لنفسها. شيء يشبه الانغمار بالماء، جعل روحها تتسلّل منها لتلبسها من جديد. شعرت بها تخرج من مهبلها، ثمّ تعود وتدخل فمها. دوران فيه ظلمة تتفتح، وانتعاشة باردة. خُيّل إليها، وهي ترجع إلى وعي الضوء، أنّ العينين الرماديتين لحسين الطاهر، هما اللتان ألهمتا شيطانها.

كانت تنظر إلى الديباج الأصفر حين تساءلت بالتركية:

– من أين أحصل على ترتر برّاق، وساحر؟

تأمّلها حسين الطاهر مبتسماً، ثم قال:

– في جزر بالي يصنعون الترتر المطليّ بالذهب، وهو رقيق للغاية، وناعم، وآمن.

كانت رائحة البخور تدور مع حركة الزبائن في المتجر، وحين تكثّفت في الركن، جذب حسين الطاهر شغفها مجدّداً:

– يمكن أن أريك نماذج منه بعد أسبوع.

هيمن الإلهام عليها، وهي تقول:

– سأنتظرك.

***

حرصت آينور هانز على ألّا تبتعد كثيراً عن أعين الإنكليز، وبالتحديد عن صرامة المتابعة التي كان نائب القنصل الإنكليزي السير هنري هانسفورد يبديها لكلّ مظاهر الحياة في المدينة، فهو عالم نباتات، وعضو في الجمعية الجغرافية الملكية الإنكليزية. في السادسة والخمسين من عمره، دمث، يظهر سعادة طاغية بالحياة، ويتفقد بعناية المدارس الدينية الملتزمة. حسّاس تجاه أيّ تقيّد احتفائي سواء في طرق المتصوّفة، أو في طقوس يزيدية بلدات الشيخان،

وبعشيقة، وسنجار. بقيت آينور هانز تتردّد على خان خواجة أحمد في الجنوب من سوق السرايا، وهو بناء واسع من طبقتين، ببوائك حجرية، استخدم في السابق لمبيت الرحّالة الأجانب قبل أن يحوّل التجّار الإنكليز طابقه الأرضي إلى مخازن للصوف المكبوس المعدّ للتصدير، ويمنعوا إدخال الدواب إلى صحنه المكشوف، بينما الطابق العلوي تشغله مكاتب شركات النقل، وبيع العقارات، ومقهى كاندريان الأرمني. أيقنت آينور هانز أنّ السير هنري هانسفورد يعرف عن كروغر هايس أكثر ممّا ذكرته لها تشكيلات يلدز الاستخباراتية. أيّ تلميح إنكليزي مهما بدا صغيراً كان يدفع كروغر إلى الانفعال، وشرب المزيد من الويسكي. كانا يتبادلان النظرات الحاقدة نفسها هو والسير هنري هانسفورد، ولكن، على النقيض منه، كان كروغر هايس يهمل مظهره كثيراً، يزداد انتفاخاً، وتفوح منه رائحة كبش نافق. لم تثق آينور بمبرّرات كروغر، وحين اكتشفت بالمصادفة أنّ شاؤول جلعادي يجيد الإنكليزية أفضل، عمدت إلى معاملة كروغر، كلّما لحق بها إلى الخان، كمستخدم لا أكثر. وحين كانت تجلس في مقهى كاندريان مع الإنكليز، تأمره بالانضمام مع تابور إلى رعاة الأغنام الذين ينتظرون تحصيل أثمان صوفهم بعد الوزن. أبدى كروغر تحمّلاً عالياً، وكان ذلك يدعو آينور إلى توخّي الحذر في القسوة، فهو يتطلع إليها بوجع من يخفي سرّاً نبيلاً. قرّبت إليها شاؤول جلعادي رغم رخاوته، وخوفه الشديد من الأسئلة، وعدم قدرته على النظر في العيون، ووقوعه السهل في الاشتباه. كان يتفانى في الدقة، ويحرص كثيراً على مال سيّدته، ويمكنه تحمّل المشقّة لأسبوع كي يستعيد قرشاً واحداً ضاع في الأرقام المدوّنة. ولأنّ تشكيلات يلدز الاستخباراتية تراه الأوّل بين المساعدين، بلا أيّ إثباتات مفهومة، أصبحت آينور متخمة بالفضول لاكتشاف هذا الرجل، وتنتظر اللحظة التي يتغلب فيها على خوفه. لم

تكن الأجواء صافية، وكان من السهل، بقليل من النباهة، التفطّن لذلك الاستهزاء الذي يديره السير هنري هانسفورد، متخطياً به قدرة شاؤول جلعادي على فهم اللغة المشفّرة التي يتداولها التجّار الإنكليز. كانت ملابس آينور تستفز الأجانب، رغم أنّها تتخلى عن البوشية والإزار حين تدخل إلى الجناح الأوروبي في المقهى، وهو فضاء تفصله عن الجانب الوضيع من المكان ستارة حمراء نُقش عليها بالترتر الأصفر شكل قيثارة إغريقية. كان كاندريان يتعاطف كثيراً مع شجاعة آينور، ويفرض قوانينه بصرامة على الجميع. ضيق الخلق، وينفر من الصخب رغم أنّه في الرابعة والأربعين من العمر، وإذا كبر انزعاجه، يطرد الجميع، ويغلق المقهى، ولا يعود إلّا إذا تيقّن مجدّداً من أنَّ الحياة يجب أن تستمرّ. يقدّم أصنافاً كثيرة من المشروبات الساخنة والباردة، والقليل من الوجبات الخفيفة، ويبيع البراندي، والويسكي، والعرق البعشيقي بالخفاء كي لا تطاله الضرائب. كان الجناح الأوروبي جيّد الإضاءة والتهوية، وفائق النظافة. روائح التبغ لا تركد فيه كثيراً. تحتلّه أرائك متقابلة تتسع الواحدة منها لثلاثة أشخاص، بينما الكراسي لصق الحائط، وثمّة شرفة تطلّ على القشلة العسكرية لا يفتحها كاندريان إلّا للجلسات الخاصّة. كان السير هنري هانسفورد يأخذ من روّاد المقهى الأجانب كامل الحق في التقرّب إلى آينور التي أدركت سريعاً أنّه يمنع نفسه من قضم أنفها. شديد الأناقة. يتمهّل بحركته. تفوح منه رائحة ماء الكولونيا. يدخن الغليون، ويتفقّد ساعة جيبه الذهبيّة بين الحين والآخر، متلمّساً نقشة الغطاء دون أن يفتحه. لا تتكلم آينور في المقهى سوى العربية الفصحى، وهذا يزعج السير هنري ويستفزّه، إلّا أنّ آينور لم تبدِ أيّ رأي يعزز شكوك الإنكليز في تودّدها للمتعلمين العرب، وحين تُستدرج للحديث باللغة الفرنسية كانت تردّ بأنّها لا ترغب في حرمان شاؤول جلعادي أجر الترجمة الإضافي. تمسّكت بكلّ

ما يدلّ على سرعة الاندفاع، متعمّدة إظهار حماستها الغبيّة. تفعل ذلك بملامح طفولية صافية، مبقية فقط على الكياسة التي يمكن أن تُكتسب جراء العمل في كالة سفر. كان كلامها عن النظافة، والأشجار، وضرورة تحسين الخدمات، يؤجّج سخرية الإنكليز الذين يخرجون عن وقارهم، ويتبادلون تلميحات تثير الضحك ما يدفع كروغر، وهو يجالس رعاة الأغنام، إلى الإعلان عن وجوده بطرق نزقة، بينما شاؤول ينكمش مرعوباً مثل عصفور دخل عن طريق الخطأ من كوّة تهوية.

كان السير هنري يكرّر أسئلته القديمة، مستفيداً من الجديد الذي قد يظهر بفعل النسيان. ورغم عدم تلقيه من آينور الإجابات نفسها، كان يُصدم بالتعقيدات التي لم يحسب حسابها. كان يظنّ أنّ إنكلترا تضيّع وقتها بالسياسة ما دامت الدماء في النهاية هي التي تحلّ المشكلة. يشعر بالملل من طول يقظته، وكثرة إرهاقه لنباهته. وكانت آينور قابلة للبوح، وهذا ما طلبت منها تشكيلات يلدز الاستخباراتية الاستفادة منه، لأنَّ الخطأ الأول هو الوسيلة المثلى لتدارك الخطأ الثاني وتأخيره. كان معظم الإنكليز في الموصل، حتى الذين يجمعون العفص، ويكبسون الصوف، هم من خرّيجي أكسفورد، أو كامبردج، فكان لا بدَّ لآينور من أن تظهر على حقيقتها كامرأة أقلّ ثقافة. لم تكن تشكيلات يلدز الاستخباراتية تملك الوقت لتعريف آينور بكلّ خلفيات الصراع الاستكشافي بين الألمان والإنكليز على مدى القرنين الماضيين، ولكنّهم أطلعوها على تفاصيل بعثة المهندس شيرنك عام 1872 التي كانت أساس فكرة خطّ سكّة برلين بغداد، وطلبوا منها إظهار جهلها إذا ما تطرّق السير هنري إليها في حواراته معها. تعمّدت آينور مراراً استعمال الوضاعة التي كانت عليها أيّام رودولف، لكنّ ذلك لم يغوِ السير هنري، ويجعله يكفّ عن الشك، وكان يجاريها في كسر قواعد السلوك الأوروبي، لأنَّ الحياة في الشرق

كئيبة، وأيّ أوروبي يأتي إلى هنا سيبدو أحمق ولا يستحق الاحترام. ونبّهها أكثر من مرّة إلى أنّ العقارات ليست الاستثمار المناسب هنا، وأنّها أخطأت في شراء ثلاثة بيوت في حيّ النصارى. وعندما أخبرته أنّها تفكر في استغلال أحد البيوت لتقديم الخدمات الطبّية المجانية للحوامل عرض عليها الاستفادة من خبرة الطبيب الموصلي جرجس غزالة، وقال بأسف واضح:

– إنّه ينوي ترك مستشفى ليجون، والسفر إلى بيروت.

قالت آينور بثقة:

– لن أدعه يسافر قبل وصول الطبيب الألماني إلى الموصل، وهذا يتطلب ستة أشهر أخرى.

اشترك شاؤول مع السير هنري في النظر بدهشة إلى آينور التي ابتسمت بمبالغة، وهي تبدو كفزّاعة طيور قشيّة. حافظ السير هنري على صلابة ملامحه قائلاً:

– راهبات التقدمة لن يعملن مع طبيب ألماني.. صحيح أن الألمان هنا يعرضون خدماتهم لدول أخرى مقابل المال، وهذا ما أسمّيه العهر السياسي، ولكنّ فرنسا لن تقبل بهذا.. يمكننا، إذا جاء، إلحاقه بمستوصف كنيستنا الإنجيلية البروتستانتية.

قالت آينور بحدّة:

– الطبّ ليس فيه كاثوليك وبروتستانت، وهذا الطبيب الذي سيأتي لن يعمل مع الفرنسيين في مستشفى ليجون.

طلبت آينور من كاندريان قهوة عربية من تلك التي تُقدَّم في المآتم، لكنّ السير هنري لم يغيّر الموضوع، وعاد ليسألها:

– هل ستشتغلين في الطب أم في تجارة الجوارب يا آنسة هانز؟

ردّت باستعلاء:

– أهمّية الطبّ للمرأة في القرن العشرين مثل أهمّية رودولف في عالم الأزياء للقرن الواحد والعشرين.

المعلّم باستور

أخذت آينور هانز، في السابعة صباحاً، خادمتها بريتا، وذهبت إلى مصنع الجوارب في باب سنجار لرؤية الماكينات التي وصلت من ميناء البصرة. لم تنم جيّداً. انتابها القلق، وبقيت تعاني ضيق تنفس، وألماً في الكتفين، والحلق، وترى أخيلة ناطقة حول سريرها ما لبثت أن تبيّنت منها أطياف صديقاتها في توبنغن، ورأت بوضوح رودولف عارياً، وقضيبه منتصب، ثمّ أخذت تحكي مع أمّها الملتصقة بالسقف، وتلومها على إهمالها قبل أن تسمعها بريتا، وتأتي لإنقاذها. بقيتا متلاصقتين على السرير، تتطلعان بروحين متقرّحتين إلى منظرهما المزري المعكوس على مرآة خزانة الثياب حتى غادرت كلّ الأطياف الغرفة، وكان رودولف آخر من انسحب، وقضيبه مخذول بالموت. تعرّفت آينور إلى رائحة العرق البعشيقي التي نشرتها أنفاس بريتا في الغرفة، فسألتها إن كان تابور يضايقها. ردّت بأنّه لا يكلمها، بل يملأ لها القنّينة بالعرق، ويتركها في المطبخ. كان وجه بريتا يبدو، على الدوام، خالياً من الدم، ويشي بعلّة في الرئة. كالحة مثل عتبة خشبية تُركت خمساً وثلاثين سنة مكشوفة للشمس، والأمطار، والرياح، والأقدام. أسنانها الأمامية العليا متكسّرة ما جعل فمها غير صالح للضحك.

مشاعرها تتوقّت كواجبات. تعرف ماذا تفعل عند كلّ إشارة تفرزها عواطف الأشخاص الذين حولها، ولكنّها لا تستوعب أن يكون لديها، في أعماق روحها، الحاجة نفسها، وأنّها تستحق من الآخرين معاملة وجدانية مماثلة. حين رأت دموع آينور، جرّدتها من قميصها، وجعلتها تنام على بطنها، دون أن يكون هذا ما بكت بسببه. جهّزت، في وعاء خزفي صغير، مزيجاً من زيوت القرنفل، والزيتون، واللوز، وأخذت تمسح به الحبوب الحمر في ظهر سيّدتها. شعرت آينور برجفة أصابع بريتا، فشدّت عضلات كتفيها، وطلبت منها بصوت جافّ استخدام القطن.

كانت الطرقات رطبة برذاذ مطري أفلتته الغيوم طوال الليل. توقفت عربة آينور أمام مستشفى ليجون في حيّ الأوس ريثما تأخذ بريتا موعداً لسيدتها من الطبيب جرجس غزالة. انبهرت آينور بما رأته على أرض المصنع الذي اكتمل منه المخزن، والسور الخارجي. كان العشرات من العمّال يجهّزون لعقد سقف المبنى الرئيس الذي مساحته ألف متر مربّع، وأركانه من البازلت، أمّا جدرانه العالية فمن الحجر الأسمر الناتئ. طلبت آينور من الجميع تركها وحدها في العربة. أرادت الانفراد بنبضة ضوئية أحسّت بها تولد من قلبها وتسير طافية في مسارات دمها. بقيت تتأمّل البناء الضخم ومشاعرها تنسج إحساساً فيه خشونة وهشاشة معاً. أيقنت لحظتها أنّها تشعر بالفرح فخامرها عوز بارد لرودولف. ترجّلت من العربة. خلعت البوشية وتقدّمت خطوتين. أخذت نفساً عميقاً، ومسحت أنفها بمنديل أصفر، ثمّ قالت للمبنى بصوتٍ مرتفع:

– أنت كبير جداً وتشبه الجبل، ووظيفتك أن تصنع جوراً صغيراً، أمّا قلبي فهو بحجم قبضة يدي ومع هذا بناك وأقامك.. أنا آينور هانز.. سيّدتك أيّها المصنع.

كان المخزن ببابين وسقف هرمي، يجاور المبنى الكبير، ويتّصل معه بسكّة حديدية قصيرة لها عربة مسطحة لنقل الأوزان الثقيلة، وقد جعله كروغر هايس نسخة من قاعة ورشة الخياطة في مدرسة الصنايع ببغداد، واتخذه مكاناً للمبيت. كانت رائحة البحر لا تزال عالقة بالصناديق الحاوية للماكينات، بينما شاعت على دكة كروغر أنفاس زيتية ثقيلة. بدا كل شيء رائعاً لآينور ما دفع كروغر هايس إلى الإسهاب في شرح كيفية عمل الماكينات، وهيمنت عليه رغبة في توجيه تابور لمعاونته على فتح الصناديق، لكن آينور، وهي تلمح بقعاً على بنطلونه من الخلف، كبحت اندفاعه قائلة:

– سيد هايس، أرشد بريتا إلى ما يمكن أن يجعل إقامتك هنا مريحة.

***

كان مبنى المستشفى متكوّناً من ردهتين صغيرتين وغرفة عمليات، يتوسّط كنيسة اللاتين، ومعهد مار يوحنا الحبيب الكهنوتي. حمل اسم ممثل الإمبراطور نابليون الثالث البارون ليجون الذي تُوفي في الموصل وهو في طريق عودته من بلاد فارس، فأنشأت والدة البارون المستشفى سنة 1874 تخليداً لذكراه الحزينة. لم تلتق آينور بالطبيب جرجس سوى مرّة واحدة في مكتب سعيد أفندي السعرتي حين كانت تقوم بإجراءات استثمار الأرض المجاورة لجامع الأغوات، وكان الطبيب قد جاء يحذّر من الصحراويّين الذين يجولون في الأزقة، ويجرون عمليات الكاتاراكت في العيون، ويقلعون الأسنان، ويعالجون البواسير، وقد تبادلا بعد ذلك بالفرنسية العديد من الرسائل التي كانت تنقلها بريتا بشأن ما تحتاج إليه الموصل من خدمات طبّية، يمكن للإمبراطورية الألمانية توفيرها ضمن بروتوكول الصداقة

الموقّع مع الدولة العثمانية، وقد ادّعت آينور أنّها مكلفة من القنصل الألماني في بغداد بمعرفة نوع الاحتياجات الطبّية لكي تقدّم الهبات على أساسها. كان سعيد أفندي السعرتي شديد الإعجاب بالطبيب جرجس الذي كانت له معجزات نبيّ، وحرص نملة، وقد أطلع آينور على تقرير كتبه الطبيب ضمّنه رأيه بمشروع مستشفى الغرباء، ولأنّه قوي الضمير، فإنَّ التشاؤم الوارد في التقرير ليس له علاقة بضغط الإرساليات التبشيرية. كان متوتّراً على الدوام لأنّه يعتقد أنّ هناك الكثير من التطوّر العلمي يفوته كلّ دقيقة، وهو هنا يبدّد وقته مع الأغبياء والحمقى. في الأربعين، ملامحه حادّة، وهندسة رأسه ناتئة. نظراته متوثبة، وكلماته سريعة. لا يستطيع الاسترخاء، ويعطي الانطباع بأنّه لا يملك للشخص الذي يلتقي به أكثر من دقيقة. درس الطبّ على أيدي الآباء اليسوعيين في بيروت، ثمّ التحق بجامعة باريس، وتلقى دروساً من شانتس، وبوتزي، وباستور، لينال الدكتوراه سنة 1888. انتظرته آينور نصف ساعة، وحين دخل مكتبه كان يحمل على راحتيه زجاجات أدوية عليها لواصق باللاتينية. طلب منها، دون أن يلقي التحيّة، تخيُّل حجم أورام العفن التي في أدمغة الناس هنا. وزّع الزجاجات بين أرفف خزانة خشبية، وقال إنّه معجب بالإمبراطور فيلهلم الثاني لكنّه يتمنّى أن يستمرّ على حكمته. وحين استدار، ورأى آينور جالسة على الكرسيّ بالتواء مثل قطة ناعسة، وقد رفعت عن وجهها البوشية، وبدت بشفتيها الورديتين، وبعينيها الطفوليتين مثل حلم نوراني لا يأتي إلّا لرجل محظوظ كالمسيح، اعتذر عن همجيّته قائلاً:

– آسف مدموزيل.. لم أتوقع هذا.

سألته بصوتٍ ناعم، ورائحتها الباتشولية تتأجّج:

– لماذا لا تحبّ فكرة مستشفى الغرباء؟

جلس إلى مكتبه، وقد بدت عليه الصدمة، فعادت آينور لتقول:

– أطلعني السيد السعرتي على تقريرك.. الإمبراطور فيلهلم التزم ببناء مستشفيات في كلّ ولايات بلاد ما بين النهرين.

قال بصلابة:

– منذ وفاة والدة البارون ليجون ونحن هنا نمارس الطبّ مثل العطّارين والحلّاقين، ومستشفى الغرباء في بغداد أغلق لأنَّ السلطان عبد الحميد الثاني غضب على الوالي المصلح مدحت باشا ونفاه. الناس يرون أنّ الشفاء يأتي من الله، ولهذا يؤمن المسيحي بالراهب الطبيب، ويريدنا المسلم أن نرتدي العمامة.. الذي ترينه هنا هو موت حقيقي، وعلى رأي لويس باستور فإنَّ الحياة لا تنشأ من مادّة ميتة بل تنبثق من حياة أخرى قائمة.

ابتسمت آينور بثقة:

– لهذا أرى أنَّ مستشفى الغرباء هو الحلّ.

توتَّر صوت الطبيب جرجس:

– أنت تتكلمين عن اتفاقيّات دولية، ومبنى، وإجراءات إدارية، وتبرّعات مالية، وأنا أكلمك عن العقل. هنا لا يؤمنون بضرورة التعقيم مع العمليات الجراحية لأنَّ روح الله في المشرط. يصدّقون وجود الشيطان، وينكرون وجود الجرثومة.

اعتدلت آينور في جلستها قائلة:

–اسمع يا دكتور.. نصف أوروبا لم تصدّق بعد معلمك باستور. أنا قبل أربع سنوات كنت أدرس في توبنغن الكثير من الخرافات عن طبّ التوليد. والكثير من النساء يمتن الآن بحمّى النفاس رغم أنّ معلمك باستور يظنّ أنّه حلّ المشكلة.. في مناطق عدّة من ألمانيا ما

زالوا يحدثون ثقباً في الرأس كي تخرج الأرواح الشريرة.. التخلّف في كلّ مكان يا دكتور، فلا تقس على مدينتك.

وجّه إليها سبابته قائلاً بانفعال:

– وأنت لا تقسي على ألمانيا.. قبل أربع سنوات اكتشف فيزيائي اسمه رونتغن أشعّة يمكن من خلالها معالجة المريض عن طريق التصوير. لقد استطاعت ألمانيا رؤية عظام الإنسان الحيّ وهي بلا لحم، وهناك ألماني آخر اكتشف تركيبة مسكّن سمّاه الأسبرين. هذا ما نحتاج إليه يا مدموزيل هانز وليس كتاب «غاية الإتقان في تدبير بدن الإنسان» لرئيس أطبّاء الدولة العثمانية ابن سلوم صالح أفندي الذي ألّفه في القرن السابع عشر.

نظرت آينور في عينيه حتى هدأت أنفاسها:

– حسناً.. اذهب إلى ألمانيا لتتعلم من رونتغن بدل السفر إلى بيروت.

ضحك الطبيب جرجس قائلاً:

– يبدو أنّ قنصلكم يعرف عنّي الكثير.

ردّت وهي متماسكة:

– نائب القنصل الإنكليزي هو الذي أخبرني.

– حسناً مدموزيل.. رأيي لن يقدّم أو يؤخّر، وألمانيا حرّة بمستشفياتها، وأرجو ألّا أكون تركت في داخلك انطباعاً سيّئاً. المسألة فقط هي أنّني مع الطبّ الحديث، وأنتم إذا ما بنيتم مستشفى الغرباء هنا فستأتون بطبيب ألماني ليديره، وحين يموت فيلهلم الثاني، أو تسقط إمبراطوريته، فسوف نضطرّ نحن للعودة إلى كتاب «غاية الإتقان في تدبير بدن الإنسان».

قالت وأنفاسها تتسارع:

– أنت من سيدير مستشفى الغرباء يا دكتور غزالة، وسأجلب لك أشعّة رونتغن، والأسبرين أيضاً.

واجهها بابتسامة ساخرة، ثم سألها:

– أتظنّين أنّ الإنكليز والفرنسيّين سيسمحون بهذا؟

– لا تشغل بالك.. عليك فقط تغيير الحياة بالطبّ الحديث.

تغيّرت نبرة صوتها وهي تقول:

– دكتور غزالة، لديّ رغبة في ممارسة التوليد عند انتقالي إلى بيتي في حيّ النصارى، ومن المؤكد أنّني سأحتاج إلى استشارتك ومساعدتك.

تريَّث قبل أن يسألها:

– هل أنت مسلمة أم كاثوليكية أم بروتستانتية؟

ابتسمت وهي تردّ:

– أنا أحبّ الله.

قال وهو ينقر بإصبعه على مكتبه:

– مهنة التوليد هنا لا تعتمد على حبّ الله، بل على نوع الدين. النساء يذهبن إلى قابلات من دينهنّ. مستشفى ليجون سيساعدك إن كنت كاثوليكية، أمّا إن كنت بروتستانتية كأغلب الألمان، فعليك الذهاب إلى مستوصف الكنيسة الإنجيلية. أمّا إن كنت مسلمة فعليك حفظ القرآن.. لا أريد أن أحبطك مدموزيل هانز.. لكن في حالة إيمانك بالله فالفرصة ربّما تكون، بقليل من الذكاء، سانحة لممارسة التوليد، لأنَّ الثلاثة يستخدمون الآيات التي تذكر العذراء مريم.

سألته وهي مبتسمة:

– وأنت يا دكتور غزالة.. أتؤمن بالله؟

تلفّت وكأنّه يتأكد من أن لا راهبات في مكتبه، ثمّ ردَّ بعدما أخذ نفساً عميقاً:

– ليس بقدر مبالغات راهبات التقدمة.. عقولنا تتبع العلم وتجعلنا أطبّاء، أمّا الله فهو الذي يدفعنا إلى الرحمة كي نخفّف آلام الناس.

قالت وهي تعتدل:

– أريدك أن تستعمل الرحمة في مساعدتي، وأنا سأتكفّل بهذا الغباء.. إن كان الله هو الله، ومريم هي مريم نفسها، والأطفال، في النهاية يولدون بكلّ الديانات، فلماذا هذا التعقيد؟

سألها وقد استعاد التفكير بأشعّة رونتغن، والأسبرين:

– هذه الثقة العالية، هل هي من الله أم من جهة أخرى؟

نهضت آينور بتثاقل. قالت وهي مشغولة بترتيب البوشية:

– لن أخذل أحلامك دكتور غزالة، وبالمقابل عليك ألّا تخذل طيبتي.

نظرت إليه مبتسمة، وعادت لتقول بنبرة عصفورية:

– لقد أبلغتُ السير هنري هانسفورد أنّ طبيباً ألمانيّاً سيأتي إلى الموصل بعد ستة أشهر.. هذه كذبة حربية يا دكتور غزالة، أرجو أن تهملها تماماً إذا ما وصلتك، ففي مقهى كاندريان نتناطح كالتيوس.

ضحك الطبيب جرجس وقال:

– أرجو ألّا تكون كذبة، فأنا أحبّ الألمان مدموزيل هانز.

سألته وهي تمدّ يدها لمصافحته:

– لماذا تريد السفر إلى بيروت؟

ارتبك الطبيب جرجس غزالة من شدّة ليونة أصابعها، لكنّه تمالك نفسه قائلاً:

– لا يمكن العمل مع راهبات التقدمة.. هنا يسمّون المهبل نصف تينة، والعضو الذكري الإصبع الكبير جداً.

فرمان الأحد

دخل حامل فرمان السلطان الموصل الساعة الواحدة بعد منتصف ليل الأحد، وتوجَّه إلى «إيج قلعة» مع ضابط برتبة بيرقدار وخمسين فارساً من السباهية. كان العرف يجبر حامل الفرمان، إذا ما وصل إلى المدينة أيّام الأحد، أو الثلاثاء، أو الأربعاء، أو الجمعة، على المبيت خارج الأسوار عند مرقد الشيخ قضيب البان، وعلى ألّا يدخل المدينة إلّا إذا وافق وصوله إليها أيّام السبت، والاثنين، والخميس، إلّا أنَّ حامل الفرمان كسر العرف هذه المرّة، ولم ينتظر إلى يوم الاثنين بل توجَّه فور وصوله إلى بيت الوالي في «إيج قلعة»، وقرأ عليه بحضور الكتخدا فرمان عزله، وتعيين ناظم بك والياً على ولاية الموصل، وأجبره على تقبيل الطغراء، وتأدية قسم الامتثال، والرضوخ، والولاء للإرادة السلطانية العليّة. ثمّ أمر حامل الفرمان باستدعاء الأعيان، وأغوات السرايا، لإجراء مراسم التسليم.

انتشر الجيش، بعدها بساعة، في أرجاء المدينة، ومع صلاة الفجر أعلن المنادون عطلة رسمية ليومين، إلّا أنّ الإجراءات كانت أقرب إلى حظر التجوال، فقد دخل الوالي الجديد الموصل بمئتي

فارس، ولم تطلق المدفعية نيرانها الاحتفالية، ولم تعزف المهترخانة ألحانها، ولم يفتح كاندريان مقهاه.

***

انقطعت آينور عن زيارة بيت سعيد أفندي السعرتي مدّة أسبوع، لانشغالها بالانتقال إلى بيت البهجة الذي يتوسّط بيتي المتعة والرغبة. شعرت في الأيّام الأولى بالضيق لبُعدها عن دجلة، وانتابتها الكثير من الكوابيس، وبدا الحزن والتردّد على شبح رودولف العاري. كان عضوه غير منتصب، وكلما حاولت أن تكلمه انشغل عنها بعدِّ أصابع يده اليسرى.

تلقت آينور من جيرانها، مدّة ثلاثة أيّام، طعاماً يكفي كتيبة مشاة، وزارتها شكيبة هانم، وابنتها جليلة، وسبع نساء من حيّ الخاتونية. جئن محمّلات بأنواع الحلويات والمعجنات، وحتى لا يحرجن آينور التي لم تعرف ما عليها القيام به، شكّلن حلقة رقص وغناء، سرعان ما جذبت إليها نساء الزقاق المسيحيّات. تناوبت الأصوات منشدة بالعربية، والتركية، والسريانية على قرع الطناجر والصواني، واشتدّت ارتعاشات الرقص مع انضمام بريتا التي أثارت الضحك بحركاتها العشوائية، إلّا أنّ هذا الفرح انقلب فجأة إلى صراخ، وعويل، وفوضى هروب، وكأنَّ قذيفة هاوتزر سقطت وسطهنّ، فقد خرج تابور من المطبخ، وهو يأكل من كرة قرنبيط كبيرة يحملها على كفه، وراح يدور حول نفسه راقصاً.

انسحب الجيش من المدينة، وأخذت مدافع «إيج قلعة» تطلق نيرانها ابتهاجاً بتسلّم الوالي الجديد حكم الولاية، وظهرت المهترخانة عازفة ألحانها السعيدة. وبينما كانت السرايا تزدحم بالمهنّئين، خلا مقهى كاندريان ليومين من الإنكليز، وباتت الحركة في خان

خواجة أحمد ضعيفة. باشر شاؤول جلعادي ببناء المتجر بجوار جامع الأغوات، وأكمل إجراءات تسجيل شركة رودولف، واستأجر مكتباً في حيّ جامع النوري بجوار بناية شركة Levant Company الإنكليزية التي تصدّر للموصل أقمشة مانشستر، وهدرسفيلد، والنحاس، والقصدير، وتشتري منها الحرير الخام، والقطن، والصمغ، والبندق. كانت آينور تُفاجأ بمعرفة شاؤول لكلّ دوافعها، وكان هو، حين يقتنع بصوابية توجيهاتها، يستجيب لها بسرعة. وعندما سألته إن كان يعرف لماذا اختارت شركة Levant Company لتجاورها، ردَّ بأنَّ السير هنري هانسفورد يملك خمسة بالمئة من أسهمها، وهذا يجعل شركة رودولف بمنأى عن الحوادث المفتعلة. أقلق شاؤول جلعادي الإنكليز والفرنسيين، فهو بلا تاريخ، وأقصى ما توصّلوا إليه أنّه اشتغل بقسم التجليد بمطبعة الآباء الدومينيكان. كان فيكتور دولاباس من أشدّ المعجبين به، ويرى أنّ بإمكانه، إذا ما عُيّن وزيراً للمالية، إنقاذ الدولة العثمانية من الانهيار. أمّا السير هنري هانسفورد، فقد سأل شاؤول ثلاث مرّات إن كان عاش في لندن، وكلّما نفى ذلك بارتباك، والتفّ على نفسه كقنفذ، كان يقول له ضاحكاً:

– لا تتوقع أن يطول هروبك من The London Society for Promoting Christianity Among Jews.

لم يعط شاؤول جلعادي لآينور، طوال عمله معها، أيّ إشارة تخصّ طبيعة ارتباطاته بتشكيلات يلدز الاستخباراتية، كما لم يكن يقدّم نصائحه إليها مشفوعة بالتلميحات، ويوم أخبرته أنّها مستغربة من فشل مشروع نقل المدبغة والمسلخ، وتخشى أن تكون تصرّفت بحماقة أزعجت السلطان عبد الحميد، قال لها، متجنّباً النظر في عينيها، إنّ المشروع لم يفشل ما دام الإنكليز اطمأنّوا إلى أنّها لا تملك أيّ سلطة لفرض رغبتها على الوالي.

دفع اكتمال بناء المصنع، وتأسيس شركة رودولف، آينور هانز إلى تعديل الكثير من الارتباطات، فضاعفت أجر شاؤول جلعادي، وكروغر هايس، واشترت أربع عربات، وثمانية أحصنة، ووظفت حرّاساً للمصنع والشركة من الأكراد، وألزمتهم بارتداء زيّ أزرق اللون أنجزه لها تاجر القماش حسين الطاهر، كما حصل شاؤول من الكتخدا على إجازة حمل السلاح للحرّاس، بعدما رفضت قيادة الجندرمة منحها، وطلبت اعتماد حرّاس من القبائل العربية الموالية للسلطان. وبما أنَّ خادمتها بريتا لم تعد مرتبطة بالشرطة السرّية الألمانية كما أخبرتها تشكيلات يلدز الاستخباراتية قبل مغادرتها لندن بيوم، فقد فتحت لها حساباً في البنك الإمبراطوري العثماني، ومنحتها حق إدارة الإنفاق على بيت البهجة. وحين طلبت من شاؤول جلعادي أن يجد لها مترجماً بديلاً منه يرافقها في مقهى كاندريان، ردَّ مبتسماً وهو ينظر إلى الأرض عاصراً أصابعه بأنّه مستعدّ للتخلّي عن أجر الترجمة لقاء بقائه بجوارها عند جلوسها مع الإنكليز.

***

نصح سعيد أفندي السعرتي آينور باستغلال صفاء الأسابيع الأولى من حكم ناظم بك، ومقابلته من أجل المدبغة والمسلخ، فالولاة لا يشكرون الله على فضله لأكثر من شهر، وبعدها ينسون حتى أمّهاتهم. أمّا كروغر هايس، فقد نبّهها إلى ضرورة التمسّك بالأعراف، وعدم زيادة الرشوة عن نصف مرتّب، لكنّ آينور تجاهلت الأمر لأنَّ قضيب رودولف لم ينتصب بعد، وكان هذا يعني لها فألاً سيّئاً.

أنهكت كآبة رودولف الشبحية آينور، وجعلتها غير قادرة على التجاوب مع التبدّلات، ولا على ضبط انفعالاتها. كانت مدافع «إيج قلعة» الاحتفالية تُسمع في حيّ النصارى بصوت مخيف، وروائح

البصل والثوم تهبط عليها في حوش بيت البهجة ثلاث مرّات في اليوم. كانت العربية التي تسمعها من المسيحيات مختلفة عن تلك التي في الخاتونية، ولا أحد هنا يتكلم التركية، وأكثر ما كان يضايقها، هو حديث المسنّات بالسريانية، وميل المراهقات إلى اختبار فرنسيتهنّ الجديدة معها. لم تأمن مزاجها، رغم أنّها في أوقات كثيرة تشعر بأنّ روحها متوافقة مع بساطة الحياة هنا. أرسلت بريتا إلى شكيبة هانم كي تتعلم عمل الكبّة، والمجدّرة، والكشكا، حتى تنتهي واجبات تبادل الطعام المجنونة، وكتبت تلغرافاً إلى أمّها يقول «اشتقت لجفاف قلبك».

كانت نوبات البكاء التي تصيب آينور ليلاً ترعب بريتا وتسلبها نشوتها بعرق بعشيقة. لم تؤثّث بيتها بما تتطلبه البهجة، كي لا تجرح قناعات صديقاتها الموصليات بالحياة المعتدلة. ارتخاءاتها لا تحدث إلّا فجراً حين تتنفس رائحة نهر دجلة عند باب الجسر. كان فمها يذبل، وتبدو غائبة، ومحشوّة بأنين مكتوم، حين تحنُّ لذلك التقديس الذي يكنّه لها رودولف. تدوّخها اشتياقاتها إلى تخاريف كلماته، وإلى وثنية حبّه لها. إلى تلك الاعتقادات التي تخلع عنها دنيويتها، وتجعلها ملكة بحق.

لم تخرج آينور هانز يوم الاثنين من البيت. أعطت إجازة للجميع، وأرسلت بريتا إلى مصنع الجوارب لتتفقّد كروغر هايس. أمرتها في المساء أن تجلب قنّينة العرق البعشيقي وتأتي إلى غرفتها. أعدّت بريتا طبقاً من لحم الخروف المشويّ، وهي قلقة من أنَّ سيّدتها قد لا تستوعب العرق من الكأس الأولى. جلستا على الأرض بين مسند أقدام السرير وخزانة الثياب. كان منظرهما المنعكس في المرآة يثير استغرابهما، ويعمّق فيهما الحزن. لم تحترم آينور مشروب العرق لأنّه

مراوغ، وغشّاش، ومتلوّن، ولأنّ رودولف كان يقول إنّ أيّ مشروب يحتاج إلى إضافة الماء ليس من صنع الآلهة.

قالت آينور وهي تنظر إلى خادمتها عبر المرآة:

– لا يبدو عليك أنّك ألمانية.

ردّت بريتا وهي تغطّي فمها بكفّها:

– وأنت أيضاً يا سيّدتي.

سألتها آينور:

– لماذا قبلتِ بالمجيء معي إلى هنا.. هل خدعك رجل، وأردتِ الهرب؟

أجابت بصوت ثقيل:

– الرجال حمقى.. الذي يخدعنا حقاً هو عقلنا.

أكملت شرب كأسها، وقالت:

– كنت أعمل في الشرطة السرّية الألمانية.. في لندن أبلغوني أنّ مهمّتي معك انتهت، فقلت لهم إنّ مهمّتي معكم هي التي انتهت. أكملنا الرحلة إلى بورتسموث، ومن هناك أبحرنا على برابو الهولندية إلى البصرة. فعلتُ هذا لأنّك تستحقين أن أكون معك. جميل أن نقوم بمعجزة ما. كلّ الذين لا يكون بمقدورهم فعل شيء لأنفسهم، استطاعوا في النهاية تغيير حياة الآخرين.. هذه هي موهبة الملائكة والأنبياء، وحين تتخلّين عنّي سيكون معي الكثير من المال لأعود به إلى هامبورغ، وهناك سأفتح حانة للعرق البعشيقي، ومطعماً للكبّة الموصلية.

– العشرون من تشرين الثاني.. هذا هو تاريخ اليوم.

تساءلت بريتا:

– وماذا يعني هذا؟

أجابتها وهي تضيف الماء إلى كأس العرق الثانية:
– لا شيء.

***

تعاطف الجميع مع كآبة آينور حتى إنّ السير هنري هانسفورد بات ودوداً، ومقدّراً قسوة ما تكابده من أجل أن تستمرّ، على ضحالتها. توقف عن السخرية منها، وأخذ يمتنع عن تدخين الغليون بحضورها في مقهى كاندريان كي لا يترقرق في عينيها القطيّتين بلل الشجن. قال لها مشجّعاً:

– لا يصحّ أن تكوني هشّة وضعيفة، كلّ الحضارات وأوروبا معها، تأسّست بالقسوة، والعنف، والدماء. لقد قتلنا آلاف البشر من أجل أن نصنع القماش الإنكليزي الفاخر، وقطّعنا آلاف الأصابع لنسّاجين هنود، وبنغال، كي لا ينافسونا على النعومة. كوني قويّة يا آنسة من أجل ألمانيا.. قاسية، وعنيفة، فأوروبا ستكون لطيفة ومسالمة بعد مئة عام، أمّا الآن فعلينا أن نكون بقلوب حجرية.

اضطرّت بريتا إلى أن تكون صلبة فمنعت شاؤول جلعادي وكروغر هايس من التمادي في البرود، وأجبرتهما على الوفاء بعهد الأسرة الواحدة. اجتمعوا عصر الأربعاء في الحوش، حتى إنّ شاؤول قاوم خوفه، وأخذ ينظر إلى تابور الحبشي بابتسامة نابتة من القلب. أمّا كروغر فقد ظهر معطراً بماء الكولونيا، ونظيف الملابس، وبين الحين والآخر يمسّد شعره بالاتّجاه الذي مشطته بريتا.

أنهى شاؤول شرب قهوته، وقال بصوت ظنّه مسموعاً للجميع:

– اليوم يا هانم تلقينا دعوة من السرايا باسمكم لحضور اجتماع الجاليات السنوي يوم غدٍ الخميس الساعة العاشرة صباحاً.

أعطت فنجانها لبريتا، وأخذت نفساً عميقاً، وقالت:

– نحن صناعيون الآن يا سيد جلعادي.. إذا رغب تابور الحبشي بتمثيل نفسه في الاجتماع، فلا مانع لديّ.. أريدك أن توظف ثلاثة مساعدين، أو أربعة، وترسل شخصاً تثق بعينيه وحسّه إلى كركوك والسليمانية. علينا معرفة ما هي البضائع الروسية التي تلقى رواجاً في الأسواق هناك، وجد لنا وكلاء مبيعات في النجف، وكربلاء، والبصرة.

التفتت آينور إلى كروغر هايس، وسألته عن موعد بدء مصنع الجوارب بالعمل، فردَّ بأنّه يحتاج إلى أسبوعين كي يبدأ التشغيل التجريبي. أثنت على مظهره، فأخفت بريتا ضحكتها بكفّها. انتظرت آينور حتى جذبت جدّيتها انتباه الجميع، وقالت:

– اليوم فجراً رأيت رودولف في المنام. دخل غرفتي وهو عارٍ تماماً، وغاضب، ولكنّه يحمل فألاً حسناً. قال لي: لقد أعطوني في الجنّة ورقة توت يا آينور.. ماذا يظنّون.. هل عضوي دودة قز؟

نظرت إلى كروغر الذي بدا مصدوماً من كلامها، وتابعت:

– اختر من مدرسة الصنايع في الموصل من تجده مؤهّلاً للعمل على الماكينات، علمهم جيداً يا سيد هايس، وفكر كيف نجعل هذه المدينة تستعيد مجد نسيج الموسلين العظيم، وابذل أقصى جهد لاختصار الوقت، لأنني سأرسلك إلى ألمانيا في مهمّة سريعة.

فاكهة العشق

تملّكتها رعشة هادئة وهي تستنشق رائحة نهر دجلة، وترنو بغشاوة إلى الأفق الملوّن. غيَّبها الارتخاء عمّا حولها بينما الوهن أخذ يتصاعد في ساقيها بعد وقوفها الطويل على رصيف جامع الأغوات. كانت قد مرّت ساعة على صلاة فجر السبت، ولم تفتح الجندرمة باب الجسر لأنَّ محصّل الرسوم لم يصل بعد، لذلك عاد الكثير من القرويين وعمّال البناء إلى القناطر الحجرية عند منتصف النهر، خشية ألّا تحتمل القوارب الخشبية ثقلهم.

فتحت آينور عينيها منتبهة إلى صوت استغاثة مخنوق أتاها من جهة متجرها حيث كان قد باشر عدد قليل من العمّال بنقل الأخشاب، ورفع كسر الأحجار:

– آينور هانم.. أنا خليل آغا رسول الوالي.

وجدت تابور الحبشي يعصر على صدره رجلاً قصير القامة، وقد وضع خنجره الأحدب الطويل على رقبته بينما الرجل الذي سقط عنه طربوشه يرفس الهواء وهو محتقن الوجه، وغير قادر على أخذ أنفاسه. أمرت تابور بتركه، والرعب يتملكها. التقطت من الأرض طربوشه،

وهي تعتذر بالتركية. أخذ خليل آغا يتفحّص رقبته، وقد تعرّق جبينه. قال وهو يلهث، مدارياً حرجه بنفض التراب عن طربوشه:

– آينور هانم. الوالي ناظم بك يريد مقابلتك فوراً. أرجو منكِ أن تتبعيني بمفردكِ.. سنستخدم المدخل الخلفي للسرايا.. من فضلك.. اتبعيني بعد دقيقة.

تذكّرت متاهات قصر دولمة باهجة وهي تلحق بالرجل القصير. أبراج السور الخلفي كانت خالية من الحرّاس. تنفست رائحة خشب مبلّل قبل دخولها السرايا. لم تصادف أيّ شخص غير مرشدها، وحين أوصلها إلى الباحة الداخليّة المضاءة بالشموع، طلب منها ارتقاء الدرج إلى أوطة الوالي. اضطرّت إلى التوقف في المنتصف شاعرة بوخزات في أضلاعها اليسرى. وضعت يدها على صدرها، وتابعت بتمهّل. استقبلها ناظم بك بزيّه الرسمي عند الباب. انحنى بوقفة عسكرية، وقبّل يدها. استدرجها بإشارة من يده إلى جهة الشمعدان الأرضي الكبير المضاء، فبدت الأوطة لها وقد تخلصت من قباحة الذوق. نظر الوالي إليها مبتسماً ثمّ سلمها ورقة صغيرة ملفوفة، وتراجع خطوة. فتحتها آينور وقلبها يدقّ بقوة، وقرأت بالخطّ الأحمر عبارة: رودولف العظيم.

اختلّ توازنها، وسخنت خطوط كفّيها. اعتذرت وهي تشعر بقوة نبض قلبها، وحاجتها للهواء. أمسك الوالي بمرفقها داعياً إيّاها إلى الجلوس قرب المكتب. كان في الثلاثين من العمر، رشيقاً وخفيف الشارب، ملامحه نقيّة، لم تقربها المشقّة. زيّه العسكري الأسود المذهّب الأزرار الخاصّ بالوزراء، يخلو من الرّتب والنياشين. قال وهو يقف أمامها مُعَزّزاً برائحة دهن العود:

– آينور هانم.. لقد ولّاني السلطان على الموصل كي أكون بخدمتك. سأبقى هنا مدّة ثلاثة أشهر فقط، وبعدها يعزلني.. آينور

هانم.. أنقل إليكِ مباركة مولانا السلطان المعظّم، وشكره لك، وهو يبلغك رضاه التام.

ارتجفت ملامحها قبل أن يغلبها البكاء، فعاد الوالي ليقول بالألمانية وصوته أكثر ارتخاءً:

– آنسة هانز.. الحاكم الفعلي للولاية هو أنتِ.. وجودي هنا بأمر مولانا السلطان من أجل طاعتكِ وتنفيذ توجيهاتكِ.

سكت الوالي ريثما تتمالك آينور نفسها. ذهب إلى زاوية الباب، وأشعل المزيد من الشموع. أبقى وجهه إلى الجدار حتى قالت:

– أشكركم ناظم بك.

عاد بخطوات مسترخية ليقف أمامها قائلاً:

– في الغد سنباشر بنقل المدبغة والمسلخ إلى المكان الجديد، ولن تُفرض أيّ رسوم، وسنوفر وسائط نقل للّحوم والجلود، ومولانا السلطان منحكِ حق التصرّف بأرض باب الطوب.

وحين رأى تفتّح وجهها عاد ليقول:

– تريّثُنا حصل بسبب توصية قدّمتها تشكيلات يلدز الاستخباراتية، فقد كنتِ مندفعة بهمّة عالية وبسرعة، وهذا ما تخوَّفت منه تشكيلاتنا. السير هنري هانسفورد تدخل عند الوالي حازم بك لمنع نقل المدبغة والمسلخ. فعل ذلك ليعرف إلى أيّ مدى يمكنكِ الوصول. وكان لا بدَّ من إطلاق إرادته حتى لا تظهري أمام الإنكليز أنّك تملكين خطّة مسبَّقة ومدعومة من الباب العالي، ونحن لم نبلغك بشيء كي تبدو الخيبة واضحة عليك.

نظرت آينور إليه وعلى وجهها ابتسامة مرتجفة، فتابع الوالي:

– كلّ الموصل تحت أمرك الآن.. لقد أرسل مولانا السلطان معي مبلغ مليون قرش لدعم شركتك. هذا المال هو الدفعة الأخيرة، ومولانا السلطان يطلب منكِ عدم إيداعه في البنك. أمّا في ما يخص

ما تنوين فعله هنا من مشاريع كبيرة، فسوف ينفق عليها من ميزانية اسطنبول. لا تتبرّعي لبلدية الموصل بأيّ قرش.

قالت بصوتٍ مرتبك:

– الموصل بحاجة إلى سوق جديدة بمواصفات أوروبية تكون مخصّصة للبضائع الألمانية فقط. باب الطوب هو المكان المناسب، وأنا سأرسل السيد كروغر هايس إلى برلين كي يتعاقد مع الشركات الكبيرة.. شركة رودولف ستتخصّص باستيراد المصنوعات الاستهلاكية ولوازم الخياطة.. علينا أيضاً الاهتمام بزراعة القطن.. أفكّر بإعادة مجد قماش الموسلين، وبناء مستشفى الغرباء، وتطوير مدرسة الصنايع في الموصل.

قال الوالي بحذر:

– أظنّ أنّ اسم المستشفى سيزعج مولانا السلطان.

– ألأنّه الاسم الذي اختاره مدحت باشا؟

– نعم.

– قولوا لمولانا السلطان إنَّ آينور تحبُّ هذا الاسم ومتمسّكة به.

هز الوالي رأسه موافقاً، ثمّ غيّر مكان وقوفه قائلاً:

– قبل شهر تقريباً وصل إلى الموصل خمسة تجّار من حلب. هؤلاء سيتصلون بك على فترات متباعدة. يمكنك الاعتماد عليهم لإنجاح سوق باب الطوب. وجودهم سيشجّع تجّار الموصل ويرغّبهم بالبضائع الألمانية التي ستستوردها شركتك. السيد شاؤول جلعادي على علم بهذا وهو على تواصل معهم.

غيّر الوالي نبرته قائلاً:

– لقد خصّصنا ضابط ارتباط مهمّته أن يكون وسيلة اتصال بينك وبين القنصلية الألمانية في بغداد. إنّه مكلّف بنقل رسائلك إلى أيّ

جهة ألمانية ترغبين في مخاطبتها. سيتّصل بك في الغد ليكون تحت أمرك. السيد جلعادي سيجعل كلّ تعاملات شركة رودولف مكشوفة للإنكليز. إذا لاحظتِ أيّ مراقبة حولك، فاعرفي أنّها تشكيلات يلدز الاستخباراتية. هناك حرّاس يتابعونك، في الخفاء، أثناء تنقلاتك. نظام حمايتك يشبه تماماً نظام حماية مولانا السلطان.

استعاد وجهها ألقه وهي تنظر إلى الوالي:

– الموصل يجب أن تكون نظيفة حضرة الوالي.. الازدهار يتطلب الجمال. أريد زراعة الكثير من الأشجار والاهتمام بشارع الكورنيش.

قال ناظم بك وهو ينظر إلى ساعة جيب:

– أرجو تدوين أوامرك بحسب الأولوية كي يتسنّى لي تنفيذها.

قالت والفرح على وجهها:

– سأفعل.. لن أبالغ.. الكثير من الأفكار تخطر ببالي لكنّني لا أطلقها من فمي.

تفاعل الوالي معها بابتسامة بلهاء، وتشجّع قائلاً:

– مولانا السلطان شديد الإعجاب بما أنجزتِه.. لقد كلفني أن أبلغك بهذا.. هو سعيد بكِ آنسة هانز.

شكرته بخجل، ثمّ سألته:

– هل يمكنني الوثوق بحسين الطاهر؟

– هو عضو في جمعية العِلم، ويعمل لمصلحة الروس والإنكليز معاً. إنّه المصدر الأكبر للمعلومات، وعيونه من النساء. ينقل إلى الإنكليز تصوّراته عن أحلامكِ، وتطلعاتكِ ولكن إلى الآن لا يشكّل خطراً عليك.. في الحقيقة، نحن لا نعرف إن كان أوصل إلى الروس شيئاً عنكِ.. هو تحت المراقبة الشديدة. المهمّ أنّ جمعية العِلم لا تحرّض

على العصيان، ولم تعلن عن نفسها بعد، ومولانا السلطان لا يراها معادية.

عاد ليقول بارتباك:

– لديك خمس دقائق لمغادرة السرايا آنسة هانز..

أومأت آينور برأسها، فقال الوالي وهو يدنو منها خطوة:

– بعد غدٍ الاثنين سيعلن مولانا السلطان عبد الحميد الثاني منح امتياز سكّة حديد قونيّة بغداد لشركة الأناضول الألمانية وهو الجزء المتّصل بالأراضي العثمانية من مشروع سكّة حديد برلين بغداد.. يوصيك مولانا السلطان بعدم إظهار أيّ نوع من المشاعر. من يوم الاثنين سيتعامل الإنكليز معكِ بطريقة أخرى، وسيظهر السير هنري هانسفورد الكثير من العدائية. هناك عناصر من تشكيلات يلدز الاستخباراتية مدرّبة على أعلى مستوى وصلت إلى هنا لحمايتك. لا تقلقي إذا وجدت جيراناً جدداً في حيّ النصارى، ولا تخافي إذا رأيتِ وجوهاً غير مألوفة في مقهى كاندريان. منذ زيارة الإمبراطور فيلهلم الثاني إلى إسطنبول والتوتر على أشدّه بين الألمان والإنكليز في بغداد والبصرة. المصالح الألمانية تتعرّض لاستهدافات كثيرة، لكنّ الجيد هو أنّ السير هنري يواجه معارضة شديدة في قنصلية بلده، وخياراته الشخصية ضيّقة، رغم أنّنا لا نعرف إن كان هذا الأمر سيستمرّ أم لا. ما أقصده هو أنّ الإنكليز لديهم أسلوبهم في التعامل مع الأزمات، ولكن إعلان منح امتياز سكّة حديد قونيّة بغداد لشركة الأناضول الألمانية قد يدفعهم إلى الجنون.

سألته بملامح راكدة:

– لماذا تبقون لثلاثة أشهر فقط؟

ردَّ بصوت خامل:

– الإنكليز والفرنسيّون لن يسكتوا عن عزل حازم بك، وستقوم ثورات، ويحدث تمرّد، وأنا لا قدرة لي على مواجهة هذا.

ابتسم وهو يقول:

– آنسة هانز.. لقد أرسل لكِ السلطان المعظم معي بانيو الإمبراطور فيلهلم الثاني، وكمّية كبيرة من الأجبان الألمانية المعتَّقة التي تحبّينها، وهناك رسالة من أمّك السيّدة ناريمان.

سكت ثمّ نظر إلى الأرض قائلاً:

– مولانا السلطان أنعم عليكِ بأنواعٍ عدّة من الصابون الذي صُنع من أندر المكوّنات، وأغلى العطور، ويقول إنّه لا امرأة على الأرض استخدمته قبلك، وأرسل إليكِ أيضاً صندوقاً يحتوي على فاكهة العشق.

تمالكت آينور نفسها وهي تطلب من ناظم بك نقل شكرها إلى السلطان، ثمّ غلبت تأثرها قائلة:

– ألمانيتك جيدة جداً حضرة الوالي.

ابتسم قائلاً:

– أنا أعيش في توبنغن.

وحين نظرت إليه بدهشة، عاد ليقول:

– أنا من يضع الزهور على قبر رودولف.

الموصل

ربيع 1902

سوق الألمان

جعلت آينور هانز الموصل تبدو كمدينة مريبة، فبينما وجوه الناس متغضّنة بالتعب، والطرقات مسنّنة بمتيبّسات الطين، ومختنقة بالغبار، ومنظر خرائب السور جنوباً وغرباً يعجّل بالسأم، والفضاء مسموم بغيوم الذباب والروائح الراقدة، كان متجر رودولف للملبوسات في شارع الكورنيش، وسوق الألمان في باب الطوب، يشيعان الترفّع، ويبدوان كعلامتين على لعنة قادمة.

ما إن عُيّن نوري باشا والياً على الموصل عام 1901 حتى أعلنت السرايا، في احتفال مهيب، عن تبرّع راعي المسلمين في العالم، والغيور على الجامعة الإسلامية، الإمبراطور الألماني فيلهلم الثاني، لبناء مستشفى وسوق في مدينة الموصل، وقد فوّضت القنصلية الألمانية في بغداد إلى شركة رودولف الإشراف على تنفيذ المشروعين. خيَّم الكسل على الأسواق لأسابيع، وغابت الحركة عن خان خواجة أحمد مع اختفاء الإنكليز، وظهورهم يوم الاثنين فقط من كلّ أسبوع. كان السير هنري هانسفورد، على عكس ما توقعت تشكيلات يلدز الاستخباراتية، يتودّد لآينور هانز، ويظهر لطفه وكرمه، فعند افتتاح مصنع رودولف للجوارب، أهدى لها ساعة منضدية

ذهبية على شكل فيل صُنع بدنها في الهند، ويوم تدشين متجر الكورنيش أرسل إليها أنواعاً عدّة من النبيذ الفرنسي في صندوق عليه علامة متجر نيكولاس الباريسي، وجعل ذلك تقليداً شهرياً. لم تكن حواراتهما في مقهى كاندريان تتعدّى الروح المرحة، وتقبّلت آينور بكثير من التفهّم الطاقة الساخرة التي يجتهد السير هنري هانسفورد في إظهارها مع الويسكي. كانت آينور، ما إن تدخل الجناح الأوروبي في مقهى كاندريان، وتخلع البوشية والإزار حتى يقف الإنكليز لتحيّتها بحركة موحّدة، فيرفعون بنطلوناتهم عن كواحلهم، ويصيحون بالعربية «كلنا نرتدي جوارب رودولف». وهي عبارة الإعلان الذي طبعته آينور على قماشة مؤطرة بالترتر الأصفر يظهر عليها رسم ثلاثة أفندية يرفعون بنطلوناتهم، وملأت به مقاهي الموصل وحاناتها. لم يخفِ السير هنري هانسفورد عن آينور هانز اعتقاده بأنّها طرف في قضيّة سكّة حديد برلين بغداد، ولكنّه أوحى إليها أنّه يراها مسلّية، وغير خطرة. وحين التقيا في المقهى، بعد مرور أسبوع على بيان السلطان عبد الحميد الثاني، قدَّم لها نسخة من جريدة «موصل» التي نشرت خبر منح امتياز سكّة حديد قونيّة بغداد لشركة الأناضول الألمانية، ثمّ قال وهو يمسح بإبهامه نقشة الأسد على غطاء ساعته:

– لقد ارتكب السلطان خطأ حياته الأكبر.. ما يزعجني في الأمر أنّ علينا بذل الكثير من الجهد السخيف كي نمنع الروس من احتلال الموصل.

أرادت آينور أن تكون غير مكترثة، فقالت وهي تلفّ الجريدة وتربّت بها على ركبتها:

– إنّه لا يملك الخيار.

ردّ السير هنري بتوتر:

– لقد نصحناه بألّا يرتكب هذه الحماقة. فيلهلم المتهوّر يعتقد أنّه إذا قامت الحرب الكبرى وهو حليف للمسلمين فإنهم سيعلنون الجهاد ضدّنا ويكسب الحرب. ماذا يظنّ إمبراطورك؟ نحن لا نلعب الكريكيت هنا.

لم يستجب السير هنري هانسفورد لدعوات الوالي نوري باشا المتكرّرة لعقد اجتماع يبحث الوضع التجاري، وأعلن البنك الإمبراطوري العثماني تعليق القروض، وتوقف الصيارفة اليهود عن قبول صكوك الآجل. ورغم أنّ آينور كانت قلقة من تذمّر تجّار الصوف والجلود لتراجع التصدير إلى لندن، دفعها انخفاض الطلب على الحرير، والصمغ، والبندق، والخيول، إلى حثّ الوالي على مخاطبة القنصلية الإنكليزية في بغداد من أجل ترشيح ممثّل عنها لمناقشة تراجع التجارة بين الموصل ولندن. وحين أتت الموافقة من القنصلية رفض السير هنري هانسفورد مشاركة رئيس غرفة التجارة محمد باشا الصابونجي في الاجتماع، وطلب حضور آينور هانز، ومترجمها السيد جلعادي.

كان الوالي نوري باشا في الستين، تحرجه بدانته بقدر ما يشعر بالعار من عدم اكتراث مجلس الولاية بمأزق أن يفشل التجّار في تسديد ديونهم للدولة. لم يكن أكثر من مساعديه فطنة، ولكنّه قرّب إليه آينور لاعتقاده بأنّها يمكن أن تمنحه الحماية، مستلهماً هذا من العناية الغامضة التي كان ناظم بك يوليها لها. وضعت في أوطة الوالي طاولة مستديرة صغيرة بطلب من السير هنري هانسفورد، وجرى الاجتماع في الساعة الرابعة عصراً. خلعت آينور البوشية، والإزار، وجلست قبالة نائب القنصل الإنكليزي. حاول الوالي أن يكون ودوداً إلّا أنّ السير هنري هانسفورد أبدى صرامة في توفير الوقت، وأوضح لنوري باشا الذي يجلس إلى يمينه، أنّ ما جرى من تقليص للتعامل

التجاري بين الموصل ولندن متعمّد لأنّ المصالح الإنكليزية مهدّدة، والدولة العثمانية خرقت معاهدة 1838 التجارية، وأنّ التجّار الإنكليز مستمرّون في خفض التعامل التجاري، وأنّه لا يستبعد أن تتأثّر صادرات الموصل إلى القاهرة وبيروت، إذا استمرّت الدولة العثمانية في خرق المعاهدة. استنجدت نظرات الوالي بآينور، فتساءل السير هنري هانسفورد وهو ينظر إليها بعينين محتقنتين:

– ما عدد متاجر سوق الألمان في باب الطوب؟

ردّ شاؤول جلعادي بصوتٍ خافت بعدما ترجم السؤال إلى التركية:

– خمسون.

– يجب ألّا تزيد على خمسة وعشرين متجراً، وتُمنح لتجّار محليّين لهم سجلّات في غرفة تجارة الموصل، وعليكم إضافة حمّامات تركية، ومقاهٍ للمبنى، ويُمنع بيع الأقمشة، أو الغزول في هذه السوق.

فكّ الوالي تشابك أصابعه عن بطنه قائلاً بالتركية:

– لقد صادق مجلس الولاية على خريطة السوق المقدّمة من القنصلية الألمانية.. لا نملك الحق في التغيير.

وجّه السير هنري كلامه إلى شاؤول جلعادي:

– أبلغه أنّك ستتكفل بالأمر.

تساءلت آينور بالعربية وجبينها متعرّق:

– وماذا بعد سيد هانسفورد؟

– على ألمانيا سحب خبراء زراعة القطن من سنجار، وبرطلة، وعدم الإقدام مستقبلاً على التبرّع لبناء جسر حديدي على دجلة.

قالت آينور وعلامات الصدمة على وجهها:

– خبراء زراعة القطن يعملون وفق اتفاقية التعاون بين الإمبراطورية الألمانية والدولة العليّة..

قاطعها السير هنري قائلاً بالفرنسية:

– هذا غير صحيح.. لسنا في مقهى كاندريان فلا تتوقّعي منّي اللطف.. السكّير كروغر هايس جلب معه من ألمانيا سبعة من خبراء زراعة القطن. هؤلاء لم يدخلوا الموصل. ذهبوا إلى سنجار عبر الصحراء. أنت تريدين تطوير زراعة القطن في برطلة تحديداً من أجل نسج قماش الموسلين، وكروغر السكّير يعطي دروساً في مدرسة الصنايع من أجل التذكير بمجد الموصل، فلا تتوقعي منّا المزيد من السلوك الحسن. أنت حالمة، وأنا أشفق عليكِ، لأنّ هذا ليس عالمك يا عزيزتي. عليك قبول الحقيقة يا أرنبتي الجميلة، هنا لن يصنعوا شيئاً ولن يزرعوا، ما دامت النساء في البيوت، والرجال في المقاهي. نحن لم نبتر أصابع نسّاجي الموصل كما فعلنا مع البنغاليّين والهنود؛ دولة سلطانك، بجشعها وفسادها، هي التي دمّرت نسيج الموسلين بما تفرضه من ضرائب، وهجّرت الحرفيّين المهرة، وأجلستهم على الخوازيق بتهمة الكفر، وهذا يريحنا كثيراً. لقد ذهب زمن العبيد السود، عبيدنا الآن هم الأغبياء. لن تكون في الموصل صناعة نسيجية لا الآن ولا بعد ألف عام. لن نسمح لألمانيا بالوصول إلى بلاد ما بين النهرين. أنا أقول لك هذا لأنني لا أحب أن أراك معذّبة بالخيبات. وفّري أحلامك، فهذه البلاد لا تقدّر الأمل، ولا تحبّ الحياة.. عليكِ الاكتفاء بنسج الجوارب لنا، وترحيل الخبراء الألمان نهاية الأسبوع.

التفت السير هنري إلى الوالي وقال بالإنكليزية:

– أنتم تفرضون على إنتاج مصنع رودولف ضرائب مقدارها خمسة بالمئة لمرّة واحدة، بينما عليكم اعتبار جوارب رودولف مُنتَجاً محلياً لا أوروبياً، وهذا يستوجب أن تكون الضرائب اثني عشر بالمئة داخل الولاية وتتضاعف إلى ستة وثلاثين بالمئة إذا ما وصلت إلى البصرة.

قال شاؤول جلعادي بصوتٍ خافت:

– الآنسة آينور هانز مواطنة ألمانية، ويحق لها توظيف أموالها كمستثمرة أوروبية، والمصنع بأرضه ملك صرف لها، ولا توجد أيّ مساهمة من الدولة العثمانية في مشروعها الصناعي، لذلك لا يمكن عدُّ إنتاج مصنعها إنتاجاً محلياً.

– أعرف هذا يا سيد جلعادي، ولكنني لا أريد أن أرى المزيد من الألمان في الموصل.

تساءلت آينور بصوتٍ بارد:

– وماذا تعرف عن الجسر الحديدي؟

ابتسم السير هنري قائلاً:

– سكّة حديد برلين بغداد ستحتاج إلى جسر. الإمبراطور فيلهلم يريد تغيير طريق التجارة البرّي وهو يظنّ أنّه سيصل إلى عمق آسيا عن طريق بلاد فارس، ومعلوماتنا تشير إلى عزم ألمانيا على بناء الجسر في عام 1903 وهذا لن نقبل به أبداً. على العثمانيين والألمان التعهّد بعدم ارتكاب حماقات كهذه.

قالت آينور بتشنّج، وهي تشعر بالبرد في قدميها:

– لا تكلمني عن فيلهلم وطريق التجارة.. الناس هنا بحاجة إلى جسر. قف صباحاً عند النهر وانظر إليهم كيف يتعذبون عند عبورهم على القوارب المترنّحة. إنّهم يسقطون غرقى لأنّهم يحملون على أكتافهم أكثر ممّا يحتملون. لا علاقة لفيلهلم بهذا. أنا من اقترح فكرة الجسر على القنصلية، فلا تبالغ لطفاً.

قال الوالي بملامح قلقة:

– أنا لا أفهم كلامكم.

ضحك السير هنري ثمّ قال لشاؤول جلعادي:

– أبلغ هذا السمين أنّ معارضتنا لخط سكّة برلين بغداد هي حماية للموصل، توجد الآن ثلاث فرق روسية بالقرب من راوندوز. الجيش السادس لن يصمد في دفاعه عن المدينة.

احمرّ وجه الوالي وهو يسأل آينور:

– هل هذا صحيح يا هانم؟

تجاهلته آينور، فعاد ليسألها:

– لماذا لا تستورد برلين الجلود والصوف من الموصل ونحلّ هذه المشكلة؟

ردّ نائب القنصل مبتسماً:

– ألمانيا بلد الأبقار والخراف يا حضرة الوالي.

نهضت آينور مستندة بكفّيها إلى الطاولة، وقالت:

– سيد هانسفورد.. أنا من سيخرج النساء من بيوتهنّ وعندها لن يجلس الرجال في المقاهي.. هذا كلّ ما يخصّني من كلامك المشين، أمّا العبارات الأخرى فسوف يدوّنها السيد جلعادي وينقلها إلى قنصليتي في بغداد لتردّ عليك، وإيّاك يا سيّد هانسفورد أن ترسل لي النبيذ مرّة أخرى.

ارتدت آينور الإزار والبوشية بعصبية، فقال السير هنري بصوتٍ عالٍ وهو يلتفت مشيعاً خطواتها إلى الباب:

– لا تغضبي منّي يا أرنبتي الجميلة فكلنا نرتدي جوارب رودولف.

***

في الخامس عشر من آذار افتتح سعيد أفندي السعرتي وخمسة من أعضاء مجلسه البلدي سوق الألمان في باب الطوب. كان المبنى ينشطر إلى مستطيلين متقابلين تفصل بينهما حديقة مشجرة فيها

دكّات حجرية للاستراحة بينما أرضية الممشى مرصوفة بالبازلت الأسود. تمّ الاتفاق بين قنصليتي الألمان والإنكليز على أن تضمّ السوق أربعة وثلاثين متجراً، ستة منها تبيع الأقمشة الإنكليزية، مع تخصيص مساحة لمقهيين وحمّام تركي للرجال، كما ألزم الاتفاق آينور هانز بدفع ضريبة عشرة بالمئة لمرّة واحدة مع تعهّد بعدم الوصول إلى أسواق النفوذ الروسي في كركوك، والسليمانية، وأربيل. بدت سوق الألمان بمظهرها الحجري الأنيق، وأفاريزها المنسّقة، مثل جزيرة سحرية طفت فجأة وسط بحيرة طين، وهذا ما كان يبدو عليه أيضاً متجر رودولف على الجانب الشرقي من المدينة، فقد أزيلت أنقاض المباني القديمة إلى الجنوب من المتجر وحُوِّلت المساحة إلى حديقة بمساحة ألف متر مربّع، ورُصف طريق الكورنيش بالحجارة، وزُرعت حافاته بأشجار الأوكالبتوس. كان المتجر المتخصّص ببيع ملابس الأفندية بواجهته الزجاجية وأعماقه المغلفة بالخشب يوحي بالفخامة، وقد أوكلت آينور مهمّة إدارته إلى ترزي شركسي في الأربعين اسمه نارت جاء إلى الموصل مع التجّار الحلبيين، يتمتّع بحسّ عميق في الترغيب بالأناقة على النمط الأوروبي، وكانت تطلعاته تتنافر مع الطربوش، والعطور الشرقية، إلّا أنّه يبدي مهارة ناعمة من أجل الوصول إلى توافق ما مع الزبائن. صنع نارت هيبة كبيرة للمنتجات الألمانية، وتحديداً لحقيبة أدوات الحلاقة، وتشذيب الشعر، وأيضاً لربطات العنق الفراشية، ورغم أنّ السرايا كانت تحاسب موظفيها بشدّة على رخاوتهم إزاء قواعد الزيّ الهمايوني، لمح مجلس الولاية الفرق بين قدم بدلات الموظفين، وتخلّف قصّاتها مقارنة بما يرتديه أفندية جمعية العِلم الذين أظهرهم نارت، بالتصاميم الألمانية، كنخبة تستحق الاقتداء بها. ولأنَّ الماركات الألمانية صعبة القراءة والتلفّظ، لذلك صارت الملابس الرجالية تُعرف بالشعار، فاشتهرت بدلات الخروف الأحمر، والإبرة

الذهبية، وربطات الذبابة الخضراء. وإلى الغرب من متجر رودولف، كانت سوق الألمان منطقة تنزّه، واكتشاف، فقد جذبت متاجر العُدد اليدوية اهتمام الحرفيين، فكان ممثلو الشركات الألمانية يقدّمون عروضاً حيّة لاستخدام أنواع المناشير والمطارق ومبارد التنعيم في النجارة والحدادة، وتجربة آخر الصيحات في المسامير اللولبية، بينما جذبت متاجر الأدوات المنزلية النساء اللواتي أعجبن بتصاميم الطناجر ومجموعات السكاكين التي تباع في ملفوفة جلدية أنيقة. كان نارت هو الذي حقق لآينور فكرة الإعلانات حين أرشدها إلى رسّام فرنسي يدعى جان يسكن جبل العرب في الجنوب السوري، فكانت الإعلانات تصل من حلب مطبوعة بشكل جذّاب على قماش بحجمين، فتقوم جليلة السعرتي وفريقها البناتي بتطريز حافاتها بالترتر في بيت الرغبة لتُثبّت بعد ذلك على ألواح هرمية متنقلة توضع في سوق الألمان. أمّا الإعلانات الأصغر حجماً فكانت تُثبّت على الجدران في المقاهي والحانات.

***

انقطعت آينور عن مقهى كاندريان بعد اجتماع السرايا، ولم تستجب لدعوات معاون القنصل الفرنسي فيكتور دولاباس للقائها. فشلت محاولات شاؤول جلعادي لاعتماد مندوبين متجولين في القرى المسيحية لبيع الجوارب، فقد أخذت الكنائس تعظ بالابتعاد عن البضائع الألمانية مدّعية أنّها ملوّثة بالأمراض، وكانت تحثّ المؤمنين على عدم تصديق الأقاويل التي تزعم وجود مصنع نسيج في الموصل، وأنّ جوارب رودولف في الحقيقة تعود إلى جنود قتلوا في الحروب. أنكر فيكتور دولاباس أيّ علاقة لفرنسا بما تقوله الكنائس في السهل الشرقي، ولم يتلق شاؤول جلعادي أيّ ردّ من أبرشية الموصل على

عريضة الاستفسار التي قدّمها. ورغم اضطرار كروغر هايس إلى خفض الإنتاج كانت مبيعات متجر رودولف من الجوارب في تصاعد، والطلب عليها في سوق الألمان يزداد، واستطاع شاؤول جلعادي الحصول على دعم عائلة خلاصجي اليهودية لاعتماد وكلاء بيع في بغداد والفرات الأوسط، ما دفع آينور إلى التفكير بإضافة تطريزات إلى الجوارب لتكون مناسبة للنساء.

لم تخرج آينور هانز من بيت البهجة. بقيت ثلاثة أسابيع غير قادرة على مقابلة أحد، وكان تابور الذي بُنيت له غرفة في السطح يجلب احتياجات البيت مضاعفاً الطلب الأسبوعي على عرق بعشيقة. لم تنجح محاولات بريتا في إخراج سيّدتها من حزنها. كانت تترك لها قنّينة العرق وطبق اللحم المشويّ على الأرض قرب السرير وتغادر، لتسمعها بعد ساعة تتكلم مع رودولف بلوم وهي تبكي.

رفضت آينور هانز تنفيذ المذكرة الثانية المرسلة من القنصلية بشأن سحب خبراء القطن الألمان من أراضي الدولة العثمانية، وجاء التوضيح من بغداد أنّ هذا الأمر ليس مطلب الإنكليز وحدهم، وأنّ فرنسا وروسيا لوّحتا بعقوبات اقتصادية إذا استمرّت ألمانيا في مساعيها لاستعادة مجد قماش الموسلين. استدعت آينور شاؤول جلعادي إلى بيت البهجة. وقف أمامها في وسط الحوش منكمشاً مثل قنفذ خائف بينما هي على كرسيّ الخيزران. سألته بتوتّر:

– هل تراجعوا عن فكرة سكّة الحديد.. من الذي تخلى عنّي.. السلطان أم الإمبراطور؟

ردّ وهو يشبك أصابعه:

– لا أحد تخلّى عنك يا هانم.. خبراء القطن سيذهبون إلى ديار بكر وسينتظرون هدوء العاصفة. وافقي على طلب القنصلية، وأعيديهم أمام مرأى الإنكليز على الطريق نفسه الذي جاؤوا منه.

بقي بصرها معلّقاً بملامحه:

– إن كنت تعرف هذا، فلماذا تركتني أشرب يومياً بول الصراصير الذي تسمّيه بريتا عرق بعشيقة؟

***

بعد مضيّ شهر واحد على افتتاح سوق الألمان، احترقت ثلاثة متاجر تعود لتجّار حلبيّين، وتعرّض ألماني كان يروّج لعصّارة طماطم لطعن بالسكّين. ألقت شرطة الضبطية القبض على خمسة من المشتبه فيهم، ونشرت جريدة «موصل» بياناً لرئيس المفتشية أعلن فيه زيادة عدد حرّاس السوق، متوعّداً، في حال تكرار هذه الأعمال الإجرامية، بالردّ العنيف من الضبطية.

ضاعف شاؤول جلعادي عدد حرّاس شركة رودولف، وخصّص اثنين منهم لمتجر الكورنيش، وزوّد تابور الحبشي وبريتا بمسدّسين نوع لوجر. كانت جريدة «موصل» قد خصّصت صفحة أسبوعية لمتابعة أخبار المراحل الأولى من مدّ سكة الحديد بين قونية والموصل، وأخذت تنشر ترجمات عن صحف موسكو وبيتروغراد التي كانت تتخذ موقفاً معارضاً من سكّة الحديد، قبل أن تعد القرّاء بأنّها ستنشر في أعدادها التالية محاضر اجتماعات الضغط التي قادها الوزير المفوّض الروسي زينوفيف مع الباب العالي من أجل تغيير مسار سكّة الحديد من حدود أرمينيا إلى قونية لأنّ السكّة تشكل خطراً استراتيجياً على روسيا في القفقاس. كانت آينور في طريقها إلى أوطة الولي نوري باشا حين قابلت السير هنري هانسفورد نازلاً على الدرج. اعترض طريقها قائلاً:

– لقد طلبتُ من الوالي تـوّاً أن تكفّ جريدته عن ترويج السخافات، وإذا ما نُشرت محاضر زينوفيف فإن أزمة كبيرة ستقع.

ابتسمت آينور، وقالت بغنج:

– سأخبرك بسرّ وأرجـو أن تعتبر هـذا بمثابة الشكر على ما كنت ترسله لي من صناديق النبيذ. الدولة العثمانية لم تكن أبداً تنوي الاقتراب من حدود أرمينيا. لقد ابتكر السلطان عبد الحميد هذه القصّة من أجل أن يبرهن للروس ولكم أنّه متعاون ونواياه ليست عدائية. منذ البداية وقع الاختيار على قونية.

سألها وهو ينظر إلى صدرها:

– كيف عرفت؟

– الإمبراطورة أوغستا فيكتوريا أخبرتني بهذا حين كنت مكلفة من وكالة توماس كوك للسفر بمرافقتها في إسطنبول.

سراج آينور

تأخَّرَ شبحُ رودولف العاري قرابة السنة، قبل أن يلهم آينور التعديل الثاني على بيت المتعة. أتتها الفكرة من تلك التخيّلات المعارضة التي كان رودولف يقلل بها من شأن ما كانت تتعلمه في مدرسة التوليد في توبنغن. لم تكن تعجبه الرسوم التوضيحية للجهاز التناسلي الأنثوي التي كانت تعلقها في غرفة القراءة، فكان يرسمُ فوقها مشوّهاً الشروحات والمناطق المكبّرة، قائلاً لها إنّ الأشياء التي نتوصّل إلى يقين حاسم بشأنها تسبِّب لنا التعاسة لأنّنا سنتوقف عن تخيّلها. ألغت آينور المطبخ، وقلعت بلاطات الحوش التي تصلها الشمس ظهراً، وزرعت محلها شجرة كمثرى، وأنواعاً من الورد الظلّي. وحتى تزيل أيّ إحساس بالقلق، وتبعد التصوّر عن أيّ تشبيه طبّي يعوق الخيال، اشترت سجّاداً حريرياً من صناعة نيسابور غطّت به جدران غرفة الفحص، واختارت سجّادة حمراء من الصوف لتفرشها على تخت المعاينة. وحين بدأت جليلة السعرتي بمهمّة قيادة مجموعة من فتيات الخاتونية لتطريز الستائر بالترتر في بيت الرغبة قبل أن تخصّصه آينور بازاراً للملابس الداخلية النسائية، كان شبح رودولف العاري يشير بقضيبه الصلب إلى إلهام بعيد وغائم. مرّت أيّام وهي لا تفهم ذلك الرجاء الذي على

وجه رودولف بينما عضوه المعروق متّجه إلى مصدر الإنارة في غرفة نومها ببيت البهجة. كان كلّ شيء يبدو رتيباً وينذر بالمزيد من التشتّت بعد نكبات التسويق التي تعرّض لها مصنع الجوارب، وهبوط الطلب على الابتكارات الحديثة في سوق الألمان إثر فشل قشّارة الباذنجان، وآلة لفّ ورق العنب، في كسب ثقة النساء. كانت آينور في سوق الصفّارين تبحث عن وعاء تستعمله في تعقيم اليدين، حين وقع بصرها على سراج أسطواني مضلع من النحاس، له قلنسوة محفورة برسوم ورقية. وجدته يناديها بهمهمات متأوّهة ما جعلها تتوهّم أنّه غيّر مكانه كي يقع بصرها عليه. اشترته وهي طائرة من الفرح، وطلبت تطعيم محفوراته بالعقيق الرمّاني، والزمرّد الأخضر. وحين جاء به تابور الحبشي بعد أسبوع إلى بيت البهجة، كفّ عضو رودولف المعروق عن الانتصاب باتّجاه الضوء.

***

تعب الطبيب جرجس غزالة كثيراً حتى حصل من إدارة مستشفى ليجون على موافقة الإشراف الصحّي على نشاطات بيت المتعة الطبّية. كانت آينور قد رفضت تصنيفها كقابلة مأذونة، لذلك عادت لجنة طبابة البلدية باقتراح أن تتبنّى جهة رسمية مسؤولية منحها إجازة ممارسة الطبّ مع التكفّل بمراقبة العمل والتفتيش. أمضت آينور وقتاً عصيباً وهي تعاند كلّ الخرافات المحلية بشأن التوليد، واضطرّ الطبيب جرجس غزالة، بدون علمها، إلى حثّ معاون القنصل الفرنسي فيكتور دولاباس على التدخل لإنهاء مشقة سبعة وأربعين يوماً قضتها آينور وهي معذّبة بظنون راهبات التقدمة قبل أن تنجح في الاختبارات، وتنال إجازة ممارسة الطبّ.

استغرق تجهيز بيت المتعة بما يتطلبه العمل الطبّي قرابة الشهر، وقد أصرّت آينور على رفض زيارة راهبات التقدمة للكشف الموقعي، ما دفع سعيد أفندي السعرتي إلى استعمال صلاحياته من أجل أن تنسى لجنة طبابة البلدية آينور، وتهتمّ بوباء الكوليرا.

انتهى بيت المتعة إلى أن يكون بغرفتين فقط. الأولى مستطيلة وتحتوي على تخت، ومنضدة بقوائم طويلة للأدوات الطبّية، وخزانة حائط للأدوية، ومشجب خشبي لتعليق الملابس، أمّا الثانية فكانت واسعة إلّا أنّها لا تحتوي سوى على بانيو الإمبراطور فيلهلم اللازوردي المصمّم على شكل الحوت الأزرق، الذي وضعته آينور في المنتصف، ومن فوقه تتدلى ثلاثة أطواق معدنية مركّبة على بعضها بسعات تنازلية تمسكها شبكة سلاسل مثبّتة بالسقف شبيهة بحاملة ثريّا صالون قصر يلدز شاله، ومن الأطواق تنزل ثلاث ستائر مشغولة بالترتر الذهبي البرّاق يمكن تحريكها لتشكّل دائرة مقفلة حول البانيو. بقيت آينور، لأسابيع عدّة، غير قادرة على أن تكون مفهومة وواضحة لجليلة، وأمّها شكيبة هانم ومعارفهما. كانت تلمح في عيون النساء اللواتي استسلمن لها توجّساً عائقاً، وكان هذا يخشّبها، ويجعلها كئيبة. عالجت مضطرّة بعض الجروح، ونصحت بعلاجات لألم الأسنان، ورضخت لاستشارات معوية، وكان عليها، فوق هذا، شحذ مخيّلتها كي تطرد غازات الأطفال. لم تفتح غرفة البانيو، وشعرت بالقرف من روائح الأنفاس، ومن كثرة الأسئلة وغبائها. لم تلمّع سمعتها الطبّية سوى تلك التداخلات الليلية التي أخذت تحدث مع الحالات الطارئة. كان السراج الأسطواني ينشر ضوءاً هادئاً راسماً لآينور ظلالاً متحرّكةً، مثيراً دهشتها أمام ذلك الجمال الذي يتكشّف لها عند فتح الساقين. كانت تأخذ وقتاً زائداً وهي تدخل أصابعها عميقاً إلى أن يحتكّ إبهامها بقلنسوة البظر، وتسمع تمطّق الشفرين الداخليين

للمهبل وهما يلتويان نحو العمق مع ولوج أصابعها. ظلال تتحرّك وبروز للعجّان وفتحة الشرج حين تنزلق أناملها مؤلفة نغمة مخاطية كتلك التي يحدثها عضو رودولف وهو يلهب، في ارتـدادات دخوله وخروجه، دبق أعماقها. رهافة سخيّة، وملمس عذب يسرّعان أنفاسها لحظة أن تواجهها انتفاخة لدنة في العمق. يدنو ضوء السراج حاشراً ظله بين انحناءة إبهامها وبرعم البظر الذي تنحسر عنه طيّات الجلد متجلياً، مع التلمّسات المتلاحقة، بورديته المخلبية الباسمة، بينما اللزوجة تزداد نضوحاً بين ساقي آينور.

مكّنتها فترة الاختبار التي قضتها في مستشفى ليجون من استعادة أكثر الذكريات تواترياً. خُيّل لآينور أنّها نسيت كلّ ما تعلمته في مدرسة الطبّ بتوبنغن، فراهبات التقدمة كنَّ يخلطن بين التقاليد العثمانية المعتمدة على فنون العرب، وبين المعتقدات الطبّية الأوروبية التي لا تغفل المسيح. كنَّ يكرهن الغريزة الحرّة، ويعتقدن أنَّ الـذي لا يعيش لا يستحق الأسـف، لأنَّ الـربّ هو الـذي يعمل كلّ شيء، بينما معلمها الدكتور كيفن غميلينغ كان يطلب من الطبيب أن يكون موهوباً في معرفة الطريقة التي يعمل بها جسم الإنسان، وأن يستخدم خياله وفنّه في العلاج، وكان يعلّق في مكتبه عبارة تقول «عاشروا السحرة، وسيروا خلف الفنّانين، والشعراء، تقبّلوا الجنون كله، وتسلقوا الجبال، وتعلموا من الأبقار فنّ المغازلة، وتعالوا بعدها للعمل أطبّاء». أعجب رودولف بأفكار غميلينغ، وآمن افتتانه بكلّ الخرافات الشعبية التي كانت مدرسة الطبّ تتقبّلها لتزيد من سعة الأمل، ويوم أرته آينور خلطة عشبية لعلاج التقرّحات توضع في صرّة شاشية تُعقد بخيط ثمّ تُدفع عميقاً في المهبل حتى تلامس عنق الرحم بينما تبقى نهاية الخيط خارج المهبل، وضع رودولف حبّة كرز

في شاش وزرعها في أعماق آينور قبل أن تنام، وفي الصباح سحب الخيط، وأكلها بتلذذ، ثم قال منتشياً:

– يا للروعة.. لقد اكتشفتُ المربّى.

***

تلاشى اهتمام آينور هانز بكلّ ما يقع خارج بيت المتعة. لم يفطن رودولف مبكراً لغيبوبات خروجها عن عالمه. كانت حين تتلاحق خيباتها، وتتيبّس روحها، تخرج من الدنيا لتحفظ نفسها في علبة وحدتها كدمية خشبية، متنكّرة لعواطفها، ولكلّ ما حولها. في السنة الثانية لدراستها الطبّ كانت آينور هانز موجوعة من فقد جنينها الأول. تبدّد رودولف من وعيها، وبات مثل فراغ بلا أنفاس. كانت تتحرّك وهي مطفأة الحجرات، لا يلوح منها سوى استطلاعات عينيها، بينما رودولف مأخوذ بخفوت تأثيره، وعطب إبداعه، وانقطاعات إلهامه، وشاعر بالقرف من دنيويته القبيحة. غيّرت آينور طريقها إلى مدرسة الطبّ، وهي منفصلة عن كلّ الأشياء التي اعتادت عليها. ظنَّ رودولف، في البداية، أنّه خسر شغفها بجنونه، فأخذ يراقبها عن بعد، ويتفحّص ملابسها الداخلية، وأوراقها، بحثاً عن الحبّ الجديد. لم تكن تفهم أسئلته، ولم يكنْ هو قد وصل إلى تخمينات صحيحة بشأن مدفن الحزن في روحها البنفسجية، وحين أخذت تكرّر غلق حواسّها، أدرك رودولف أنّه يعاشر ابنة الإله آسكيبيوس.

كانت جليلة السعرتي قد انتهت إلى فكرة أنَّ العالم صمت لا كلمات، لذلك لا تسأل آينور، بل تشاركها تيه التوجّع، منقادة مثلها إلى العبث الحركي، فالجسد لا بدَّ من أنْ يتنقّل، لكنّها، على عكس آينور، ترى أنَّ خط السير ينتهي دائماً عند الجدار. تولّى تابور أمر إبعاد كروغر هايس، وشاؤول جلعادي عن حيّ النصارى، وذهب إلى

البلدية حاملاً رسالة آينور إلى سعيد أفندي السعرتي تطلب فيها موافقته على أن تعمل جليلة مساعدة لها في عيادتها. كان بيت المتعة يزداد لمعاناً في عينيهما، فهو سهل التنظيف، وبلا روائح، وهادئ تماماً إلى ساعة الظهيرة، والنساء يتسلّلن إليه متخفّيات، ويغادرنه بسرعة. تجفل جليلة من صراخ النساء، وتوجّعهنّ عند إجراء الفحص الداخلي، وكانت آينور تترجم لها لاحقاً الشتائم الشنيعة التي تطلقها باللغة الألمانية. بقيت لفترة طويلة غير منسجمة مع البشاعة التي تراها بين سيقان النساء الكبيرات في السنّ، وكانت مصدومة بفظاعة شكل المهبل حين يذوي بالولادات، أو يشيخ. لم تنتظر آينور نضوج فضول جليلة، فكانت تشرح لها خطوات عملها، وتشركها في التخيّل، وتدرّبها على الخلطات العشبية. كانتا تشعران بالراحة مع الفتيات الصغيرات غير المتزوجات، وينقلب مزاجهما مع النساء اللواتي يشكون من هبوط الرحم. لم تكن التمارين التي ابتكرها أطبّاء توبنغن لمعالجة أضرار الولادات المتكرّرة، والتي تركّز على عضلات الحوض والروابط الحاملة لجدار المهبل مفهومة عند نساء الموصل، وكنّ يجدنها معيبة، ما جعل آينور تبتدع جلسات لبخة البقدونس المخلوطة بزيت السمسم لمرّتين في اليوم لقاء قرش واحد في الأسبوع مكلّفة جليلة بتدليكٍ مجهدٍ لمنطقة العجان، وزوايا العانة، مع استعمالها، في الحالات الشديدة، دافعة من إسفنج البحر على شكل كعكة دائرية مثقوبة من المنتصف. ويوم أجرت آينور أول عملية توليد لامرأة مسيحية أدركت جليلة أنَّ عليها الكفَّ عن الحزن، والمضيّ بشجاعة في تعزية النساء بموت الحبّ. كانت آينور تجبر مساعدتها على تقبّل الانكسارات البشرية لأنَّ من أتعس أخطاء الخلق أن تشترك المضاجعة والولادة بمخرجي الخراء والبول، لذلك ألزمت جليلة بنقع كفيها بالحليب صباحاً كي تكتسبا الطراوة، ونبّهتها إلى

أنّ نعومة الأصابع أساس الفحص الطبّي لارتباطها بالخفة والرهافة، وأنّ جمال يد الطبيبة أكثر فائدة من الأدوية.

نسيت آينور كلّ ارتباطاتها الخارجية، وكان تابور شديد التمسّك بوصاياها إلى درجة أنّه تعمّد إخافة شاؤول جلعادي كي لا يكرّر طلب مقابلة سيّدته. انغمست بإنهاك في التفاصيل الصغيرة، ووضعت في الحمّامات العمومية النسائية إعلانات مؤطرة بالترتر تحكي عن برامج رعاية غذائية للحوامل، وعن إمكانية حلّ قضايا تأخّر الإنجاب، وأغرت النساء بأساليب جديدة لحياة زوجية سعيدة، وبمراهم فعّالة لتضييق المهبل. لم تدقق في إيرادات عيادتها طوال ستة أشهر، وكلما حاولت بريتا أن تحيطها علماً بصافي الدخل، تنهرها آينور بحجّة الصداع، وتطلب منها ألّا تهيّج قرفها من النساء.

كانت جليلة تحرز تقدّماً شغوفاً في الحدّ من تهوّراتها. شدّتها غرفة البانيو، وطالبت بفتحها، بعد انضمام المزيد من النساء إلى مجموعة هبوط الرحم. أدركت، بإيحاء من تليّف حزنها، أنّ كلاماً كثيراً ممّا كانت النساء يذكرنه بعفوية عند الفحص، يجعل آينور كئيبة وميّالة إلى العزلة، والشيء الذي خفف عن جليلة حداد قلبها أنّ كلّ ما كانت تسمعه من المريضات اللاتي غدرت بجمالهنّ المضاجعات جديد عليها، وكأنّها عاشت منفيّة عن الحياة، وبعيدة كليّاً عن الحقيقة. كانت تصوّراتها عن آينور غامضة كغموض مدفع هاوتزر الذي لا تؤمن بأنّ بشراً يقدر على صنعه، وأنّ الملائكة أنزلته من السماء، وأعطته للسلطان كي ينتصر على أعداء الإسلام. لم تتوصّل مع آينور إلى استنتاجات وافية، وكلّ ما كان يهيمن عليها في النهاية هو اعتقادها بأنّ الألمان من جند الله، وأنّهم خُلقوا ليهيموا في الأرض، مثل نبيّ الله الخضر، ويفعلوا كلّ ما هو حكيم وعادل. تصيبهما الهشاشة حين تتلقيان أجوبة المريضات بشأن المضاجعات

الإلزامية الخاصّة بالإنجاب، وكانت آينور تبدو مضحكة عندما تلفظ أسماء الأعضاء التناسلية بلغة رجال الدين، فتتدخّل جليلة مستعملة الحركات التوضيحية كي تجنّب وجه آينور تجاعيد الحنق. لم تخف جليلة صوتها الباطني، وكانت تتأخّر ليلاً كي تتكلّم أكثر، والشيء الذي كان يريحها أنّها باتت مندمجة المصير بآينور، وترى في مشقتهما معاً حميمية توأمية، وكأنّهما شاهدتا الحياة نفسها. سمحت آينور لها باستخدام غرفة البانيو، وكان ذلك اليوم اعترافاً مجزياً بأنّها تحرز تقدّماً في الثقة بالنفس. كان منظر النساء المستلقيات على السجّادة في غرفة البانيو يعصر مثانة جليلة، ويجعلها حسّاسة لأيّ انطواء احتكاكي لثيابها الداخلية. ابتكرت نغمات إيقاعية تحدثها بالطرق على قائمة كرسيّها بمفتاح الغرفة الضخم كي توعز للنساء بتغيير أوضاعهنّ وممارسة التدليك بدءاً من أدنى فتحة، صعوداً إلى مثلث العانة. أجبرتهنّ على إزالة الشعر، وحتى تكون قويّة كآينور، لم تستعمل كلمة الله أبداً. ترغمهنّ بالنغمة الصارمة على تبديل أوضاعهنّ بين الحين والآخر، مسترشدة بالعدّ إلى الرقم خمسين. كان منظرهنّ وهنّ يدلكن منطقة العجان من وضع الاستلقاء على الظهر يجعلها ساخنة الأنفاس وغير ثابتة في جلستها. تحثهنّ بتشنّج على المتابعة، مع تحريك الساقين من دون أن تنتبه إلى ارتفاعات صوتها. والذي أعجب آينور كثيراً، وجعلها أشدّ ثقة بالمستقبل، أنّ جليلة أخذت تجبر مجاميعها على التعرّي الكامل، وأداء حركات راقصة، طالبة منهنّ تعميق التنفس، وفرك الحلمات.

كانت جليلة تزداد تشبّهاً بآينور، ومع غياب صوت الأذان عن حيّ النصارى بدا الوقت دسماً، وغير محدّد الواجبات. تأكلان حين تحتاجان إلى المرح، وتتوشّحان بالصمت عندما ترهقهما الأصوات. تجدهما بريتا نائمتين قرب البانيو بوضع الموت في المعركة. لم

يتمكّن القلق من أحد، فتابور يوصل جليلة إلى حيّ الخاتونية ليلاً وهو يحمل بيمناه مسدّس لوجر، وباليسرى خنجره الطويل، ولا يعود إلّا بعد أن يتلقى الأمر من سعيد أفندي السعرتي الذي يمنحه حبّات فاكهة يتقوّى بها على وحشة الطريق. اطمأنّت شكيبة هانم للتحسّن الذي طرأ على ابنتها، وتجنّبت طويلاً زوجة الكتخدا جميلة خاتون، وراحت ترشد النساء إلى عيادة آينور حالفة بقبر الرسول أنّ الشيطان لا ينام هناك. لم تكن تنفرد بابنتها إلّا بعد صلاة الفجر، فتابور كان يطرق الباب وجليلة غير قادرة على فتح عينيها، وبعد خروج سعيد أفندي السعرتي إلى عمله تتوافد نساء الزقاق إلى بيت رئيس البلدية ليستمعن من جليلة إلى آخر ابتكارات آينور في تضييق المهبل، وتلطيف روائحه، وطرق تبييضه، وكيفية تثبيت الأجنّة في الأرحام، وكيفية النجاة من التشوّهات الولادية.

***

اضطرّ تابور إلى إبلاغ سيّدته برغبة شاؤول جلعادي الملحّة في رؤيتها. استقبلته في بيت البهجة في السادسة صباحاً وهي واقفة ترتدي زيّاً موصلياً متناقض الألوان. أمرته بالجلوس على كرسيّ رطب المقعد في الحوش. أخذت تتأمّله بعينين ضيّقتين وهي تعقد ذراعيها على صدرها. أوعز له تابور بحاجبيه أن يتكلم، فقلّل من مساحة ارتكاز مؤخّرته على الكرسيّ وقال بارتباك:

– وصلنا يا هانم من القنصلية الألمانية ببغداد أمر المباشرة ببناء مستشفى الغرباء في منطقة باب سنجار، وسعادة القنصل ينتظر منّا تفصيل المشروع مع الموافقات الرسمية، وتحديد الكلفة، ومدّة الإنجاز.

قالت آينور بهدوء:

– ليس هذا ما جئت لتبلغني إيّاه يا سيد جلعادي.

هزَّ تابور رأسه بخيبة، فبلع جلعادي ريقه قائلاً:

– هناك أنباء من برلين عن شغب شعبي ضدّ الإمبراطور. كلّ المصالح الألمانية في بلاد ما بين النهرين تتعرّض لهجمات. الحراسة مشدّدة هنا على أماكن إقامة الرعايا الألمان، ولكنّ أعداد الوافدين عن طريق سوريا تتناقص. الإنكليز يضغطون على أصحاب رؤوس أموال شركة سكّة حديد الأناضول من أجل بيع الحصّة الألمانية لهم. وهناك من يقول إنّ الإنكليز سيعرضون على الألمان تسهيلات تجارية في الهند لقاء التخلي عن خطّ سكّة حديد بغداد برلين.

قالت آينور ضاحكة:

– إذا حصل هذا فأنا على جنسية أمّي.

ثمّ التفتت إلى تابور وسألته مبتسمة:

– ما موقفك أيّها الحبشي؟

ردّ وهو ينحني ببطء:

– أنا عبد السلطان المعظم، وخادمكم يا مولاتي.

واجهت شاؤول جلعادي بعينين مفتوحتين وقالت:

– لا تشغل بالك يا سيد جلعادي بهذه الأمور.. الدولة العثمانية خصم أوروبا الأول، ولكنّ الكلّ يسارع إلى مدّ يد العون لها من أجل أن تبقى حيّة للسنوات المقبلة.. لا توجد عداوة كاملة، ولا سلام حقيقي في هذا العالم.

اختلف لون وجهها وهي تتابع:

– جد لي مساحة في مصنع الجوارب لخيّاطين ألمان يجيدون خياطة الملابس الداخلية.. علينا إنقاذ النساء الموصليات من الحكّة وسواد الأفخاذ.

نظر شاؤول جلعادي إلى تابور الذي قابله بابتسامة مشجّعة، ثمّ واجه عيني آينور قائلاً:

– يا هانم، ليس من الحكمة تبديد الأموال في مشاريع كهذه. الضرائب ستنهكنا ولن نقدر على التصدير، كما أنَّ العمل في سوق الألمان لا يسير على ما يُرام. التوقيت غير مناسب.. الناس هنا يخشون أن تبعدهم فتنة الابتكارات الجديدة عن الله.

تساءلت آينور ضاحكة:

– أيخافون على إيمانهم من قشّارة باذنجان؟

استفزته سخريتها، فقال بوجهٍ محمرّ:

– يا هانم، الإمبراطور قد يتراجع عن مشروع سكّة حديد برلين بغداد. الإنكليز يجيدون تحريك الناس هنا أكثر من السلطان. في المجالس الدينية يقولون إنّنا نصنع جوارب رودولف من شعر الخنزير، ويدّعون أنّ عيادتك لا تعمل بقواعد الحياء الشرعي. نساء الموصل لن يغيّرن ملابسهنّ الداخلية لأنهنّ يفكّرن بالحشمة لا بالحكّة.

تقدّمت آينور خطوة وأسدلت ذراعيها قائلة:

– اسمع يا سيد جلعادي.. نفوذ إنكلترا لن يصل إلى ما بين السيقان. هذه قضيّة مرهونة بعمق الحبّ وجودة عواطفه. علينا أن نصنع الملابس الداخلية لنساء الموصل كي لا يتراجع فيلهلم الثاني عن خطة سكة الحديد. لا تعقّد الأمور، ولا تصدّق ما يحدث بين الدول، فالحياة حتى تستمرّ، تحتاج إلى مهبل خصب وجميل. لا تدع الحروب تأكل شجاعتك. فيلهلم الثاني سيكون أقلّ عدائية، وأكثر شرفاً، حين يعلم أنّ ألمانيا بارعة في ابتكار المتعة.. اهدأ يا سيّد جلعادي، وتخيَّل السعادة بلا حكّة، وبفخذين لامعين.

استنجد بصر شاؤول جلعادي بتابور الحبشي فعادت آينور لتقول:

– أبلغ الطبيب جرجس غزالة أن يجهّز نفسه للسفر إلى ألمانيا مع مساعدين اثنين لكي يتدرّب في جامعة فورتسبورغ على جهاز أشعّة رونتغن. سنشتريه يا سيّد جلعادي، وسنجلبه إلى هنا، ونعالج به الناس، وعندها سيتقبّل الجميع فكرة أن تكون الملابس الداخلية حريرية، وحتماً سيدركون لاحقاً، أنّ هذا لن يغضب الله أبداً.

رغبة

فضّلت آينور البقاء في حوش خان خواجة أحمد، وجلست تحتسي قهوتها التركيّة التي جلبها لها تابور من مقهى كاندريان. كانت أصوات تجّار الصوف ترتفع بين الحين والآخر بعلامات الفرح، بينما الخان يبدو، على غير عادته، نظيفاً من النفايات الورقية، والكسر الخشبية. حيّاها السير هنري هانسفورد الذي خرج من المقهى ووقف ملامساً ببطنه الدرابزين الخشبي المدهون باللون الأزرق. حجبت بكفّها أشعّة الشمس عن عينيها المرفوعتين، وعبّرت له بأصابعها عن رغبتها بالبقاء في الحوش. نبّهها الحبشي إلى قدوم تاجر القماش حسين الطاهر. رأته يسير في حدود الظلّ وهو يرفع أذيال ثوبه اللامع وملامحه منقبضة. تنشّقت بانشراح رائحة المسك التي كانت تفوح منه وهو يعتذر عن تغيّبه أثناء مرورها بمتجره في سوق السرايا. أصرَّت على أن يجلس بجوارها على أريكة الخوص، فبالغ في الانكماش حذراً من مضايقتها.

قالت آينور بوجنتين ساخنتين:

– قرّرت أن أحوِّل بيت الرغبة إلى بازار للملابس النسائية الجاهزة.. سأحتاج إلى كمّيات كبيرة من الأقمشة، وإلى ترتر بالي

أيضاً. سيجلب لك الحبشي في الغد قائمة بالطلبات، وكلّي أمل في كرمك.

تلقى كلامها وكأنّه على علم به، ويعرف تفاصيل طلبها. سألها بصوت دهين:

– هل أنت بحاجة إلى خيّاطين؟

ابتسمت آينور وهي تضع يدها على ساعده:

– أنا أخبّئ في مكان قريب من هنا العديد من الخيّاطين الألمان المهرة.. السير هنري هانسفورد لا علم له بهم. أخبرك بهذا لأنّني أعدّك واحداً من شركائي.

شكرها بتأثر قائلاً:

– إذا وجدتِ أنّ الخيّاطين الألمان لا يلبّون أذواق نساء الموصل فأنا بخدمتك.

ابتسمت آينور قائلة:

– ثقتك بنفسك أكبر بكثير ممّا يحتاج إليه تاجر القماش.

– الغنيّ يجهل ما يريد، لذلك ربح التاجر في النصيحة الصادقة.

فكّرت آينور بكلامه، فعاد ليقول بوجه متفتح:

– لا تستهيني بالرجل.. أقصد السير هانسفورد.

سحبت يدها من ساعده قائلة:

– هو الذي عليه ألّا يستهين بي.

قال حسين الطاهر بخبث:

– سيحتاج الترتر إلى شهرين كي يصل إلى الموصل.

نظرت آينور إلى باب مقهى كاندريان في الطابق الثاني، ثمّ قالت بصوتٍ خدر:

– أخبرني بما يزعجك.

تهدّل حنكه علامة الأسف:

– في العادة، أصحاب الأعمال الكبيرة يلاقون المديح، والتزكية، والإكبار، ولكنّ هذا لا يحدث معك يا آينور هانم.

– لا يحدث هذا معي لأنّني لا أملك شيئاً.

تساءل وهو ينهض:

– لماذا تحمّلين نفسك كلّ هذا العناء؟

أجابت وهي تقاوم بعينيها الشمس:

– حبّاً بالشجاعة لا أكثر.

***

لم تجد آينور في غرفة محرّري جريدة «موصل» سوى الفرّاش. كانت الطبقة الأرضية من مبنى سرايا الوالي تحتوي على ستة مكاتب ربط، وكان انضمام كادر الجريدة إلى المبنى، بحسب فهم الوالي، تشريفاً بالمصداقية. طلبت آينور قدح ماء، حين أخبرها الفرّاش أنّ مسؤول الإعلانات في طريقه إلى النزول من مكتب الدفتر دار. كان الرجل في الستين، طويلاً وأحدب، يقوم بمهام عدّة أرفعها ترجمة الخطابات الهمايونية. أوضح لآينور أنّ عدم نشر إعلان البازار يعود إلى رفض باش كاتب الجريدة عبارة «بيت الرغبة» التي يراها معيبة ولا تصلح للظهور في جريدة فيها كلام السلطان وأفعاله الحميدة.

تساءلت آينور بعصبية:

– ما هو المعيب في كلمة رغبة؟ لقد جاء ذكرها في القرآن.

قال الرجل وهو ينظر إلى الأرض:

– أنا مسيحي يا هانم، يعني خواجة، ولا أعرف كيف ذَكَرها القرآن، ثمّ إنَّ الله هو الكلّ في الكلّ، يقول ما يشاء، أمّا نحن في الجريدة، فنكتب ما يقوله السلطان. الله يحفظك لا تدخليني في

متاهة جاء ذكرها في القرآن، وجاء ذكرها في الإنجيل.. ما أعرفه هو أنّ الرغبة ممنوعة عندنا.

قالت آينور بهدوء:

– يا خواجة، أنا أقصد أنَّ الكلمة ليست معيبة وإلّا لما جاء ذكرها في القرآن.

– يا أختي العزيزة، المرتّبات هنا على قدر درجة الغباء. كلمة الرغبة ممنوعة، فأرجو ألّا تحرجيني.

قالت آينور بانفعال:

– أنا أكره الأغبياء.. أعد إليّ مبلغ الإعلان.

قال وقد ظهر عليه الارتياح:

– حاضر يا هانم.

حرّر لها صكّاً بعدما رجع إلى سجل أخضر التجليد، طلب منها ختمه من مكتب الدفتر دار والعودة إليه. كفّ ثلاثة من عمّال التنظيف عن مسح بلاطات الدرج عند مرورها. كانت أصوات باعة السمك تدور في الطابق الثاني، بينما النوافذ الخلفية التي تطلّ على السوق تمرّر ضوءاً رمادياً عمّق احمرار السجّاد. تقدّم نحوها رجل حسن الهندام بطربوش طويل. ابتسم ظنّاً منه أنّها تعرّفت إليه، لكنّ جمود آينور جعله يقدّم نفسه بخنوع:

– أنا خليل آغا يا هانم.. خليل آغا الذي كاد خادمك الحبشي يذبحه.

مسحت آينور عرق جبينها بالبوشية قبل أن ترفعها عن وجهها. ابتسمت بتصنّع وحيّته بإيماءة من رأسها قائلة:

– دلّني على مكتب الدفتر دار من فضلك.

سبقها بخطوات سريعة ثمّ توقف في المنتصف، وأشار بذراعه إلى باب كبير تزيّنه النقوش النباتية المجسّمة. تركها خليل آغا دون

أن يقول شيئاً، وما إن اقتربت آينور حتى فتح الباب وأطلّ حامل راية المهترخانة بزيّ الوزراء الأسود. ضجّ صدرها بنبضة قويّة وهو يدعوها بابتسامة هادئة إلى الدخول. سارت بتثاقل إلى منتصف الغرفة الفارغة إلّا من كرسيّين متقابلين وُضعا بجوار نافذة بقياس متر مربّع تطلّ على الجانب الخلفي من سوق التوابيت. استدارت آينور فواجهها معرّفاً بنفسه:

– أنا زكريّا الكوّاز، رسول مولانا السلطان المعظّم.

في الثالثة والعشرين. ممشوق القامة، مليح الوجه، بشارب خفيف وذقن حليق مدبّب. وضع يده اليمنى في جيب سرواله وأخرج لفافة صغيرة سلّمها إيّاها وهو مشدود في وضع الاستعداد. فتحتها آينور ويدها ترتجف، وقرأت الخطّ الهمايوني: رودولف العظيم.

جلسا متقابلين بظهرين مستقيمين وتبادلا نظرة طويلة قبل أن يقول زكريّا بصوت طريّ:

– كان عليَّ يوم كنت أقود المهترخانة أن أكلمك، لكنّ السلطان المعظّم أرجأ هذا. أبقاني مدّة طويلة في إسطنبول، وها أنا اليوم أمامك.

بقيت آينور على جمودها، فعاد زكريّا ليقول:

– السلطان قلق عليك يا هانم وقد كلّفني بمرافقتك. سأعمل، بعد موافقتك، معاوناً للسيّد شاؤول جلعادي في الشركة، وهذا يجعلني أكثر قرباً منك.

تساءلت آينور بتوتّر:

– هل أنت مكلّف بتأمين خروجي من الموصل إذا ما تعرّضت للخطر؟

شبك زكريّا أصابعه، ونظر في عينيها قبل أن يجيب:

– نعم.. لقد كلّفني مولانا السلطان بهذا.. علينا توقع تراجع الألمان عن مشروع السكّة.

– ولكنّ فيلهلم الثاني بدأ ببناء المستشفى، وتبرّع بالأموال، والألمان يتوافدون إلى المدينة، ويشترون الأراضي، والإمبراطورة أوغستا فيكتوريا متعاونة مع خططنا.

قال زكريّا وعلى شفتيه شبح ابتسامة:

– وألمانيا تستعدّ الآن لفتح قنصلية في الموصل.. هذا كلّه صحيح يا هانم، ولكن باستطاعة الألمان الحصول من الإنكليز على نفوذ في الموصل لقاء التنصّل من مشروع السكة.

قالت آينور وهي تنظر من النافذة إلى أسطح البيوت التي لاحت في البعيد متشرّبة بلل المطر، وتبدو لتموج أرضها وكأنّها تتسلّق بعضها بعضاً:

– ما دمت يا سيّد الكوّاز الشخص الأخير الذي سيبقى معي ويساعدني على النجاة، فأنا ملزمة بإبلاغك الحقيقة.. أنا على عهدي الذي قطعته للسطان المعظّم، وسأبقى في خدمة الدولة العليّة، ولكنّني سأفعل أيضاً ما أراه صائباً. مصنع الجوارب والمتجر والشركة وسوق الألمان وكلّ رصيدي في البنك هو بخدمة مصلحة الدولة العليّة، ولكنّ مهنة الطبّ هي أنا.. الرجال لا يتغيّرون إلّا بزوال القوّة، أمّا النساء فيتغيّرن بالحبّ. بالنسبة إليّ، الملابس تشبه أشجار البرتقال لذلك عليَّ أن أكون فنّانة في ابتكارها.. المدن لا تكون جميلة إلّا بنسائها، وأنا سأجعل نساء الموصل عاشقات وحسناوات. يمكنك في الغد تسلّم وظيفتك الجديدة في شركة رودولف.

عادت لتنظر إليه، فقال زكريّا:

– الكلّ يقدّر هذا فيكِ، وأوّلهم سلطاننا المعظّم.

ابتسمت بحزن:

– والآن أرجو منك أن تدلّني على مكتب الدفتر دار.

– لا حاجة لذلك.. الإعلان سيُنشر في عدد الخميس المقبل وباللغتين التركية والعربية.. لا أحد يستطيع الوقوف ضدّ رغبتك يا هانم.

***

غسلت آينور يديها قبل أن تستخدم السرداب متّجهة نحو بيت البهجة. كان الطبيب جرجس غزالة ينتظرها في الحوش وهو في بدلة كحلية أنيقة، ماركة الخروف الأحمر، وربطة عنق فراشية من الذبابة الخضراء، وقد تعطّر بماء الكولونيا. انتبهت آينور إلى ارتباكه وهو يراها في ثوب من الساتان الوردي، ضيّق بفتحة صدر مثلثة. أشعرها احمرار وجهه بالفرح، وانتظرت حتى يكمل عبارته:

– جئت لأودّعك يا مدموزيل، ولأشكرك على كرمك العظيم.

قالت وهي تشدّ على كفّه:

– القنصل الألماني في بغداد سيعطيك رسالة مختومة عليك تسليمها إلى القصر الإمبراطوري حين تصل إلى برلين. اترك لهم عنوانك الذي حدّدته لك. أنت من سيقدّر متى سيشحن جهاز أشعّة رونتغن إلى البصرة. ستتعاون معك جامعة فورتسبورغ إلى أقصى حدّ، فلا تتردّد في طرح الأسئلة.

هزَّ الطبيب غزالة رأسه دلالة الطاعة، فعادت آينور لتقول:

– هناك أمر مهمّ عليك معرفته يا دكتور. لم يكن من السهل إقناع الألمان ببيع جهاز رونتغن للموصل والسبب أنّ الأميركان يجرون تطويرات مهمّة عليه بقيادة عالم يُدعى توماس إديسون كي يكون صالحاً للاستخدام. عليك أن تكون منتبهاً وأنت في جامعة فورتسبورغ. طالبهم بالكشف عن تحويرات أديسون، وعليك أيضاً

الاتصال بشركة فيليبس من أجل قطع غيار الأنابيب. لا تخف من شيء، وقبل أن تعود إلى الموصل عليك مقابلة رونتغن في ميونخ. هو على علم بمهمّتك ويريد إطلاعك على تصوّراته بشأن مستقبل أشعّة إكس. الفيزيائيون كائنات محظوظة لأنَّ قوانين الله في الطبيعة دقيقة ولا تحتاج منهم إلّا إلى القليل من الفضول، أمّا الطبّ فهو مخيّلة مجنونة، وحبّ طائش، وموسيقى حربية.

ابتسم الطبيب، فعادت آينور لتقول:

– إنّهم يفكرون باستخدام الجهاز عسكرياً، ولكن أنت وأنا نفكّر بطريقة أخرى.. عندما تعود من ألمانيا يا دكتور غزالة ستجد مستشفى الغرباء بانتظارك.

قال مبتسماً:

– يشرّفني هذا يا مدموزيل ولكن كنت أودُّ معرفة من الذي رتَّب لي هذه الرحلة، هل هي الدولة العليّة، أم كرم الإمبراطور فيلهلم الثاني؟

– لا أحد منهما يا دكتور.

قالت هذا ثمّ سألته:

– كم لديك من وقت؟

– ساعتان فقط.

– اسمع.. قبل أن تغادر الموصل أحرق كتاب «غاية الإتقان في تدبير بدن الإنسان» لرئيس أطبّاء الدولة العثمانية ابن سلوم صالح أفندي.

الموصل

خريف 1903

بازار بيت الرغبة

بينما كان بيت الرغبة يزدحم حتى الغروب بأعداد كبيرة من النساء، تقدّم السير هنري هانسفورد بشكوى إلى الوالي نوري باشا متّهماً آينور هانز بخرق اتفاق التراضي بشأن سوق الألمان، مطالباً برفع إعلانات بازار بيت الرغبة التي عُلّقت على جدران بناية السوق من الخارج لأنَّ آينور هانز لا تملك متجراً تحت هذا المسمّى، الأمر الذي يوقع أبلغ ضرر بالبضائع الإنكليزية. أحال الوالي الشكوى إلى غرفة التجارة التي سرعان ما أرجعتها إلى السرايا بتوضيح أنَّ الأمر لم يعد من اختصاصها نظراً للدعوى القضائية التي رفعها وكيل شركة رودولف زكريّا الكوّاز ويطالب فيها السير هنري هانسفورد بدفع تعويضات مقدارها ألف ليرة ذهبية إثر تصريح لنائب القنصل أدلى به إلى جريدة «موصل» الأسبوعية، قال فيه إنّ بازار بيت الرغبة يهدّد ببضائعه الرخيصة صفة المحافظة التي يتّسم بها المجتمع الموصلي. كانت آينور قد وافقت على السماح لمراقِبة شرعية مفوّضة من زوجة الكتخدا جميلة خاتون بالحضور إلى البازار طوال ساعات العمل، وبمنع بيع بضائع تتعارض

مع الحشمة. وحتى تعطي آينور انطباعاً جيّداً لنساء الموصل والبلدات القريبة، وظفت ثلاث بائعات مسلمات ومنحت الإدارة لبريتا التي التزمت هي الأخرى بارتداء الزيّ الموصلي.

جرى لقاء آينور بجميلة خاتون في جوّ يفتقر إلى الاستلطاف، فبالرغم من جهود شكيبة هانم في تخفيف نفور آينور من سلوك التعالي لزوجات كبار الموظفين، لم تلتزم زوجة الكتخدا بوعدها في إكرام ضيفتها وتعمّدت تركها تنتظر طويلاً في الصالون، إلّا أنَّ ما ظنّته جميلة خاتون وجاهة ورفعة مكانة، رأته آينور قلة ذوق، وفقر ثقافة، فالمرأة زادت على بدانتها، وقبح وجهها، بأن ارتدت سروالاً مزركشاً، وجلست على الأرض كالجواري، واستعملت في حديثها عن نساء الولاية ألفاظاً غير مهذبة، وكانت وهي تتكلم لا تكفّ عن أكل المكسّرات، وبصق القشور. اعترضت آينور على كلّ ما قالته جميلة خاتون بشأن الضوابط الإسلامية للملابس الداخلية وضرورة توفر الحشمة، وعدم استعمال الأقمشة الغالية، وكي لا تتمادى زوجة الكتخدا أكثر من ذلك قالت آينور بتمهّل، وكأنها تروّض ثوراً متعكّر المزاج:

– نحن نرتدي الملابس الداخلية الجميلة لنثير الرجال ونجذبهم إلى ما بين سيقاننا، لذلك لا مكان للحشمة هنا. أمّا إن كان قصدك أنّ المسلمات يحرم عليهنّ ارتداء ما ترتديه الأوروبيات فهذا ليس في مصلحة الإسلام مطلقاً، لأنّه سيقلل الإنجاب وسيؤدّي بكم إلى الانقراض.

اعتدلت جميلة خاتون قائلة بصوتٍ أجشّ:

– يجب توظيف مراقِبة شرعية في البازار تجنّباً للشبهات، وإلّا فلن أمنحك إجازة العمل.

قالت آينور بوجه متفتّح:
– لا مانع لديّ، ولكن أنتِ من سيدفع مرتبها.

***

تذمّر كروغر هايس من وجود الخيّاطين الألمان الخمسة في مصنع الجوارب، وبذل مجهوداً لإقناع آينور باستئجار مبنى يسمح باحتواء عددهم بدل تنغيص عيشته، لكنّ آينور نصحته بتقبّل الحياة بأوضاعها الزلقة، وحذرته من إزعاج الخيّاطين. كان العديد من الحرفيين الألمان قد تكيّفوا مع الحياة في الموصل، وصارت لهم أزقة خاصّة بهم في باب الطوب بالقرب من السوق، أمّا الذين يعملون في المجالات الزراعية، فقد توزعوا بين بلدات برطلة، وبحزاني، والقوش. كانت مناطق نشاطاتهم تحظى بحراسة مشددة، وكثيراً ما كانت الشرطة تحقق في أبسط المخالفات موحية بالمكانة المرموقة التي يتحلى بها الألمان في الموصل، ما جعل الأهالي يستدرجون ودّهم. لم تعتمد آينور على ما كان الألمان الخمسة ينتجونه، فقد اتفقت مع خيّاطات يعملن في بيوتهن، وتلقين من كروغر هايس دروساً في مدرسة الصنايع، وظيفتهنّ خياطة الأجزاء السهلة وفق توجيهات الخيّاطين الألمان. كانت التصاميم هي نفسها الرائجة في باريس، وروما، وبرلين، مع تحويرات صغيرة تخصّ التزيينات الذوقية ونوع الأقمشة. كان شاؤول جلعادي يتشكّك في التفاؤل الذي تبديه آينور، ويرى الوجود الألماني شبيهاً بنزوح الأرمن والأكراد إلى المدينة، ويطعن في الجدوى الاقتصادية منه، فأسلوب الحياة القديم هو الأرخص، والأكثر فائدة للناس، وكانت آينور كثيراً ما تكرّر على مسامع شاؤول جلعادي أنّها تريد من الناس أن يألفوا التطوّر، ويروا البدائل بأعينهم، وأن تُفتَن نوازعهم بها حتى وإن لم يقدموا على شرائها، فهذا كفيل بتحسين نسبة الأمل في أرواحهم، ويمدّهم

بالمزيد من الأحلام. كانت، حين تجد أنّ شاؤول غير قادر على فهم كلامها، تكرّر ما قالته سابقاً:

– نحن نعلمهم الجدية، والدقة، والهمّة، واحترام المهنة، وإذا فعلوا هذا فسوف يزول الغش، والكسل، والكذب.. بهذا تنشأ الحضارة.

كانت بضاعة بازار بيت الرغبة تتكوّن من مشدّات الصدر، والسراويل الداخلية، وقمصان النوم، وأخذ الإقبال على الموديلات الخاصّة بتجهيزات العروس يتزايد فيما خفّ الاهتمام بالملابس البناتية الخاصّة بالمراهقات ما دفع آينور إلى بيع هذه الأخيرة بسعر الكلفة، وكانت في أوقات تفقدها البازار تحثّ النساء على الاعتناء ببناتهنّ الصغيرات لأنَّ الجمال تعليم، وتثقيف، ولا يمكن لامرأة أن تكون منتجة للسعادة والحكمة بغياب التربية الناعمة. كانت المراقِبة الشرعية تُدعى شكرية، في الأربعين من العمر، ملامحها ذكورية، عظميّة الشكل، ومشعرة الذقن، ومتجهّمة إلى الحدّ الذي يناسب الخوف على حدود الله. عاملتها بريتا بلطف، وكانت تعرض عليها الموديلات قبل تعليقها للبيع، وحين أخذ اللين يظهر على شكرية جرّاء اللطف، كلفتها آينور بالإشراف على سجلّات البيع بالتقسيط، وهو ما اضطرّت إليه كي تزيد الاهتمام بملابس المراهقات الداخلية. كان بيت الرغبة أقلّ عمراً من بيتي البهجة والمتعة، وإيوانه مشغولاً بزخرفة متقنة، وقد أثثته آينور بأرائك، ومقاعد عثمانية منجّدة، وجعلت المطبخ مخزناً للبضائع، ونسّقت في الحوش أصصاً للورد. أثارت تشكيلات مشدّات الصدر اهتمام الشابّات، وكانت جليلة في ساعات الصباح تتنقل بين المتعة والرغبة، وتتقرّب إلى النساء الموجودات في البازار من أجل إرشادهنّ إلى الوسائل الصحيحة للعناية بالأثداء والبشرة، ولا يمرّ يوم إلّا وجليلة تستدرج إحداهنّ إلى

بيت المتعة وتجري لها المعاينة التجميلية. لم تقلق آينور من تزايد هوس جليلة بالأجساد الناضجة، وكانت تجدها في أوقات إباضتها متوهّجة الإلهام وقادرة على ابتكار خلطات عشبية مفاعيلها ترغيبية، كما تجرّأت على أن تطلب من آينور السماح لها بتجربة ملابسها الأوروبية، فأصبحت ترتديها أثناء العمل في بيت المتعة، وتبالغ في استخدام بودرة الخدود، وتحديد حاجبيها. في المقابل كانت آينور تبقيها بجوارها أثناء إجراء الفحص الداخلي للنساء الحوامل شارحة لها بالتركية الفروق المهبلية الشكلية، ومدرّبة إيّاها على معرفة الجانب النفسي للمريضة من حالة الشفرين الخارجيين والداخليين، وبُعد البظر عن فتحة المهبل.

لاقت بريتا صعوبة بالغة في إدارة بيت الرغبة، وكانت مشكلتها الأساسية أنّها لا تجيد إصدار الأوامر، وكثيراً ما لا تفرّق بين حرصها الخدمي، وبين واجباتها كمديرة مسؤولة عن بازار يتطلّب مظهراً أنيقاً، ولساناً حلواً. لذلك كانت آينور كثيرة التنقل، في ساعات النهار، بين عيادتها وبيت الرغبة. تمدّ يدها في العمل الذي تقوم به المساعدات المسلمات، تعيد ترتيب قطع الملابس على الرفوف، وتسقي الزرع، وتنظّف الحوش، أمّا إذا تطلّب الموقف التفاوض بشأن الأسعار فكانت تترك القرار لبريتا بعدما أمدّتها بالثقة الدسمة بالنفس، فباتت قادرة على العناد. أرهقهما الشهر الأول، فكان لزاماً على بريتا تحديد أوقات الفتح والإغلاق من العاشرة صباحاً حتى الرابعة بعد الظهر.

***

كانت البنت التي أرسلتها شكيبة هانم إلى بيت المتعة تدعى خديجة، في الرابعة عشرة من العمر، سمراء ومخسوفة الخدّين، يعلق القش بشعرها الشعث، مبقعة الوجه، وتفوح منها رائحة الدجاج. لم

ترغب آينور في توضيح أيّ شيء للمرأة البدينة التي كانت ترافقها، وطلبت منها العودة بعد صلاة العصر لأخذها. لم تفهم جليلة ذلك الانكسار الذي تغشّى آينور وهي تتأمّل خديجة الجالسة على تخت المعاينة ونظراتها تدور مع سجّاد الحائط، وهي تؤرجح ساقيها. أمرت آينور بتسخين ماء للاستحمام، وغابت لدقائق في بيت البهجة، ثمّ عادت حاملة علبة صغيرة مربّعة الشكل مطعّمة الزوايا بالفضّة. قادت البنت إلى غرفة البانيو. أشعلت سبع شمعات ثبّتتها بالأرض على محيط ستارة الترتر، ووضعت سراج الفحص الأسطواني عند جهة الرأس. أعجبها الصمت الذي كانت عليه خديجة، وجمودها البارد وهي تقف على بعد متر من البانيو تنظر إليه باستسلام. جاءت بريتا وسكبت الماء في البانيو بينما آينور وجليلة تقفان خلف خديجة. وحين عادت بريتا بالمزيد من الماء تساءلت جليلة عمّا يمكن لهذه البنت أن تعانيه ويحتاج إلى الاستحمام. ردّت آينور هامسة:

– لا تقدر على حلج الورد.

وحين نظرت جليلة إليها مستفهمة، عادت لتقول:

– احتباس الطمث.

أقدمت آينور على تجريد البنت من ملابسها وساعدتها على الاستلقاء في عمق البانيو. اقتربت جليلة ورأت الماء يصل إلى ما تحت ثديي خديجة النابتين. كان الترتر يسقط رقرقة ذهبية تشتعل وتنطفئ على القشرة اللازوردية للبانيو. لم تقدر على تخيّل ما يمكن للانغمار في الماء أن يفعله بحواسّها. كانت جليلة قد غافلت آينور مراراً، واستلقت في عمق البانيو الجاف تقرّباً إلى إحساس الموت الذي باغت زوجها حين سقط في النهر وهو على حصانه. نزلت آينور على ركبتيها. حملت على كفّها اليسرى الصندوق الصغير. فتحته بتمهّل وأخرجت صابونة حمراء. سرت رجفة في بدن جليلة لحظة أن وصلت

الرائحة الفلفلية إلى بيت أنفاسها. هبطت هي الأخرى مستندة إلى ركبتيها، بينما البنت مغمضة العينين بابتسامة خفيفة. قرّبت آينور الصابونة من أنف خديجة، وما إن نزلت بها إلى الماء حتى تفاعلت الرائحة، وتصاعد أريجها مغيّراً الهواء، وواهباً النشوة. نهضت جليلة على عجل وحرّكت ستائر الترتر لتغلقها على البانيو ورجعت جاثية على ركبتيها تنظر إلى عمق البانيو. أخذت آينور تحرّك الصابونة على منطقة العانة بشكل دائري بطيء مرتكزة بخدّها على البانيو. غاب جسد خديجة تحت دوّامة بيضاء وزيت أحمر. كانت ستائر الترتر المتوهّجة الذهب تتلامع بالتناوب مع حركة يد آينور بينما البنت متّسعة الابتسامة وتتنفس بانتظام. ارتخت الرائحة وانفرشت على الدائرة المغلقة. لانت جليلة وغلبها الخدر، وخُيّل إليها أن لا أرض تحت ركبتيها.

***

وصل شاؤول جلعادي، ومعه زكريّا الكواز، إلى مقرّ شركة رودولف في حيّ جامع النوري بعد انقضاء نصف ساعة على وصول نائب القنصل الإنكليزي السير هنري هانسفورد وانتظاره لهما. أخذاه بحفاوة إلى الطابق الثاني من البناية. كانت الأرائك الجلدية الحمر، بطرزها المختلفة، تضفي طابعاً جذاباً على أجواء الشركة التي بدت فخمة بالمغلفات الخشبية، وبكثرة ما فيها من لوحات، وشهادات اعترافية، وصور فوتوغرافية عن نشاطات الشركة. كانت غرفة زكريّا مستطيلة تحتوي على مكتب أرابيسكي، وأريكة، وكرسيّين، ولوحة كبيرة لحصان عربي، بينما النافذة العريضة العالية تطلّ على المنارة المتحدّبة للجامع النوري. تجاوب زكريّا بابتسامة مع إعجاب نائب القنصل بإصرار آينور هانز على تحقيق النجاح في التجارة. أخرج السير هانسفورد من جيب

جاكيته البيضاء غليونه الذي بمبسم عاجي مستقيم، وكيس تبغه المطبوع بعلامة إيرين مور وهو يقول بصوت متهدّل:

– غريب أن تميل آينور هانم إلى الطراز الإنكليزي في الأثاث بينما هي لا تطيق رؤيتي.

ترجم جلعادي قول زكريّا:

– العالم كله يحبّ الصناعة الإنكليزية، ولكنّه يجد صعوبة في مصادقة الإنكليز.

ابتسم نائب القنصل قائلاً:

– أنا غير مسؤول عن سوء ترجمة جريدة «موصل» لتصريحي، وأظنّ من المناسب لنا التوصّل إلى تسوية بعيداً عن المحاكم.

قال شاؤول جلعادي:

– آينور هانم مستغربة من ردّ فعلكم على مشروع صغير لا يقترب أبداً من سعة هيمنتكم التجارية، وهي توّاقة إلى سماع تعهّدكم بعدم المساس بمصالحها.

قال السير هانسفورد وهو يشعل الغليون:

– إسقاطكم الدعوى سيعني لي الكثير، وبالمقابل لن نعترض على نشر إعلانات البازار في سوق الألمان.

قال زكريّا الكوّاز:

– آينور هانم مستعدّة لترضيتكم، ولكنّها تودّ معرفة الغرض من وضع مراقب إنكليزي في كلّ منافذ الدخول إلى المدينة.

تغضّن وجه السير هنري هانسفورد وهو يردّ بنظرات حادّة:

– أنت فقط من يعرف هذا.. لا أظنّ أنّ آينور هانز لديها الوقت، أو الاهتمام.

تدخل شاؤول جلعادي قائلاً:

– السيد الكوّاز يمثل آينور هانم، ويمكنني إبلاغكم بالكثير من التفاصيل بشأن المراقبين إذا أحببتم.

نظر نائب القنصل إلى جمرة غليونه، وقال:

– نحن نفعل هذا بين الحين والآخر لمعرفة حجم التوافد على المدينة، وبما أنَّ الموصل تشهد انتعاشاً اقتصادياً الآن، فنحن نودّ تحليل أسبابه بدقة.

تساءل زكريّا الكوّاز بلهجة ساخرة:

– هل توصّلتم مثلنا إلى أنّ نساء البلدات المجاورة أكثر توافداً على المدينة من ذي قبل؟

نفث السير نائب القنصل دخان غليونه إلى الأعلى متصنّعاً الاستمتاع:

– يبدو أنّك تجيد عملك يا سيّد الكواز.

– أنا أبذل ما بوسعي سير هانسفورد.

قال شاؤول جلعادي بتودّد:

– أرى أنّ الخلافات يجب أن تنتهي.. أنتم لديكم الكثير من التوظيفات المالية الشخصية هنا في الموصل. أعتقد أنّنا يجب أن نصل إلى تفاهم يرضي الطرفين، ونحن من جهتنا نتعهّد باحترام مصالحكم الشخصية.

نهض نائب القنصل الإنكليزي قائلاً لشاؤول:

– حين يغيّر فيلهلم الثاني رأيه، عندها سنجلس أنا وأنت ونتكلم بشأن مصالحنا الشخصية.. أنا وأنت فقط يا سيد جلعادي.

نارت الشركسي

امتدّت شهرة متجر رودولف لملبوسات الأفندية إلى عموم الولاية، وكانت بدلة الخروف الأحمر هي الماركة المفضّلة للموظفين الكبار والطبقة الراقية، ما دفع شاؤول جلعادي إلى تحصيل وكالة حصرية من الشركة الألمانية المنتجة، واعتمد على وكلاء عائلة خلاصجي اليهودية للبيع في بغداد والفرات الأوسط، لكنّ نارت الشركسي بقي الأكثر مهارة في جذب الزبائن وتحقيق أعلى المبيعات، ما ألزم آينور بمضاعفة أجره وتوفير سكن له في حيّ الإنكليز على الجانب الشرقي من المدينة. مع مرور الوقت أخذ نارت يفهم الطبيعة المركّبة للسكان، ويتابع الصحف، ونشرات النشاطات الدينية، ويتوجّه إلى الجمعيات العلمية، مروّجاً لبضاعته بطريقة جذابة. لم تكن آينور على علم بما يفعله نارت، إلّا أنَّ زكريّا الكوّاز أطلعها على نتائج آخر التحرّيات التي أجرتها تشكيلات يلدز الاستخباراتية بشأنه بعد أن أقلقتها علاقاته الواسعة مع الضبّاط الأتراك، فقد تبيّنت سلامة توجّهه في توسيع الصداقات، وتحصيل عضوية المنتديات، والجمعيات التابعة للدولة العليّة، أو تلك التي تتّسم بطابع ديني مجاز، وقد أحصت التحرّيات امتلاك نارت عضوية ثلاث وأربعين جمعية ونادياً في عموم الولاية.

كان نارت يظهر في التجمّعات بصفته الخبير بروح أناقة العصر، ويعطي النصائح بأدب، وسخاء جمالي، ويرتدي في تجواله نماذجَ غير رائجة من المتجر كي يثير الانتباه إليها، وكان يبتكر القصص لكلّ موديل بدلة، أو ربطة عنق، ويدغدغ نوازع الأفندية بمقولة أنّ المظهر الأنيق للرجل هو الوسيلة المثلى لنيل الحظ وقوة التأثير، وأنّ هذا لا يتأتّى من الذوق العام للناس، بل من شدّة المغايرة، وأنّ الزيّ الغريب ما يلبث أن يُستحسن بتكرار لبسه، وهو الذي اعتنى بمظهر مساعدي آينور، وأقنعها بأنّ الاهتمام بأناقة جلعادي والكوّاز من أولويّات الترويج لبضاعة المتجر. لم تكن أفكاره مقبولة، لكنّه استعان بالثقة التي حصل عليها جرّاء نبله، وتكتّمه على الأسرار الخاصّة، ودقة التزامه. لم يخف توقه إلى شيوع الألوان الشهوانية، ولم يكتم نفوره من الأزياء الشعبية التي لا تتقبّل التحديث، ويجدها تحفز على الكسل، وغير متكيّفة مع الأجواء الحارّة. بناءً على ذلك، طالب مراراً مصنع جوارب رودولف باعتماد ألوان طائشة تماشياً مع نزق العصر، وقد استجاب كروغر هايس لطلبه، فراجت بين صغار الموظفين جوارب صفراء، وتركوازية، وحمراء. كان طوله المتوسّط، ووسامته الحزينة، وعبق الفودكا الذي يفوح منه، تعينه كثيراً على أن يكون شخصاً موثوقاً بذوقه، ومعبّراً بالفعل عن الأحلام المكبوتة.

***

رفضت المشرفة الشرعية بيع سروال داخلي قصير من الساتان له فتحة خلفية على طول شق المؤخرة تُغلق بشريط متعاكس الربط، أمّا جهته الأمامية فمشغولة بالترتر الناعم الذي يوحي بتغطية منطقة مرهفة تتهيّبها الروح الملتاعة. كان اعتراض شكرية على حجم السروال وشبهه بما ترتديه العاهرات الروميّات، فهذه الإشارات الترترية تفصح

عن شهوات النساء الاستدراجية، وتفتح عيون غير المتزوّجات. صُدمت آينور بكلامها، وأخبرتها أن لا وجود للروميات في هذا العصر، وأنّ هذه السراويل مخصّصة للعلاقة الزوجية بعد الإنجاب. بقيت المشرفة الشرعية مصرّة على عدم البيع، فكتبت بريتا، اعتماداً على خضوع آينور، رسالة إلى كروغر هايس تأمره فيها بالتوقف عن إنتاج هذا الموديل من السراويل الداخلية، مع التشديد على ضرورة تحصيل موافقة بيت الرغبة قبل تنفيذ التصاميم الحارّة عاطفياً.

كان نارت الشركسي يحتسي الويسكي مع الخيّاطين الألمان في مصنع الجوارب مساءً حين جاء الحبشي حاملاً الرسالة. أخذ كروغر هايس يشتم نفسه لبقائه في هذه البلاد الغبيّة، وما إن قرأ نارت الرسالة حتى غادر برفقة تابور متوجّهاً إلى بيت البهجة. انتظر خارجاً إلى أن عادت آينور من بيت المتعة. قبّل يدها بانحناء مبالغ فيه، وقال بصوتٍ مترقرقٍ، وملامحه معصورة بالتأثر:

– كيف نسمح لغباء الذوق بأن يوقف إنتاج قطعة شديدة الجمال كهذه؟

وجدته يخرج من جيبه سروال الساتان وهو يقول:

– ألا تذكّرك معجزة الحجم بالموسلين المخيف؟.. إنّها نعومة تهيّج اليد، وتفتن الروح، فما بالك بمناطق جذور البركان.

قالت آينور بتذمّر كي لا يتمادى أكثر في الانفعال:

– الأمر ليس بيدي. من الحكمة مراعاة قناعات الناس.

خطف نارت بحركة سريعة يد آينور، وانحنى مقبّلاً إيّاها:

– سأبيعها أنا.

صدمها كلامه:

– أنت.. أين ولمن؟

اعتدل نارت قائلاً بثقة:

– سأبيعها للرجال في متجر رودولف لملابس الأفندية. أضع السروال في علبة من القطيفة وأبيعه للضبّاط وكبار الموظفين وللمتيّمين بالعشق. يمكن لحبّة شعير أن تكون ساحرة إذا ما بيعت بسرّية مع قليل من الترغيب، وهذه هي المهنة التي يجيدها خادم جمالك نارت الشركسي.

تراجعت آينور خطوة، ونظرت إليه، وقد انتعش وجهها بابتسامة:

– كيف خطرت لك هذه الفكرة الشيطانية؟

– في حلب كنت أملك متجراً لبيع الصداري والسراويل الشعبية، ولكنّني في الحقيقة كنت أبيع سرّاً مراهم صينية تقوّي الانتصاب.

ضحكت آينور، فعاد نارت ليقول:

– لديّ في رأسي الكثير من التصاميم الإغوائية التي تجعل الرجال ينطحون الجدران ندماً على إضاعة الحياة.

تفتّح وجهها وهي تقول:

– برافو سيد نارت.. يبدو أنّني لم أقدّر مواهبك جيداً.

***

لم تفوّت جريدة «موصل» متراً واحداً ينجز من سكة حديد برلين بغداد إلّا ذكرته بتبجيل. كانت أغلب تقاريرها مترجمة عن التركية أو الألمانية، وحين اكتمل بناء مستشفى الغرباء في باب سنجار أفردت صفحة للإشادة بدور الإمبراطور الألماني فيلهلم الثاني في تحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الموصل، وأخذت تتابع ما يعرضه الألمان من صناعات مهمّة في سوقهم. وكانت للجريدة وقفة طويلة مع مطحنة القهوة التي قالت عنها إنّها تصقل جوهر النكهة الساحرة

للحبّة العجيبة المباركة. وكتبت عن آلة فرم اللحوم اليدوية إنّها آلة تاريخية وضعت حدّاً للمشقة البيتية، وفتحت الباب لحياة أكثر متعة. كان السلطان عبد الحميد الثاني يغيب عن صفحات الجريدة لأسابيع وهو أمر أقلق كثيراً المحميّة الأسرية التركية في «إيج قلعة».

كان زكريّا الكوّاز يتحفظ في الإجابة عن أسئلة آينور، ويدعوها إلى انتظار التوقيت المناسب، لأنَّ التعجّل يفقد الفرحة الكثير من إيقاعها الراقص. أعجبت آينور هانز بهدوئه وباتزان خطواته، وكانت تشعر بأنّه يتعمد جعل لقاءاته بها تأخذ طابعاً جذاباً. يطرق بابها ليلاً حين تكون قد أمضت وقتاً كافياً لإزالة آثار التعب الطبّي، وصارت جاهزة للقائه. لم تبدر منه أيّ إشارة تخالف مهمّته، ويوم أصبحت توجّهات جريدة «موصل» الجديدة حديث الناس في كلّ مكان أخبرها أنَّ السلطان عبد الحميد أرسل صحافياً تركياً ليتولّى تحرير صفحات الجريدة حتى تكون داعمة لخطواتها. كان يستمع إليها وهو مبتسم، وشكل رأسه يشبه وسادة الريش، ما يجعلها منتعشة وقادرة بعد ذلك على النوم باسترخاء. تسرع بريتا فور عودة آينور من بيت المتعة إلى تجهيز بانيو الإمبراطور. تشعل الشموع، والسراج الأسطواني، وتغلق عليها ستائر الترتر. تتجرّد آينور من ثيابها، وتخرج الصابونة السلطانية الحمراء من علبتها. تستلقي في البانيو. تغمض عينيها وهي تتنشّق الرائحة، فتطفو روحها. كانت آينور كثيراً ما تؤنّب نفسها على تلك الأحاسيس الغامضة التي تعتليها وهي تستمع إلى زكريا، ودائماً ما تعارض خواطر أنّه يأتي إليها أنيقاً ومتعطشاً لفرحة ما، وحين يمنعهما عارض من اللقاء الليلي تجهّز لها بريتا قنّينة العرق وتجلسان في الحوش، بينهما منقل الفحم، تقلبان أسياخ لحم الخروف بوجهين عابسين.

***

نجح نارت في بيع كلّ الكمّية المنتجة من سروال الساتان، وبضعف السعر الذي كان في نيّة آينور تحديده. نبّهها إلى ضرورة التنويع، وإضفاء المزيد من الإثارة شرط المحافظة على الخفة والحجم الصغير، وعرض على كروغر هايس العديد من التصاميم التي قال عنها إنها مزيج ثقافات. بعدها بأسبوع، رجع إلى آينور لإقناعها بضرورة التفكير بالملابس الداخلية الرجالية، وقال لها وهما يقفان في الحوش:

– لا يصحّ أن نطوّر ملابس النساء الداخلية، ونترك الرجالية على بشاعتها.. علينا فعل شيء لتحقيق التشابه الإغوائي.

ردّت آينور وهي ترجع خطوة إلى الخلف:

– إن كنتَ على ثقة بإلهامك يا سيد نارت، فباستطاعتك عرض ابتكاراتك التصميمية التي تعتقد أنّها يمكن أن تكون مقبولة هنا على السيد هايس.

تعلّق سعيد أفندي السعرتي بنارت الشركسي بعد أن جمعت بينهما عضوية العديد من الجمعيات الثقافية، وقد استمع إليه وهو يرتجل محاضرة عن تأثيرات الثورة الفرنسية في الأزياء الأوروبية، وصادف أن حضر محاوراته مع خرّيجي جامعة إسطنبول الذين انبهروا بما كان يقوله عن قدرة الأناقة العقلانية على تجديد الوعي البشري، والحثّ على إنتاج أفكار خلاقة. كان كلٌ منهما يتوقع دائماً رؤية الآخر في نشاطات الجمعيات فيواصلان، بحماسة، الحديث عن التجربة الأوروبية في جعل الحفاظ على البيئة من السمات السلوكية لسكّان المدن، ويتداولان تصوّراتهما عن الاختراعات التي ستغيّر العالم. كان سعيد أفندي السعرتي يلاحظ كيف يولي نارت المنطقة المحيطة بمتجر رودولف عناية دقيقة، فهو يراقب الحديقة المجاورة، ويعتني بسقايتها، وبسلامة الإجراءات الصحّية لبائعي الأطعمة الجوّالين الذين يقفون أحياناً على الرصيف المطلّ على النهر. وكان

عمّال التنظيف يباشرون عملهم في الفجر من أمام متجر رودولف، ويحرصون بكلّ همّة على إرضاء الشركسي الذي يمنحهم البقشيش كلما كان الهواء نقيّاً. كان زكريّا الكوّاز يبلغ آينور بكلّ نشاطات نارت في حيّ الإنكليز في الجانب الشرقي من المدينة منبّهاً إلى نموّ علاقته بمعاون القنصل الفرنسي فيكتور دولاباس. لم تكن آينور ميّالة إلى الحساسية الشديدة التي تبديها تشكيلات يلدز الاستخباراتية لكلّ ما يحيطها. يومها كان زكريّا قد شعر باختلاف الجوّ حين أجلسته آينور في غرفة القعدة المؤثثة على الطريقة التركية، كما أدرك أنّها ميّالة إلى الخروج عن التزامات المهمّة التي تجمعهما. كانت ترتدي ثوباً من صوف الكشمير البنّي مطرّزاً عند البطن بترتر أصفر. قالت آينور لحظة أن أحضرت بريتا القهوة:

– نارت لا يفكّر بمتعته. إنّه يسعى إلى أن يصدّقه الناس. هذا ما تتطلبه مهنته ورضاي عنه، ولكنني لست متيقنة إن كان فعلاً يحبّ الصدق. أنا هنا في الموصل لأنَّ السلطان عبد الحميد حدّثني من قلبه. لا يهمّني رضى السلطان عنّي، بقدر ما يهمّني إيماني بكلامه. نارت يبيع جيداً، هذا ما على تشكيلات يلدز الاستخباراتية إدراكه، لذلك هو يفكر بعدد البدلات التي سيبيعها لمعاون القنصل فيكتور دولاباس، أما فرنسا نفسها فهي لا تهمّه.

سألها زكريّا بصوت هادئ:

– وأنا.. بماذا أفكّر؟

ردّت وهي تنظر في عينيه:

– عليك أن تعود لتفكّر بالمهترخانة يا سيّد زكريّا.

***

لم تستجب آينور لنصيحة تشكيلات يلدز الاستخباراتية بعدم التجوال فجراً في منطقة باب الجسر، ما دفع زكريّا الكوّاز إلى مضاعفة حراستها عن بعد، كما أنَّ الجندرمة أخذت تفتش المباني القريبة وتشدّد المراقبة، وأخضع تابور الحبشي لتدريبات على أسلوب حماية ظهر آينور عند المشي، والوضع الذي يُستحسن أن يكون عليه في حالة التوقف عن السير، وكيف يضبط مسافاته في الأسواق المزدحمة. كان زكريّا معجباً بقدرة آينور على الاسترخاء رغم علمها أنّ العديد من عناصر يلدز يتحرّكون بالقرب منها وهم في أقصى حالات الانتباه. الشيء الوحيد الذي قبلت آينور الالتزام به هو تحديد يوم الأحد لزيارتها مبنى البلدية. كان نارت الشركسي قد أقنع سعيد أفندي السعرتي بتخصيص أزياء موحّدة لعمّال نظافة البلدية، ولفرق الطبابة، وشعبة التفتيش. تحمّست آينور حين فاتحها رئيس البلدية بالأمر، وطلبت منه التركيز على الإلهام، لجعل تصانيف الأزياء مثيرة للزهو وقادرة على تعزيز التباهي. بقي الإحراج عالقاً على وجه السعرتي الذي ترك مكتبه وجلس على الكرسيّ قبالة آينور قائلاً:

– مجلس البلدية لا يتفهّم ضرورات الإنفاق على أمور كهذه ولا حتى الوالي.

قالت آينور وهي تحرّك يدها بالرفض:

– دعك من هؤلاء الأغبياء، ولا تفكّر بالنفقات، وعليك أن تقبل الأزياء الموحّدة هديّة منّي.

انشرحت ملامح سعيد أفندي السعرتي، وتشجّع قائلاً:

– التقارير الأخيرة للجندرمة قالت إنّ لمبات الغاز التي أنرنا بها الشوارع جعلت الجريمة الليلية تنخفض إلى أدنى حدّ، وهذا شيء مفرح، وقد حدث بفضلك آينور هانم، والحقيقة أنّني أعجبت بفكرة السيد نارت لأنّها تصبّ في دائرة تطلعاتي. نحن بحاجة إلى مشاريع

ضخمة مثل تصفية مياه النهر، ومدّ شبكة أنابيب للشرب، وإدخال الكهرباء، وتحسين الطرق. كلّ هذا يحتاج إلى أموال طائلة، والوالي لا يريد التصرّف بالواردات، بل يرسل كلّ الأموال إلى إسطنبول حتى يرضى عنه الباب العالي.

قالت آينور وهي تبتسم:

– أنت تفكّر بالسلطان عبد الحميد والإمبراطور فيلهلم.

– هذا صحيح ولكن ليس إلى درجة الطمع.. لقد سمعت أنّ الألمان سيفتحون قنصلية في الموصل، ونحن نتطلع بعد إنجاز مستشفى الغرباء إلى أن يُبنى الجسر الحديدي، والحقيقة هذه الأحلام لها ما يبرّرها الآن. أنت أخرجت جمعية العِلم من السرّية إلى العلن، وتدخلت من أجل أن تفتح جامعات إسطنبول أبوابها لشبابنا، وأبعدت عن الجمعية تهمة الولاء للإنكليز، وجعلت السلطان يغيّر موقفه بعد أن كان يخشى أصحاب الشهادات العليا.

تساءلت وهي تنظر إلى يديها:

– كيف عرفت هذا؟

– من الوالي.. هذا الأمر لا يجوز أن يبقى سرّاً.

– يبدو أنّ موقفك من الألمان تغيّر سيد السعرتي.

أرجع جذعه إلى الخلف، ومسح على لحيته البيضاء الخفيفة قائلاً:

– بلداننا لا تنمو ولا تتقدّم وليس لها زمن. إنّها ترقص يميناً وشمالاً تفادياً لبرك الدم. نحن تراب وخرائب وجهل وجوع فقط. إذا ما حضر الألمان إلى هنا فإنَّ الإنكليز سيكونون أكثر رحمة بنا عند احتلالهم الموصل.

انكمشت ملامحها:

– لا أحبّ أن تتكلم بهذه الطريقة.. اسمع يا سيد السعرتي.. سوق الألمان بحاجة إلى محطة للعربات.. محطة تكون أنيقة، وجميلة، وعصرية.. أعتقد أنّنا بحاجة إلى خمسين عربة. الفرنسيون يجيدون صنع العربات السياحية الجميلة.. ادرس المشروع وأبلغني بكلفته كي أتبرّع لكم بالمبلغ.. علينا تجميل وسط المدينة بما يليق بالقرن العشرين.

شكرها سعيد أفندي السعرتي بوجه بشوش، فعادت آينور لتقول:

– أحتاج إلى وقت طويل كي أنجز ما في رأسي، ولكنني أعدك بأن أعمل على تحقيق أحلامك.. أنا أفكر بالجامعة يا سيد السعرتي.. صحيح أنّ الألمان فقط من يمتلكون النزاهة في فتح جامعة علوم هنا، ولكن لا أريدك أن تضع كامل ثقتك بهم.. فكّر بما يمكنك فعله ولا تنتظر.

– ولكنك تعملين لمصلحة ألمانيا، وحققت لنا كلّ هذه المنافع الجليلة.

قالت آينور بانزعاج:

– هذا ليس صحيحاً يا سيّد السعرتي.. أنا أعمل لمصلحة هذه المدينة العفنة التي يبدو أنّني أحببتها.

ظهر الارتباك على وجهه، فعادت آينور لتقول:

– المعذرة سيد السعرتي.. أنت تجلس على بوشيتي.

الموصل

أوائل 1904

مستشفى الغرباء

افتُتِحَ مستشفى الغرباء في باب سنجار بعد ثلاثة أيّام من تعيين الوالي الجديد مصطفى بك. جرت المراسم في جوٍّ غائمٍ ما لبثَ أنْ تحوَّل إلى أمطارٍ رعدية فلمْ يحظَ بالظهور على المنصّة سوى حافظ قرآن ضرير في السادسة عشرة من العمر. كان المستشفى يسع ثلاثين سريراً، ويحتوي على غرفتي عمليات، وبجناحين نسائي ورجالي، وقد ألحقت به بناية صغيرة من غرفتين استقرّ في إحداهما جهاز أشعّة أكس. أمّا البناء فبدا مغلفاً بالحجر من الخارج وعلى الطراز العثماني، تحيطه من كلّ أركانه حديقة دائرية جيّدة التنسيق يحدّها سياج حديدي يوحي بالفخامة، وقد وُضعت في خدمة المستشفى أربع عربات صندوقية طويلة تجرّها الخيول وُزّعت بين محطتين قريبتين لنقل المرضى بالمجّان.

كان قرار تعيين الطبيب جرجس غزالة مديراً لمستشفى الغرباء قد صدر بضغط من آينور هانز قبل إعفاء نوري باشا من الولاية بشهرين، كما حصلت من المجلس الإداري على قرار خفض أجور العلاج والعمليات إلى النصف مدّة خمس سنوات، إذ أُخذ في الاعتبار تكفّل الإمبراطور فيلهلم الثاني بإرسال شحنات كبيرة من الأدوية،

فضلاً عن تنسيب جرّاحين اثنين من برلين للعمل في المستشفى. وعشيّة الافتتاح أشادت جريدة «موصل» على مساحة عمود بجهود سيّدة الأعمال آينور هانز في إلحاق الموصل بركب الحضارة، وقالت الجريدة إنّ هذه السيّدة المباركة أدخلت مدينة الموصل التاريخ من بوّابة المجد وجعلتها المدينة الأولى في العالم التي تستخدم جهاز المخترع العظيم فارس جائزة نوبل في الفيزياء العبقري الجليل فيلهلم رونتغن، وانتقدت الجريدة برود الولاية إزاء هذا الحدث المعجزة، وطالبت بمحاسبة المسؤولين عن صمت المدافع والمهترخانة.

***

قبل عزل الوالي نوري باشا بأسبوع، خسر سعيد أفندي السعرتي انتخابات المجلس البلدي، وما إن تولى محمود بك آل شريف رئاسة البلدية حتى توقف التعامل مع شركة رودولوف، وعادت لجنة الطبابة تطالب آينور هانز بتقديم شهادات سلامة مهنية. تدخّل الطبيب جرجس غزالة، وقدّم لطبابة البلدية تقريراً يثبت عدم خرق آينور هانز لقواعد العمل الطبّي، محيلاً أمر الإشراف على عيادتها إلى مستشفى الغرباء.

بدا السير هنري هانسفورد سعيداً بتغيير الوالي ورئيس البلدية، وقال لآينور وهما في مقهى كاندريان إنّه كان باستطاعة نوري باشا البقاء لسنتين قادمتين، ولكنّه لم يُحسِن استخدام عقله. لم تشعر آينور بالانسجام مع جوّ المقهى، ورغم أنَّ الإنكليز استقبلوها بالصخب السابق نفسه، ورفعوا بحركة موحّدة بنطلوناتهم عن كواحلهم، وصاحوا بالعربية «كلنا نرتدي جوارب رودولف»، ومازحوا شاؤول جلعادي الذي تلقّى منهم الكثير من اللكمات التحبّبية، ورغم أنّ كاندريان عبَّر عن فرحته برقصة قردية، وقبّلها وهو يحذّر

السير هنري هانسفورد من تعكير مزاجها، لم تكن قادرة على إيجاد ما يشدّها:

– ألا ترى معي أنَّ المدينة بحاجة إلى مشاريع ترفيهيّة.. إلى شيء يزيل هذا الشحوب الحزين؟

ارتجفت يد السير هنري هانسفورد وهو ينقلها من مسند الأريكة إلى فخذه:

– أنتِ تفسدين الموصل. الفرح لا يناسب هؤلاء. إنّهم يتجهّزون للقبر. هكذا هي حياتهم.

انتبهت آينور إلى وجه شاؤول الذي عصره الانتباه:

– أنتَ مخطئ.. حتى لو تظاهروا بهذا، وخجلوا من عين الله، فإنّهم ليسوا بهذا الحزن أبداً.. الحياة تتضاءل حين تقلّ معرفتنا بها.. اجلب لهم شيئاً جديداً وستكتشف أنّهم مثلنا تماماً.

قال السير هنري هانسفورد وهو يطلب بإشارة من يده المزيد من الويسكي:

– أنتِ حزينة لفقد السعرتي.

احتدَّت نظراتها وهي تقول بالفرنسية:

– روحك سوداء يا هنري.. أظنّك في يومٍ ما سَتُطلقُ الرصاصَ عليَّ.

ضحك قائلاً:

– أنتِ تجاملين وحشيّتي.. قطعاً لا يكفيني هذا.

تساءلتْ بجديّة:

– لماذا؟

أجابَ بعدَ أنْ تنفَّسَ بعمق:

– لا أدري يا آينور.. ربّما لأنّكِ الأنثى الوحيدة في هذا البلد الميت.

***

سمح الطبيب جرجس غزالة لخمسة شبّان من أعضاء جمعية العِلم برؤية جهاز أشعّة رونتغن والمولّد الكهربائي الملحق به، وأطلعهم على عمل الصمامات الكادوثية وكيفية التعجيل والكبح، وإنتاج أشعّة لها قدرة عجيبة على اختراق أنسجة الجسم، وآليّة التصوير، وأهمّية هذا الجهاز في المجالات الطبّية، ووعد بأن يقدّم في مقر الجمعية محاضرة يتكلم فيها عن رحلته إلى ألمانيا، وعن الأيّام الثلاثة التي قضاها في مختبر رونتغن. بعدها بيومين عقدت الجمعية اجتماعاً للهيئة العامّة، ووجّهت رسالة احتجاج إلى الوالي مصطفى بك لأنّه رفض، أثناء افتتاحه مستشفى الغرباء، المرور بقسم أشعّة إكس، ورأت في هذا إهانة كبيرة لقيمة العلم في الحياة، ودلالة على معاداة التطوّر والتقدّم. لم تمض سوى ساعات حتى أغلقت الشرطة مقرّ الجمعية في باب الطوب، وأصدرت أمراً بمنع كلّ النشاطات.

لم يسمح خليل آغا لآينور هانز بالصعود إلى الطابق الثاني من مبنى السرايا قائلاً إنَّ عليها الانتظار إلى الثلاثاء المقبل لمقابلة الوالي. رفعت البوشية، واندفعت نحوه بملامح متشنّجة، فتراجع حتى مال مستنداً إلى الدرابزين خشية السقوط:

– يا هانم، الوالي يعتذر عن المقابلات لانشغاله الشديد.

قالت آينور بصوتٍ عالٍ أوقفَ الجميع خلفها عن الحركة:

– أبلغ واليك أنّه أهان إمبراطور ألمانيا العظمى بإغلاقه جمعية العِلم، وأنّني أمهله حتى صباح الغد للرجوع عن قراره، وإلّا فإنَّ احتجاجاً شديداً سيصل إلى السلطان المعظم.

صعد خليل آغا درجة، وقال بصوتٍ مرتجف:

– يا هانم، الوالي أغلق الجمعية فقط ولم يعتقل الهيئة الإدارية. فعلَ ذلك لأنّه يحترم الإمبراطور كثيراً، ويعزه.

شدَّت على أسنانها قائلة:

– كم أنا نادمة لأنّني لم أترك الحبشي يذبحك.

في السابعة مساءً، وصل شاؤول جلعادي إلى بيت البهجة متأخّراً نصفَ ساعة. كان زكريّا الكوّاز قد سبقه، وعرض على آينور عزل الوالي وإعادة سعيد أفندي السعرتي إلى رئاسة البلدية. أخبرته بأنها لا ترغب في تصحيح أخطاء تشكيلات يلدز الاستخباراتية بهذه الطريقة، وأيّ مشكلة مع السرايا ستجعل السير هنري هانسفورد يُظهر أنيابه. حافظ شاؤول جلعادي على صمته وهو يجلس قرب الباب في غرفة القعدة، يستمع إلى ما يدور بين آينور وزكريّا، وحين وصل الكلام إلى ما سيفعله الوالي في الغد قال شاؤول جلعادي بهدوء:

– أزال الوالي، قبل ساعة، الشمع الأحمر عن باب الجمعية.

التفتت آينور بحركة سريعة، وتساءلت بانزعاج:

– لماذا انتظرت كلّ هذا الوقت لتخبرنا؟

ردَّ بارتباك وهو يتحسّس باطن طربوشه:

– كنت أفكّر بما سيفعله الوالي في الأيّام المقبلة. لقد تصرّف بذكاء وألغى قراره في الليل. أنا تأخّرت لأنّني ذهبت أولاً إلى باب الطوب للتحقق من الخبر الذي أبلغني إيّاه خليل آغا في الشركة.

بانَ القلقُ على وجه زكريّا، فقالت آينور وهي تغيّر مكانها، وتجلس في الجهة المقابلة على أريكة مغطاة بالسجّاد الخفيف تتوسّط المسافة بين الكوّاز وجلعادي:

– في الغد أريدكَ يا سيد جلعادي أن تمنح جمعية العِلم مبلغ خمسة آلاف قرش دعماً من شركة رودولف.

قبض شاؤول على طربوشه ونهض قائلاً:

– تصادف، بعد غد، الذكرى السنوية الأولى لتأسيس الجمعية.

قالت وهي تنظر إلى الأرض:

– حسناً.. اجعلها بعدَ غدٍ.

حين أغلق شاؤول جلعادي الباب خلفه قالت لزكريّا بصوتٍ واهنٍ:

– هذا هو الخطأ الثالث لكَ.

قال بكفّين متعرّقتين:

– أنا جئت إلى هنا قادماً من السرايا.. لا أحد تكلَّم في الأمر. رأيت خليل آغا، ولكنّه لم يخبرني.

نظرت إليه طويلاً:

– قل إنّك كنت تفكر بي.

تردّد قبل أن يردّ:

– أعترف بهذا.. كنت أفكّر بك.

سارعت آينور إلى القول قبل أن يعقّب بجملة أخرى:

– اسمع يا زكريّا.. شبح رودولف الحزين عاد ليظهر مجدّداً في صحوة أرقي.. أنا في الثالثة والثلاثين من العمر. امرأة عجوز بمهبل يابس، وخشن.. لا تفكّر بالمهترخانة.. لا تفكّر بها مطلقاً.

هانيساكل

تلجأ جليلة إلى وحدتها كلما انشغلت آينور بشبح رودولف. تستلقي في البانيو الإمبراطوري الجافّ بعد أن تشعل شمعة بعيدة، وتغلق عليها ستارة الترتر. تقضي الاستراحات مشغولة بالصمت الذي في أذنيها. تتحسّس نفسها وهي يقظة لكلّ ما يعبِّر عنه جسدها. تنتبه لقرقرات أمعائها، وتحسب مرّات تبوّلها، وتترقب تهيّجات الحكّة في كلّ طيّاتها الجلدية. تفرح بخفتها في منتصف الأوقات، مستمتعة باكتفائها الكامل، وسكينة جسمها. كانت غرفة البانيو تمنحها وقتاً خاصّاً، وتشعرها بأنّها تملك حياتها. كان انفرادها بنفسها لا يقلق آينور ما دام لا يؤثر في الأوقات المخصّصة لمعالجاتها الطبيعية، ولا على ما تحيله إليها من حالات عاجلة. أجادت، مع الممارسة، تحديد الحاجة التدليكية لكلّ مريضة، وكانت لها القدرة على استشعار حرارة النساء، وإدراك التحسّن الذي تحرزه العافية. جلبت خزانة، وأوعية من الفخار لعجائن ابتكاراتها العشبية، وتركيباتها المرهمية، وكثيراً ما كانت تكذب على أمّها، وتدّعي مرض آينور لتبيت عندها لأيام. تستغلّ انقباضات الليل لابتكار خلطات تحدّد لاحقاً استعمالاتها من إيحاء الرائحة واللون. كانت آينور تطلب منها البدء بالماء والملح مع النساء

النِفاس، وتدلّها إلى الأنسجة الأنثوية الأكثر رخاوة، وتعلمها كيفية قراءة متغيّرات الجسد واستجاباته. كانت تقول لها دائماً إنَّ العلم جاء من المصادفات، والهمّة المجنونة، وتنبّهها إلى أنَّ كلّ امرأة تختلف عن الأخرى بدرجة تصديقها للحبّ، وأنَّ النساء السريعات في الشفاء هنّ الأكثر متعة. كبرت في جليلة قدرتها على استعمال أصابعها، وأدركت سريعاً أنَّ تعاسة الناس تكمن في جهلهم بطاقتهم الجسديّة، وعرفت أنَّ الزواج إجهاد وفقر، والحبّ غنى وانتعاش، والمرض منطقة متضرّرة تراها العين، ولغة تجيد الشكوى. كانت تحسّ بعقلها يكبر، وبأنَّ ما أدركته في غرفة البانيو لا يمكنه أن يولد في مكان آخر. وحين قالت لآينور إنّها تحبّ الجدران ردّت عليها بأنَّ رودولف كان يحبّها أيضاً لأنّها تبقي الناس الذين لا نحتاج إليهم في الخارج.

لا تعرف جليلة كم يبلغ أجرها الشهري، وما هي الزيادات الداخلة عليه، فهي تسلمه إلى أمّها من دون أن تأخذ منه شيئاً. كانت آينور تتكفّل بكلّ مستلزماتها من الملابسَ، وتشركها في جميع الاحتياجات، ويحقّ لها مثل بريتا، وشكرية، والبائعات، أخذ ما يعجبها من بازار بيت الرغبة. تصحبها آينور إلى متجر حسين الطاهر، وتترك لها حرّية اختيار الأقمشة التي تحبّ، وحتى لا تتذمّر بريتا، وتستقلّ جليلة عنها، جلبت لها خزانة ثياب ووضعتها في غرفة بانيو الإمبراطور.

لم تكن صلتها بمجموعة هبوط الرحم تتعدّى الانضباط العلاجي، إلّا أنَّ جليلة كسبت الكثير من العلاقات مع المتزوّجات الصغيرات في السنّ، والمطلقات الشابّات. كانت آينور تخمّن ما وصلت إليه جليلة من خلال الأسئلة التي توجّهها، أو الاستشارات التي تطلبها. وحين بدأ مستشفى الغرباء بالعمل كانت الحالات التي تتطلب علاجاً طويل الأمد يحوّلها الطبيب جرجس غزالة إلى آينور

التي بدورها كانت ترسل مريضاتها المحتاجات إلى تدخلات جراحية إلى المستشفى، وبذلك تعدّدت نشاطات بيت المتعة إلى حدّ أنَّ آينور فكرت ببناء غرفة تتّسع لسريرين إلّا أنّها تخلّت عن الفكرة خشية أن ينزعج رودولف.

حققت جليلة نجاحات متواصلة في مراهم تضييق المهبل، وزيادة الرغبة الجنسية، وفي تنحيف البطن، ومعالجة التقرّحات الشرجية، وتمكّنت من إيجاد علاجات عشبية للإفرازات المهبلية الحليبية، والخضراء، ورصد كلّ المتغيّرات الشهرية للحمل، وباتت تفرّق بين الأوجاع ذات الدلالات المرضية، وبين المضايقات الوهمية بسبب كبر حجم الجنين، وكان بانيو فيلهلم يحوز كلّ الاهتمام لأنّه يعني للجميع القدرة العجيبة على الشفاء التام.

كانت جليلة تنصح مريضاتها بزيارة بازار بيت الرغبة، لأنّها تراه يكمّل العلاج، ويجعلهنّ أكثر شغفاً بالتحسّن، فكنّ يتجهّزن بموعد جماعي للانتقال عبر السرداب إلى البازار. يسرن خلف جليلة بكلّ انضباط، يتحلّقن حولها، ويستمعن باهتمام إلى كلماتها الهامسة التي تعدُّ الأقمشة زينة وعلاجاً. أثار الأمر قلق المراقِبة شكرية التي تكلمت بتشنّج مع آينور، مطالبة بإغلاق السرداب لأنّها تخشى تهريب الملابس الداخلية غير الشرعية، فغيَّرت جليلة مخططاتها، وأخذت تملأ خزانتها بالكثير من الموديلات الإغرائية، فرحن يقسنها في غرفة البانيو، ويستعرضن أجسادهنّ أمام المرآة في جوٍّ من المرح، وكان هذا يشجّعهنّ على شرائها بالتقسيط، ويدفع جليلة إلى تقليد آينور في تقديم الإرشادات، وفي تنشيط المخيّلة. كانت تنتظر مغادرتهنّ لتجرّب هي الأخرى قياس الملابس الداخلية. تختار قطعة تنزل بها إلى عمق البانيو الجافّ، لكن لا شيء يأتي ببالها سوى آينور، وهي مستلقية بعريٍ كاملٍ في فراشها.

لم تستعمل جليلة بانيو الإمبراطور إلّا مع اللواتي يصغرنها كثيراً في السنّ، وتجد أنَّ أجسادهنّ تحتاج منها إلى تمعُّن زائد. تختلق العديد من الأسباب وتجري التغطيس في جوٍّ قليل الضجّة. تضيف إلى الماء قطرة من عطر هانيساكل الذي كانت آينور قد أوصت تاجر القماش حسين الطاهر بأن يجلبه لها من متجر غولاب سينغ في مدينة دلهي، وأهدت زجاجة منه إلى جليلة. كانت تلك القطرة من العطر تتجاوب مع لمعان الترتر في الستارة فيتحرّك الزيت الذهبي الطافي منجذباً إلى الجسد، ويعلق في أصابع جليلة التي كانت تبدأ بالرقبة، وتنزل إلى الثديين، والبطن، والمهبل، صعوداً وهبوطاً، في انزلاق دافئ ينعش الحواسّ، ويستنطق الأنفاس في همهمات تعصرها اللذة.

أول ما يشدّ انتباه آينور هو مشية جليلة، فحين تكون مأخوذة بتصوّرات رأسها، ومنفلتة عمّا حولها، تعرف أنّها انزوت بعيداً عن العالم، وعادت إلى عذاباتها القديمة. كانت كثيراً ما تلوم نفسها لأنّها جرّتها إلى دنياها، وأبعدتها تماماً عن الرجال، وتجد أنّها قست عليها بأن جعلتها تبدو مثلها، مشدودة إلى واجب ثقيل لا ينتهي. وأصعب ما كانت تعانيه هو البعد الذي ينشأ بينهما حين يعود شبح رودولف للظهور مجدّداً، ومعه يتجلّى الحياء. كانت تعرف أنَّ هذا يؤلم جليلة لأنّها تعيش بلا شبح، ولا تقدر أبداً على التواصل مع ذكرى واهية وبعيدة.

حين جاءتها جليلة وطلبت منها أن تقصّ على صديقاتها المريضات شيئاً ممّا عاشته ورأته في برلين وإسطنبول، سألتها آينور:

– لماذا تريدينني أن أفعل هذا؟

ردَّت ساهمة وكأنّها نسيت الغاية من طلبها:

– الأشياء التي لا نستطيع التأكد من صحّتها، تمنحنا الفرح، والسعادة، وتبقى في دواخلنا.. الأحلام التي لا تتحقق لا تزول ولا تعتق.

– ما أعرفه أنا قد لا يُعْجِب صديقاتك، أو قد يفهمنه بشكل مختلف.

قالت، وقد استعادت فكرتها:

– حدّثيهنّ عن جمال الرجال والنساء في أوروبا.

– عن الحبّ مثلاً؟

– نعم.. هذا هو.. الحبّ.

***

أفردت جريدة «موصل» صفحة كاملة لوقائع محاضرة جمعية العِلم عن جهاز أشعّة إكس لمخترعه الألماني العظيم فيلهلم رونتغن، واصفة الطبيب جرجس غزالة بفتى الموصل الهُمام الذي رفع اسم الدولة العليّة في المحافل الدولية، ووضع بمباركة السلطان عبد الحميد الثاني المعظَّم أسس البناء العلمي الجديد في بلاد ما بين النهرين. وقالت الجريدة إنّ شباب الجمعية خرجوا إلى الشوارع مبهورين بما تحقق، هاتفين باسم جلالة السلطان الذي يسعى بكلّ إصرار إلى تمهيد الطرق نحو تلقي العلم. وأضافت أنّ الأوان قد آن لتكون في الموصل المحروسة جامعة تحتضن العقول الفوّارة، والهمّة المدرارة، لتشارك هي الأخرى في صناعة المستقبل.

كانت جمعية العِلم التي أعلن عن تأسيسها عام 1903 تضمّ خمسين عضواً حصل ثلثهم على شهادات جامعية من إسطنبول. لم تكن تشكيلات يلدز الاستخباراتية راضية عن إعلان التأسيس، إلّا أنَّ آينور هانز حثّت زكريّا الكوّاز على إيصال رغبتها إلى السلطان عبد

الحميد الثاني. بعدها بشهر كلف الوالي نوري باشا رئيس البلدية سعيد أفندي السعرتي بمفاتحة الشخصيات الموصلية التي حصلت على تعليمها العالي من إسطنبول لتأسيس جمعية باسم العِلم، وحين تساءل السعرتي عن الشروط التي ستفرضها الدولة العليّة على الجمعية، وعمّا إن كانت هناك قائمة بالأسماء التي سيُطلب منها عقد مؤتمر التأسيس، ضحك الوالي قائلاً:

– لا توجد قائمة بالأسماء.. اطلب من أصدقائك السرّيين الظهور إلى العلن، والشرط الوحيد للدولة العليّة هو أن يقبل الأعضاء بأن يُنعم السلطان المعظّم عليهم بمقرٍّ لائقٍ، وبمبلغٍ من المال.

لم يمض سوى شهر واحد على إشغال مبنى الجمعية حتى جاءت مُحسِنة، واشترت الأرض المجاورة، وبنت جامعاً باسم قدرية خاتون. وحين طلبت آينور هانز من زكريّا الكوّاز التحرّي عن هذه المُحسِنة، قال لها على الفور:

– لا حاجة لذلك يا هانم.. إنّها هيلدا الإنكليزية، الزوجة الثالثة للسيد حسين الطاهر.

***

جاء الطبيب جرجس غزالة إلى بيت البهجة في الخامسة مساءً برفقة شاؤول جلعادي. وجدته مصقولاً أكثر من أيّ وقت آخر، ووجهه يشعّ صفاءً، ووسامة، وأسنانه بيضاء، ويبدو عليه أنّه تخلّص من الأعباء وأصبحت له القدرة على التحليق كطير. أهدى حقيبة أدوات طبّية لآينور، وعلبة من الشوكولاتة السوداء لجليلة، معتذراً عن التأخير لأنَّ قسماً من حقائبه فُقد في ميناء البصرة، ولم تصله إلّا أمس. فتحت آينور الحقيبة المستطيلة والتفتت إلى الطبيب جرجس غزالة متسائلة والصدمة بادية على وجهها:

– أتعرف كيف تستعمل هذه الأدوات؟

ردَّ بخجل:

– توجد نشرة في الجيب تشرح استخداماتها. آسف.. لقد توقعت أنّها ستفيدك في العمل. هذه هي الحقيبة التي يحملها طبيب النسائية الآن في ألمانيا. وقد سمعت أنّها مستخدمة في كثير من الدول الأوروبية. على الجلد من الخارج يوجد حفر للرقم أربعة باللاتينية. إنّه عدد المرات الذي تطوّرت فيه هذه الأدوات، لذلك يحرص الأطبّاء هناك على حمل أحدث الحقائب الطبّية. شكلها الجذاب يمنحهم صفة الحداثة، و يدفع الناس إلى الثقة بهم.

ضحكت قائلة:

– أمزح معك يا دكتور.. لقد فوجئت لأنَّ هذه الأدوات أصغر بكثير من التي كنّا نستخدمها في توبنغن. يبدو أنَّ الكثير فاتني وأنا هنا.

جاراها بخفّة الدم:

– معكِ حق.. أنا أيضاً فوجئت بصغر أحجام الأشياء.. حتى الخيول هناك أصغر حجماً من التي عندنا.

ابتسمت بمبالغة:

– أردتك أن تقول لي إنّ الطبّ تطوّر يا آينور. يعجبني أن أسمع منك الأخبار المفرحة.

شكرها ثمّ استرجع وقاره قائلاً:

– لقد تطوّر الطبّ حقاً يا مدموزيل آينور.. لا يمرّ يوم بلا مفاجأة مذهلة.. في ألمانيا يخلقون المعجزات في كلّ يوم..

قاطعته بغمزة من عينها:

– انتبه لكلامك يا دكتور.. السيّد جلعادي لن يقبل.. الله هو الخالق وصانع المعجزات.

رفع شاؤول جلعادي حاجبيه مستغرباً، فتشجّع الطبيب جرجس قائلاً:

– مدموزيل آينور.. لقد رُكّبت كلّ أجزاء جهاز أشعّة إكس، وهو جاهز للعمل الآن، وأنا جئت أطلب منك أن تمنحينا شرف تصوير يدك إشعاعياً لتكون أول صورة ملتقطة في تاريخ الموصل.

قالت آينور بارتخاء:

– أشكرك دكتور غزالة، لكنّ زوجة رونتغن ألبرت كوليكر سبقتني إلى هذا، وأنا لا أحبّ تقليد أحدٍ.. لا تخسر الصورة الأولى، واجعلها لمريض يحتاج إلى العلاج.

الموصل

حزيران وتمّوز 1905

الشطرنج

«لقد كبرتُ كثيراً يا أمّي، وأخاف ألّا تعرفيني».

أرسلت آينور هذا التلغراف إلى ناريمان من دون أن تطلب منها تشكيلات يلدز الاستخباراتية ذلك.

***

أخذت اتصالات زكريّا الكوّاز بآينور تجري نهاراً. يجلسان في حوش بيت البهجة لمدّة وجيزة. يتبادلان الكلام بصوتين ناشفين من دون أن يغاليا في التأثّر. يقدّم تابور له القهوة التركية حين تكون بريتا مشغولة في بيت البازار، وكان لا يفعل ذلك إلّا إن اشتهى أن يشربها معه. يعجبها زكريّا بشدّة التزامه بحدوده. حركاته قليلة، ولا يستعمل ذراعيه في مراوغات الكلام، ليست لديه تمهيدات، ولا يردّد الكلمات نفسها. لغته مثل التلغرافات والتقارير الموجزة. كانت تعرف، كلّما تكلّم، أنّه قال كلّ شيء.

سألته، وهي تحافظ على استقامة ظهرها:

– أين وصلت فكرة القنصلية الألمانية؟

ردّ وهو مشدود الأعصاب:

– لم تعد فكرة. ستكتمل البناية التي بقرب البنك الإمبراطوري العثماني في الشهر المقبل، وسيرتفع فوقها العلم الألماني.

قالت ببرود:

– لا أعرف أيّ أحمق فكّر في هذا. إنّها غير مهمّة أبداً.

ركّز نظره على الحبشي قائلاً:

– افتتاح القنصلية يعني نجاحكِ يا آينور هانم. أنتِ من أدخل هذا العدد الكبير من الألمان إلى الموصل. أنتِ من دفع الخارجية الألمانية إلى فتح قنصلية هنا. ستتغير الأمور كثيراً، كما أنَّ وجود القنصل الألماني سيساعدكِ في الكثير من الأشياء.

أطرقت آينور، فعاد زكريا ليقول:

– الطبيب جرجس غزالة يتعرَّض لمضايقات كبيرة. أمس رمى فتيان عربته بالحجارة بعد خروجه من المستشفى. نحن رفعنا إلى مقام السلطان رأينا بالوالي مصطفى بك. السير هنري هانسفورد زار السرايا ثماني مرّات الشهر الفائت، واتصالاته مع خطباء الجوامع تـزداد. أعضاء جمعية العِلم يتعرّضون لمضايقات، ونحن نشكّ في الوالي.

بقيت آينور تنظر إلى ساقيها الممدودتين، فعاد زكريّا ليقول:

– خبراء زراعـة القطن في بلدة برطلة الآن. هـذه المعلومة جاءتني من شاؤول جلعادي، ولا أعرف ماذا يدور في رأسك بشأنهم.

سألته:

– على أيّ آلة موسيقية تجيد العزف؟

بدا عليه الضيق وهو يردّ:

– لم أعد أذكر.

قالت بنبرة طفولية:

– عليك أن تتذكّر وتخبرني في الزيارة المقبلة.

***

في العاشرة صباحاً، خرجت آينور وبرفقتها جليلة من باب بيت بازار الرغبة، وسارتا باتجاه حيّ حمّام المنقوشة. رفضت أن يتبعها تابور، وأمرته أن يبقى على سطح بيت البهجة، يلاعب الحمام لساعة، ثمّ يذهب بعدها إلى السوق، ويشتري لحماً، وخبزاً، وبصلاً. كانت آينور قد استبدلت ملابسها، وبوشيتها، وبابوجها، لتبدو كامرأة بسيطة. لم تنطق بحرف في الطريق، تاركة جليلة تحكي عن هموم الحياة، والغلاء، وتربية الأولاد، أو تصمت حين تكونان بمفردهما تحت الشمس الحارقة. كان بيت الشيخ سعد الدين آل دبّاغ ببابين، ومن سطحه تتدلى الرايات الخضر. اختارت آينور طرق الباب الأصغر، ففتحته بعد لحظات امرأة في الثلاثين مكشوفة الوجه، وكمّاها مرفوعان. قادتهما إلى غرفة عالية مفتوحة الشبابيك، ومفروشة ليكون الجلوس على الأرض. عادت المرأة لتقدّم لهما شراب عرق السوس البارد، فبادرت جليلة إلى القول وهي تشير إلى آينور التي بقيت بالبوشية:

– أختي تريد استشارة الشيخ سعد الدين في أمر شرعي.

رفعت المرأة كفّها اليسرى بحركة زعنفية موجهة كلامها لآينور:

– أبي في الغرفة المجاورة.. يمكنك الذهاب إليه.

وجدت الباب مواراباً. كان الشيخ سعد الدين في السبعين. نحيفاً، بلحية بيضاء خفيفة وأنف كبير. حاسر الرأس، يرتدي ثوباً كحلياً. يجلس على الأرض، وأمامه كتاب مفتوح على حامل خشبي. ابتسم مرحِّباً بآينور، وأشار لها بالجلوس على يمينه. رفعت البوشية

وهي تميل بجلستها مستندة إلى ذراعها، وظهرها بعيد عن وسادة الحائط:

– أأنت المحسنة الألمانية؟

ردَّت بملامح متيبّسة:

– أنا آينور هانز يا شيخنا.

هزَّ رأسه والفرحة بادية على وجهه، فعادت لتقول:

– أنا أعيش في الموصل منذ ست سنوات، وطوال هذه المدّة لم يُذكر اسمك أمامي. في الأسابيع الأولى التي قضيتها هنا بحثت عن بيتك، وعرفت أين أجدك، وتوقعت أن تظهر إلّا أنَّ هذا لم يحصل. انتظرت أن يذكرك الولاة أمامي ولم يحصل. ستة أشهر وأنا أتلقّى الدروس من تشكيلات يلدز الاستخباراتية. حكوا لي كلّ شيء عن الموصل. أخبروني بأسماء عمّال النظافة، ولكنّهم لم يخبروني باسمك. ظننت أنّك خطيب جامع، أو تشرف على مدرسة دينية، ولكنّك لست كذلك.

رفع الشيخ حامل الكتاب، ونحّاه جانباً، وعدّل من جلسته ليكون في مواجهة ميلانها، ثمّ قال:

– لقد جرَّدني السلطان من كلّ ما قلتِ. أقعدني غضبه عليَّ في البيت، وأكرمني بمرتّبٍ شهري، وحكم عليَّ بالإقامة الجبرية. لم أصلِّ في جامع منذ عشرين سنة.

سألته وهي منقبضة الملامح:

– لماذا فعل بك هذا؟

شبكَ أصابعه، وحرّك كلّاً من إبهاميه حول الآخر:

– ألّفتُ كتاباً عن الشطرنج، وقد قرأه السلطان عبد الحميد، وأعجب به، واستدعاني إلى إسطنبول، وسألني عن رأيي به وبحكمه، فقلت له إنَّ الله ليس بحاجة إلى دولة وسلاطين. لم يغضب منّي،

وأبقاني مدّة شهر بجواره. أرى وأسمع كلّ ما يقوله ويفعله، ولا أفارقه إلّا حين يختلي بأهل بيته. بعدها سألني إن كنت على رأيي، فقلت له إنَّ الله ليس بحاجة إلى دولة وسلاطين، فقال لي ارجع إلى الموصل، والزم بيتك.

بقيت آينور ساهمة، فسألها:

– لماذا بحثتِ عنّي.. هل تحبّين الشطرنج أنتِ أيضاً؟

أجابت وهي تسحب يدها وتجلس باعتدال:

– أوصاني مولانا السلطان عبد الحميد بأن ألجأ إليك حين تضيق بي الدنيا.

نظر إليها بدهشة، فعادت لتقول:

– الكثير من رجال الدين في المدينة يتقصّدون الإساءة إليّ، ويشوّهون عملي، ويحاولون إظهاري كامرأة سيّئة السلوك. أنا أعرف لماذا يفعلون هذا، ومن الذي خلفهم، ولا يهمّني الأمر، ولكنّني لن أقبل أن يُساء إلى الطبيب جرجس غزالة. هذا الرجل يا شيخنا يقدّم خدمة جليلة للناس، وهو نزيه، وصاحب علم، فلماذا يتعرّض للإهانة؟

قال الشيخ سعد الدين بصوتٍ خافتٍ:

– الطبيب غزالة في مأمن يا آينور هانم، لقد تألمت حين سمعت بما حصل له لكنّهم لن يمسّوه بأكثر من هذا الأذى.. الخطر الحقيقي يتهدّدك أنتِ.

قالت بتوتّر:

– أتيتُ إليكَ كي تمنع الأذى عن الطبيب غزالة.

لاحت في عينيه لمعة انكسار:

– لن يستجيبوا لي، فأنا رجل يحبّ الموسيقى، والغناء، ولعب الشطرنج.

ابتسمت بسخرية:

– أنا أساعد النساء على الاستمتاع في الجماع، وأبيعهنّ الملابس الداخلية المغرية، ومن أجل هذا يكرهني رجال الدين، ولكن ما مشكلتهم مع جهاز أشعّة إكس.. لماذا يزعجهم؟

عاد ليحرّك كلّاً من إبهاميه حول الآخر:

– يزعجهم، لأنّهم يخافون زوال نعمة الجهل.. يزعجهم، لأنَّ هذا الجهاز سيبهر الناس، وعندها ستصبح خرافاتهم بلا قيمة.

احتدّت نظراته وهو يتابع:

– حظكِ سيّئ يا آينور هانم.. لقد جئتِ في وقتٍ بدأ فيه السلطان يفقد مناصريه من الخطباء، والمؤذنين، وقرّاء القرآن، ومتولّي الأوقاف، والكليداريين. هؤلاء باعوا الولاء كي تبقى وظائفهم لهم. الدنيا خيانة وغدر لأنَّ الأرزاق معقودة بيد السلطان، ولأنّها سترفع من عبد الحميد وتذهب إلى أخيه، لهذا لن تجدي من يُناصركِ ويدافع عنكِ.

اكتست ملامحه بظلّ رمادي حين خفّ ضوء الحوش:

– عليك الحذر من الشيخ معروف. هذا الشخص له مصالح كثيرة مع الإنكليز والفرنسيين، وهو الذي يقف خلف حادثة رمي عربة الطبيب جرجس غزالة بالحجارة.

– أعرفه.. السلطان حدّثني عنه وطلب منّي متابعته، ولكنّني لا أعرف لماذا يبقيه دون عقاب، ويتركه يلوّث عقول الناس.. لم أجرؤ على سؤاله.

ابتسم الشيخ سعد الدين وقال هو ينظر إلى الأرض:

– ألم يضعك السلطان في عهدة شاؤول جلعادي وهو الذي قتل نامق باشا ابن عمّ الصدر الأعظم محمد سعيد باشا؟

تساءلت بدهشة:

– شاؤول؟

هز رأسه:

– نعم، شاؤول يا هانم.. كان يدير بعض أملاك السلطان في لندن، وقد قتل نامق باشا ابن عمّ الصدر الأعظم الذي كان يتردّد على إنكلترا للدراسة لأنّه اغتصب ابنته، فعفا عنه السلطان، متجاهلاً غضب الصدر الأعظم، وأبطل حكم إعدام شاؤول بأن نفاه إلى الموصل.. هو يهودي ولكن شاؤول جلعادي ليس اسمه الحقيقي.. السلطان عبد الحميد يصلح لنظم الشعر فقط.

سألته مجدّداً وقد بدا عليها التأثر:

– كيف عرفت بكلّ هذا؟

– كنت حاضراً مع السلطان حين رفض التصديق على حكم المحكمة بإعدامه. الكثيرون ضغطوا عليه من أجل المصادقة ومنهم الصدر الأعظم نفسه، وهو رجل له الفضل في تصفية خصوم عبد الحميد وتثبيت أركان حكمه، إلّا أنّ السلطان أصرّ على استخدام صلاحيّاته بأن غيّر حكم الإعدام إلى النفي.

تغيّرت ملامح الشيخ سعد الدين، وظهرت نبرة حزينة وهو يتابع:

– حين لازمته فترة شهر لم أفهم كلّ تصرّفاته. أنا أشهد له بطيبة القلب، لكنّنا لسنا بحاجة لهذا. الطيبة، والرحمة، والشهامة، وحتى النزاهة، حكايات بالية تثير العواطف ولا قيمة لها في إدارة الدولة. لسنا بحاجة إلى أشخاص يتشبّهون بالأنبياء. هذا عصر العلم يا آينور هانم. عصر التعليم. علينا التفكير بالطريقة نفسها التي فكر بها الرجل الذي صنع لنا جهاز الأشعّة. حكايات الطيبة، والرحمة، والشهامة والرجولة، والكرم، تصنع الكسل، وتبقي الجوع على ما هو عليه، وتشيع التخلف.. الله يتجسّد في العلم لا في اتّباع السلف الصالح.

نهضت آينور واقفة، فجاراها الشيخ سعد الدين الذي بدا أطول منها. قالت وهي ساهمة:

– السلطان يعزف على البيانو، ويحبّ الأوبرا، ويهتمّ بالتعليم، ويعمل على ازدهار الصحافة، ويكثر من شراء المطابع. إنّه رجل متنوّر يحترم المستقبل.

قال الشيخ سعد الدين وهو يرافقها إلى باب غرفته:

– نعم، هذا صحيح، ولكنّه يحكم باسم الله، وجعل هؤلاء الذين يهينون الطبيب غزالة ويعادون جهاز الأشعّة يتكلمون باسم الله أيضاً.. آينور هانم عليكِ مغادرة الموصل قبل أن يفقد عبد الحميد سلطانه.. هذه البلاد لا تريد الحياة، ولا تملك العقل لتدرك مصيبتها.

قالت مبتسمة:

– لديّ الكثير لأنجزه هنا.

***

كانت بريتا قد أدخلته منذ ساعة ورتّبت موضع جلوسه، ومنحته الانفراد الذي يتطلبه الإلهام، وما إن فتحت آينور هانز باب السرداب قادمة من بيت المتعة، وبرفقتها جليلة، حتى بدأ زكريّا الكوّاز بالضرب على أوتار العود. كان يجلس في الحوش وهو بجلباب فضفاض أبيض اللون، وعلى رأسه قبّعة مولوية طويلة من اللباد لفّت عليها عمامة خضراء. انسابت من بين أصابعه الألحان عذبة، بينما آينور واقفة وبيدها سراجها، مأسورة بما تسمعه، وخلفها جليلة التي تجبّست ملامحها بالدهشة. اندمج زكريّا بعوده وصدره يعلو ويهبط مع موضع الأوتار التي أخذت تتسارع نغماتها في براعة شجيّة، ثمّ ما لبث أن غنّى بصوت رقيق قصيدة «للعاشق في الهوى دلائل». أحضرت بريتا كرسيّاً. أخذت من يد آينور السراج وأجلستها قبالة زكريّا الذي أخذ

يغنّي القصيدة نفسها بالتركية دون أن يرفع نظراته عن العود. أطلّ تابور من السطح وجلست بريتا على الأرض بجوار سيّدتها التي أغمضت عينيها متأرجحة على وقع الأنغام، فيما بقيت جليلة واقفة بجمود في مكانها. أخذ صوت زكريّا يعلو وقد ازدادت عذوبته، وتعالت نشوته مع الكلمات التركية، وحين ضرب آخر وتر بوهن، وسكتت معه السماء، سألته آينور وهي هشّة الروح:

– لمن هذه الألحان؟

ردّ زكريّا وهو يتحسّس عمامته الخضراء:

– هذه ألحان وكلمات الحافظ عثمان أفندي الموصلي.

ابتسمت آينور وهي تقول:

– يبدو أنّك تحبّ العرق البعشيقي.

قال وهو يرجع إلى عوده:

– جداً يا هانم.

***

كانت بناية مدرسة الصنايع القريبة من ميدان الجيش الشمالي لا تختلف في شيء عن مدرسة بغداد إلا بغياب النخلة عن حديقتها. ورغم أنَّ الوالي نوري باشا أوكل إلى هايس رسمياً مهمّة التدريس في قسم الخياطة، إلّا أنّ كروغر لم يكن يحضر فيها سوى يوم الثلاثاء، وينوب عنه في باقي الأيّام خيّاط ألماني يجيد التركية اسمه فيرنر. كان شاؤول جلعادي يتجنّب ذكر مدرسة الصنايع أمام آينور كي يأمن غضب هايس الذي يتعمّد الذهاب إلى بيت البهجة صباح كلّ أربعاء ليتكلم عمّا أنجزه أمس في مدرسة الصنايع. لا تقلقه أوامر آينور التي يجد فيرنر منهمكاً في تنفيذها ما دام قد أحيط بها علماً قبل توجّهه إلى حيّ النصارى. كان تابور يتفقد المدرسة كلّ صباح. يقف بباب

قاعة الخياطة مستمعاً إلى فيرنر حتى يملّ، ويعود بعدها إلى بيت البهجة، ورغم معرفة كروغر هايس بهذا لا يتوانى عن المضيّ في الكذب يوم الأربعاء، مؤكداً في كلّ مرّة لآينور أنَّ الخبرة يجب ألّا تُهان بوقت العمل الطويل، فهي في النهاية ليست أكثر من لمسات أخيرة، موحياً إليها أنَّ الالتزام خُلق للعقول البسيطة. عارض شاؤول جلعادي فكرة تكليف حسين الطاهر بالبحث عن أحفاد النسّاجين القدامى، وقال لها إنَّ كروغر هايس، حتى وهو سكران ونائم، يمتلك رصانة الفداء، وفروسية التضحية. كانت الساعة تشير إلى الثامنة مساءً حين وصلت آينور إلى مصنع الجوارب مع تابور. أشارت بيدها إلى ثلاثة من الخيّاطين الألمان الذين ينادمون هايس بعدم النهوض وسألته:

– ماذا فعلت مع خبراء زراعة القطن؟

رتّب كروغر هايس من وضع ملابسه وقال بلسانٍ ثقيل:

– اختباراتهم مع بذور الأصناف الأميركية نجحت والكوكرولت يناسب الأرض أكثر من غيره وهم ينتظرون موافقتك على الأماكن المختارة كي يباشروا الزراعة في الموسم الجديد.

بقيت آينور منتظرة إلى أن تجشّأ كروغر للمرّة الثانية، وتساءل:

– ماذا سنفعل مع السير هانسفورد؟

حرّك تابور رأسه إلى الأسفل، ورمقه بنظرة حادّة، فعاد ليقول:

– الخبراء الألمان متخوّفون. شاؤول جلعادي يتكلم دائماً من وحي خرافاته غير المعقولة. إنّه يشبه الكتاب المقدّس تماماً.

قالت آينور بحزم:

– لا تفكّر بهانسفورد.. نظّف رأسك يا سيّد هايس.. لقد أبلغني السيد جلعادي أنّ القطن سيُزرع في سبع مناطق وبمساحات صغيرة.

ردّ كروغر، وقد شعر بتشنّج في ظهره:

– هذه نبوءة صادقة يا آنسة.. لقد حسبنا طول فترة الضوء، والحرارة، والرطوبة. ستكون النتائج باهرة، وهناك أماكن أخرى يمكن التوسّع فيها بمساحات كبيرة لكن تحتاج إلى وقت واختبارات. المناطق السبع تمتاز بتربة غنيّة مشبعة بالماء، وبلا أملاح. إنّها الأفضل. لم يكن من السهل على أصحاب الأرض الاقتناع بأنّ ألمانيا ستشتري محصولهم. لا يثقون إلّا بالإنكليز. لن نباشر بالزراعة إلّا بعد التعاقد معهم وتقديم الضمانات الكافية، وحين ندفع لهم ثمن المحصول الأول سنتمكّن من التوسّع بعدها.

قالت بعدما ضعفت قدرتها على تحمّل الرائحة المنبعثة منه:

– افعل شيئاً كي تنشّط عقلك، وتزيل رائحتك، والحق بي إلى الخارج.

بعد خمس دقائق، ظهر كروغر هايس بوجه متورّم، وبقميصٍ أبيض يضيق على كرشه. سارت آينور متمهّلة باتجاه عربتها:

– كلّ ما يتعلق بأدوات النسيج اليدوي سيصل من دكا بعد شهر.. لا ينبغي التهاون في هذا سيّد هايس.. أمهلك حتى نهاية السنة كي تنسج لي قماش الموسلين.

حكّ كروغر هايس فروة رأسه قائلاً:

– لا نستطيع الوصول إلى ألف وثمانمئة خيط في البوصة يا آنسة. وحتى لو أُتيح لنا، بمعجزة ما، الاقتراب من هذا الرقم، فنحن بحاجة إلى مراحل معقدة تخصّ تنقية القطن وغزله، إنّها خبرة تولد من تجربة طويلة، وتحتاج إلى بيئة ملائمة. يجب أن تكون الأرض، والرياح، والأشجار، والسماء، متواطئة مع الجنون. في العادة، شيء بخوارق الموسلين لا يتحقق بجهود فردية فقط. هنا الله يتدخل بنحو واضح. الأمر ليس بهذه السهولة التي تظنّينها، والموسلين نفسه لا

يسمح بأن يكون في المرتبة الثانية من الاهتمام.. أين أجد الأصابع التي تنسج هذا القماش الشيطاني اللعين؟

– ابحث تجد.. كان رودولف يعتقد أنّ الضياع مسألة غير حقيقية، فكلّ شيء موجود لكي يرشدنا ويقودنا إلى ما نريد. هذه ليست طريقة لكسب المال.. الموسلين حلم.

قال كروغر هايس ساخراً:

– لو أنّك يا آنسة طلبت من السيد رودولف وقتها أن ينسج لك الموسلين لما ابتكر هذه الفلسفة المتفائلة أبداً.

توقفت آينور عن السير فتخطّاها واستدار ليواجهها قائلاً:

– المناخ هنا غير مناسب. الموسلين يتكسّر في الحرارة العالية.. إنّه قماش يحبّ الحنان، يحبّ اللطف، والعناية الأمومية.. إنّه أنثوي أكثر من كلّ نساء ألمانيا.. يجب أن يكون رطباً، وعلينا تجهيز بناء خاصّ، وإيجاد بيئة تشبه الجزر البنغالية.

ضحكت آينور قائلة:

– أخطأتُ حين جعلتكَ تصحو.. اسمع يا كروغر.. لا تستعمل معي هذه الأساليب الملتوية. أكرهك حين تعارضني. أنت تعرف أنَّ الموصليين يستخدمون سراديب بيوتهم في نسج القماش. أنت تعرف هذا، وتعرف أنَّ الموسلين يحتاج إلى أنامل رقيقة فقط.

– آنسة آينور.. لا دليل على أنّهم نسجوا الموسلين في يومٍ ما. هذه أكذوبة كبيرة.. انظري إليهم.. إنّهم يقلّدون العثمانيين في كلّ شيء.. ليس لهم القدرة على تغيير أنفسهم، أو فعل أشياء لها فائدة. هم لا يعرفون قيمة أرضهم.. لمن ينسجون الموسلين، وماذا يفعلون به؟

قالت بانفعال:

– أنتَ تتكلم مثل هانسفورد.

تخطّته، وواصلت سيرها باتجاه العربة، فلحق بها كروغر واعترضها:

– ليس من مصلحتنا الخروج عن المسار.. لا أحد طلب منّا نسج الموسلين.. نبيعهم الطعام، والقليل من الأدوات التي تعوّدوا على استعمالها. طناجر، ملاعق، سكاكين، وفوانيس، أحجار لتنعيم الكعوب، غسول لمعالجة القمل، ونأخذ منهم النفط.. هذا كلّ شيء. لماذا تعقّدين الأمور؟

قالت بوجهٍ منكمش:

– لقد خرجنا عن المسار منذ زمنٍ طويل.. لا علاقة لي بأحد.. أريدُ أنْ تستعيد هذه المدينة مجدها ورهافتها.. لماذا تظنّني أبيع الملابس الداخلية؟

أجاب بذبول:

– لأنَّ هذا ما كان رودولف سيفعله لو جاء إلى هنا.

ضربت بقبضتها على صدره قائلة:

– نشّط قلبك يا كروغر.. عد إلى حبّ الخيوط.. إلى عشق النعومة.. أوروبا تفكّر بالحروب أمّا أنا وأنت، فعلينا ابتكار المتعة.

أخذ كروغر يتنفس بسرعة، فعادت آينور لتقول:

– اسمع.. ابحث عن فتيات دون العشرين وعلّمهن.. دعْ روحك ترشدك إلى الجمال.. عندما لا تملك أيّ شيء، حينها يمكنك فعل كلّ شيء. سيكون شاؤول جلعادي معك، وسيوفّر لك كلّ ما تحتاج إليه.

نظرت في عينيه وتابعت:

– النبوءة هي شيء نُصرُّ على فعله.. لا خرافة في هذا.

بقي كروغر هايس في مكانه، بينما آينور تبتعد بخطوات متثاقلة. توقفت، ثمّ استدارت قائلة:

– أنا أفعل ما كان سيفعله رودولف لو جاء إلى هنا.. نعم هذا صحيح.. لن أجبرك على شيء يا سيّد هايس، ولكنّني لن أتراجع أيضاً.

رفع صوته قائلاً باستسلام:

– سأفعل ما تطلبين شرط ألّا تأتي إلى هنا مرّة أخرى ومعكِ الهمجي تابور.

الموصل

ربيع 1906

جهاز أشعّة إكس

رَفَضَتْ آينور هانز دعوة السرايا لحضور اجتماع ثلاثي يكون السير هنري هانسفورد طرفاً فيه، وكتبت رسالة إلى الوالي مصطفى بك تطالبه فيها بمنع خطباء الجوامع من المساس بهيبة إمبراطور ألمانيا فيلهلم الثاني. كانت إحدى النساء قد جيء بها إلى مستشفى الغرباء وهي تعاني من كسرين في ساقها، فأحيلت إلى قسم الأشعّة على عجل، وحين عرف الزوج أنَّ الذي كشف على زوجته هو الطبيب الألماني ثارَ غضبه، ما تطلَّب تدخل الجندرمة، فألقي القبض على الرجل بتهمة ضرب الطبيب، وتحطيم أثاث المستشفى. لم يسكت الخطباء لجمعتين، وطالبوا السلطان بالتدخّل لأنَّ الإمبراطور فيلهلم الثاني نكث عهده بحماية الإسلام، وأرسل طبيباً لا يراعي حرمة الدين. عُمِّمَ أمرُ الوالي بمنع الحديث في السياسة بالجوامع والمجالس الدينيّة، إلّا أنَّ الشيخ معروف، خطيب جامع الباشا في سوق السرّاجين، وقفَ على المنبر في صلاة الجمعة الثالثة وبيده صورة أشعّة لساق رجل، وأخذ يصرخ أسفاً على ضياع الغيرة الإيمانية، وتفشّي الغفلة، وكيف أنَّ الإفرنجة لم يكفهم هتك المقدّسات، وسفك الدماء، فراحوا يصوّرون ما لا تدركه الأعين، ويظهرون ما كساه الله باللحم. وحذَّرَ بأعلى صوته

من أنَّ هذه الصورة الشيطانية توقع المسلم في معصيتين مهلكتين، أولاهما التصوير الذي هو من صفة الخالق المصوّر، والثانية التكهّن بالموت قبل وقوعه، وأخذ يردِّد بانفعال أنَّ جهاز أشعّة إكس فتنة، وأنَّ رونتغن الكافر سيتلقى جزاءً مخزياً، وسيُحشر يوم القيامة مع أبي جهل.

انفرد زكريّا الكوّاز بآينور هانز في بيت البهجة، بدا مشذّب الشارب وحليق الذقن. خلع طربوشه، ومسح على شعره المدهون. أعجبها منظره وهو بالبدلة المارونية، والحذاء الروغان. جلست على مقربة منه وهي منتبهة لأثر عطر ياسمينلتار لغولاب سينغ عليه. أعلمها أنَّ تشكيلات يلدز لديها إخبارية بأنَّ الشيخ معروف ينوي الاستعانة بالبلطجية لمهاجمة مستشفى الغرباء. لم تتأثر ملامح آينور، فشعر زكريّا بالحرج لأنّه استعجل في الكلام. كانت مسترخية، وملامحها متفتحة، فقال لها إنَّ مهمّة التشكيلات هي توفير الحماية لها، ولطاقم عملها، لكنّ السلطان عبد الحميد منحها سلطة توجيه التشكيلات نحو أهداف أخرى، وإنّها تملك الحق في إصدار الأوامر في حالات الطوارئ. وحين بقيت على تشمّعها، نصحها بألّا تترك عند الوالي مصطفى بك انطباعاً بأنّها تتجاهله، وبما أنّ السلطان لم يعقّب على طلب تشكيلات يلدز بعزله، فإنَّ الحكمة تقتضي التعامل مع الوالي بما يحفظ التوازن بين القوى المتنفذة في المدينة.

قالت له آينور مع ابتسامة خفيفة:

– اشتقت إلى عزفك وغنائك.

صُدم زكريّا واحمرَّ وجهه، إلّا أنَّ نظرات آينور شجّعته:

– أنا تحت أمرك يا هانم.

سألته بصوتٍ ناعمٍ:

– لماذا جريدة «موصل» لم تعلّق على ما حدث في المستشفى؟

بالغ زكريا في الضحك، ثمّ قال وهو يلمس بسبّابته ركبتها:

– المحرّر التركي أخذ إجازة وسافر إلى أهله في أرضروم.

أفلتت آينور ضحكة صاخبة قبل أن تقول:

– الطبيب جرجس غزالة غير محظوظ تماماً.. هذا يذكّرني بعمامتك الخضراء وقبّعتك اللبادية التي بطول طربوشين.

***

استقبلها الوالي مصطفى بك في أوطته بالسرايا. كان في الخمسين من عمره، معتدل القامة ورشيقاً، مشدود الجسم، ودائم التحقق من حسن هندامه. حنطي البشرة بملامح حادة. عينه اليسرى خضراء البؤبؤ، واليمنى صفراء. لم يبدُ عليه أنّه فوجئ بمظهر آينور، وحين رفعت البوشية استرخى على كرسيّه، وأبدى إعجابه بنشاطات شركة رودولف، وتعمَّد استعمال مصطلحات اقتصادية كي يوحي لها أنه يختلف عن نوري باشا، وطمأنها أنَّ الأمور ليست مقلقة كما كانت عليه قبل أسبوع، معتذراً عن تأخره في الردّ على رسالتها لأنّه كان ينتظر اجتماع مجلس الولاية الذي انعقد أمس وتمّت المصادقة فيه على فتوى علماء الموصل التي حرَّمت على النساء استخدام أشعّة أكس باعتبار أنَّ عظام المرأة عورة ما دامت الأشعّة لا تتقيّد بالكفين والقدمين. حافظت آينور على هدوئها، فتابع الوالي بفخر:

– الفتوى حلَّت المشكلة نهائياً، وبما أنَّ مستشفى الغرباء الآن يعرف المسموح والممنوع، فإنَّ كلّ شيء تحت السيطرة يا هانم.

قالت آينور وهي تنقر بأصابعها على مكتب الوالي:

– لكنّ هذه الفتوى التي تتكلم عنها قد تزعج الإمبراطور فيلهلم الثاني. ألمانيا تساعد الدولة العليّة بناءً على شروط متّفق عليها. المصالح حتى تُرعى يجب أن تكون لها بيئة مناسبة. من يضمن

أنّكم في الغد، حين تبني لكم ألمانيا الجسر الحديدي، لن تخرجوا بفتوى تعطّل نصف طاقة البلد؟ أنت منعت الجوامع من الحديث في السياسة لكنّك لم تمنع الجهل من التحكم بعقول الناس. مدينتك ستمرُّ بها سكّة حديد هي الأطول في العالم، عليكم الإعداد لهذا بحكمة.

قال الوالي وهو يمسك بطرفي نموذج صغير لسيف كولاكلي:

– الإمبراطور سينظر حتماً إلى النتائج الباهرة التي تحققت.. آينور هانم، عليك الاطمئنان. فأنا هنا بخدمتك، وأنتِ تعرفين أنَّ السلطان لم يستجب لطلب تشكيلات يلدز بعزلي. ها أنا أخبرك الآن كي تزداد بيننا الثقة. هذه سياسة يجب أن تُنفذ لأنَّ فيها مصلحة السلطنة. لقد أمرني السلطان المعظم أن أقدّم لك كلّ العون. هو على علم بكلّ ما يجري ويمكنك الاعتماد عليَّ كوسيطٍ بينكما.

سألته آينور بتركيز:

– لماذا يأمرك السلطان بهذا.. هل يعرفني؟

ابتسم الوالي قائلاً:

– نعم يعرفك يا هانم، وتشكيلات يلدز موجودة هنا في الموصل بكثافة من أجل حماية مصالحك الشخصيّة ومصالح ألمانيا.

قالت آينور بثقة:

– أنت أدرى منّي بهذه الأمور، لكنّ الذي أعرفه هو أنّ نشاطاتي هنا قانونية، وأنا أدفع ضرائبي مثل كلّ الأجانب، وشركتي، وعيادتي، وكلّ مجالات عملي، مجازة من قبل الدولة العليّة. ولديّ حرّاس يملكون رخصة لحمل السلاح، لذا لست بحاجة إلى تشكيلات يلدز. لا أستبعد أن تحتاج القنصلية الألمانية إلى هذا، أمّا أنا فلا. ربّما السلطان يعرفني لأنّه العارف بكلّ شيء، وهذا يدعوني للفخر. لقد جئت إلى السرايا كي أطلب منك ألّا تستمع إلى رجال الدين

لذين يعملون ضدّ اتفاقية التعاون التي عقدها السلطان عبد الحميد مع الإمبراطور فيلهلم. لقد كلفني جهاز الأشعّة مبلغاً كبيراً من المال، وقد قدّمته هديّة للولاية، وعليكم في المقابل استخدامه بالطريقة لمثلى كي تعمّ الفائدة على الناس.

– آينور هانم، نحن نقدّر هذا..

قاطعته قائلة:

– قل لأصحاب فتوى العورة إنّ الكلاب وحدها التي تشتهي لعظام.

***

رجَّح زكريّا الكوّاز أن يكون خبر طلب العزل تسرَّب من موظفي قصر لسلطان إلى الوالي، قاطعاً بأنَّه لا أحد من عناصر تشكيلات يلدز في لموصل، أو في إسطنبول، يمكنه ارتكاب جرم الخيانة. لم تركّز آينور على ثقة زكريّا، وطلبت من تابور حضور جميع المناسبات الدينية والحفلات القرآنية التي يحضرها السير هنري هانسفورد وفيكتور دولاباس. التقت آينور مرّتين مع ممثل القنصل الألماني كروس هوملز، الأولى في باحة سرايا الوالي، والثانية في حفل ختان أطفال جماعي بمناسبة المولد النبوي. كان في الثلاثين من العمر، طويل لرقبة، تظهره حمرة وجهه الزائدة وشقرته الطاغية بأنّه شخص لا يصلح لحديث، والتفاهم، والصداقة، بل لوضعه في لوحة لبول غوغان.

لم تكن آينور ميّالة لتقديم أيّ تفسير لزكريّا عن تحرّكاتها، وكانت تراه يخلط بين حاجته لمضاجعتها، وبين مهمّته الاستخباراتية. كانت تجد أنّ نارت الشركسي هو الأذكى في مسألة القدرة على ستئصال شكوكها بشأن تفاهتها. كان يمنحها القدرة على إعادة لنظر في جمالها. تحبّ جرأته الشاعرية، وتجده قادراً على التقاط

ميلها الفطري إلى العهر. تتعمّد الاستماع إلى ملاحظاته النقدية بشأن تصاميم الملابس الداخلية في باريس، وروما، وبرلين، ليكرّر لها، ورائحة الحنطة المتخمّرة تفوح منه، أنّه يطمح إلى تركيب أداة في الملابس الداخلية لتحفيز البظر. كانت لا تتحفّظ في إخباره أنّه يشبه رودولف، وفي المقابل لم يكن نارت يجد في التشبيه أيّ ميزة لأنَّ رودولف كان يخدع حقيقته، أمّا هو فإنّه يقدر على إغراء منضدة لترى نفسها خزانة ثياب.

كان كروس هوملز فرحاً بما يتلقاه من حفاوة إنكليزية، وفرنسية، وعثمانية، ما أوجد في آينور نفوراً شديداً منه. استأجر بيتاً في حيّ الإنكليز في الجانب الشرقي من المدينة. زار شركة رودولف مرّتين، واشترى ستّ بدلات ماركة الخروف الأحمر من نارت الشركسي، وأخذ يظهر كثيراً في سوق الألمان، وبرفقته مترجمه قدري أفندي، وهو شاب حلبي يستعمل الشهامة في تحصيل صداقات سريعة. قدّم السير هنري هانسفورد الكثير من الاعتراضات إلى ممثل القنصل الألماني، وكما توقعت آينور، فقد انشغل بها هوملز وأعطاها الكثير من وقته، ولأنّه شعر بجبروت آينور فضَّل سؤال شاؤول جلعادي، والتحقق من الاعتراضات الإنكليزية على سير العمل في سوق الألمان، وما لبث في زيارة قام بها لمصنع الجوارب في باب سنجار أن وجد العون الكبير من كروغر هايس الذي اصطحبه إلى مدرسة الصنايع، ورافقه إلى مستشفى الغرباء ليرى جهاز أشعة إكس فخر العبقرية الألمانية.

طلب نارت تزويده بموديلات ألبسة داخلية أكثر رعونة، لأنَّ السوق الآن للدبلوماسيين الحمقى، وقال إنّه حقق نجاحات باهرة مع الإنكليز الذين تفوح منهم رائحة الروث. امتنعت آينور عن تلبية

طلبه، وأرسلت له بريتا لتخبره أنَّ الملابس الداخلية ليست تجارة للربح بل لتعزيز جمال الحياة، وأنَّ عليه الامتناع عن بيعها للأجانب.

مع المغيب، طرق نارت باب بيت البهجة. كانت آينور في عيادتها فاضطرّ إلى مجالسة تابور مدّة نصف ساعة، وحين ظهرت من باب السرداب، أسرع إليها وخطف يدها اليمنى، وأخذ يقبّلها بشراهة ومؤخّرته باتجاه تابور. قالت ببرود:

– لم أعقم يدي بعد.

زاد عليها ثلاث قبلات وهو يتمتم:

– حتى لو كان الموت فيها.

– لن أتراجع عن قراري يا نارت أفندي.

عدّل من هندامه، وقال مبتسماً:

– الشروط تدمّر موهبة الترغيب.. خطأ أن أبيع بضاعتي وأنا متضايق، ولكن ليس هذا ما جئت من أجله يا هانم. لقد زار سعيد أفندي السعرتي المتجر عصراً وأبلغني أنَّ أعضاء جمعية العِلم سيتظاهرون في الغد أمام مبنى السرايا احتجاجاً على فتوى جهاز أشعّة إكس، وطلب منّي إبلاغك بالأمر.

***

حين وصلت آينور هانز في التاسعة صباحاً، وجدت ساحة السرايا خالية من المارّة تماماً، والمتاجر المحيطة قد أعيد إغلاقها على عجل. كانت الجندرمة قد هاجمت بالعصيّ مجموعة مكوّنة من ستّة أشخاص وصلت أولاً وهي تحمل لافتاتها على الأكتاف. تلاشت مقاومتهم أمام شدّة الضرب ما سهَّل على الجندرمة تقييدهم وجرّهم باتجاه «إيج قلعة».

ظهر زكريّا الكوّاز خارجاً من مبنى السرايا. هرول إليها طالباً منها الذهاب معه إلى مكتب الشركة، إلّا أنَّ آينور أصرَّت على دخول السرايا ومقابلة الوالي. استوقفها زكريا عند البوابة الحديدية للسرايا قائلاً إنَّ هناك ما هو أهمّ من أعضاء جمعية العِلم، فبلطجية الشيخ معروف سيهاجمون الليلة مستشفى الغرباء.

رفعت آينور البوشية وسألته:

– هل أستطيع توجيه أمر إلى تشكيلات يلدز بالتدخّل لإطلاق سراح أعضاء جمعية العِلم؟

ردَّ زكريّا وقد سحره وجهها:

– تلزمنا ساعة واحدة لتنفيذ أمرك يا هانم.

أنزلت البوشية قائلة:

– لا حاجة لمقابلة الوالي.. أبلغ السيد جلعادي أن يلحق بي إلى مقهى كاندريان.

تبعها زكريّا:

– وماذا عن البلطجية؟

توقفت آينور، وعادت لتكشف عن وجهها:

– أنا مَن جلب ذلك الجهاز إلى هنا.. ظننتك ستذهب للدفاع عنه أيّها الفارس.

استُقبلت في المقهى بصخب. وقف الإنكليز وكشفوا عن كواحلهم صارخين بصوتٍ واحد «كلنا نرتدي جوارب رودولف». قال لها السير هنري هانسفورد وهو يقف احتراماً بينما كاندريان يأخذ منها بوشيتها وإزارها:

– إنّهم صادقون. أنا أيضاً أرتدي جوارب رودولف.

جلست بجواره متحسّسة شعرها الأشقر القصير، فعاد هانسفورد ليقول بسخرية:

– من كان يتوقع أن ينجح ألماني في نسج جورب قطني ويأتي إنكليزي ليرتديه.. هذه بوادر نهاية العالم.. نحن إلى الآن لا ننظر إلى اجتهادات الأميركان في القطن بعين الاحترام، فكيف الأمر مع الألمان؟

وصل شاؤول جلعادي وهو يلهث، فقالت آينور بالعربية:

– ارحم صحّتك يا هنري. التفكير في القطن يؤدّي إلى تساقط الشعر.

قال ضاحكاً:

– أشك في هذا يا آنسة، فلو كانت هذه النظرية صحيحة لكنتِ الآن صلعاء تماماً.

قالت آينور وهي تنظر إلى جلعادي:

– اسمع يا هنري.. سأطلب منك بشكل مباشر أن تبعد البلطجية عن مستشفى الغرباء.. أنا امرأة ويُفترض بك معاداتي بلطف. لا تدفعني إلى الاشمئزاز.

التفتت إليه وتابعت:

– لن أمنحك فرصة أن تكون راقياً، لذلك سأقدّم لك خدمة لقاء التراجع عن إرسال البلطجية.

قال السير هنري هانسفورد بالفرنسية:

– لدينا قائمة تتكوّن من عشرين مادّة مطلوبة في السوق لا أريدك أن تنافسينا عليها.

– حسناً.. اعرضها على السيد جلعادي وسيصلك جوابي سريعاً.

***

لم تنمْ آينور. بقيت منتظرة شروق الشمس بقلق. كانت قد راجعت مع شاؤول جلعادي لساعتين القائمة المرسلة من السير هنري هانسفورد

التي بدت غريبة، وغير مفهومة، فهي تتضمّن مضخّات يدوية، وجلوداً وموادَّ كيميائية، يعرف هانسفورد جيداً أنَّ شركة رودولف لا تستوردها، ولا تفكّر في المتاجرة بها. كما أنَّ القائمة لا تتطرّق إلى خطة زراعة القطن التي يُفترض أنَّ الإنكليز على علم بها، وأنّها تخرق الاتفاق الذي قام عليه سوق الألمان. رجّح جلعادي ألّا يكون السير هنري جاداً في تسوية قضيّة البلطجية، لكنّ آينور أصرَّت على أخذ المساومة على محمل الجدّ، وأرسلت نارت الشركسي إلى السير هنري هانسفورد لإبلاغه موافقتها على المواد التي طلب عدم المنافسة عليها. ومع غروب الشمس شعرت بالخوف على زكريّا، وسألت بريتا عن تفسيرها لغياب شبح رودولف. أخبرتها أنَّ الأشباح عادة ما تكون أنانية ومملّة، وهي لا تفهم حياتنا بالشكل الذي نتوقع، لأنَّ فقد الجسد يعني انتهاء الشعور بالمسؤولية، وقالت لها إنَّ لجوء رودولف إليها يعني الخوف، أو السجن، وهو لا يدلّ على وجود العواطف لأنَّ الحبّ يحتاج إلى جسد. لم يسكّن كلام بريتا تخوّفات آينور، فرودولف يتابع كلّ ما يحدث لها بقلب محطّم حتى وهو شبح.

تجرّأت بريتا وسألتها:

– هل ستُبقين زكريّا على ضياعه؟

ردَّت آينور:

– العرب يجدون ذلَّ الحبّ معيباً، ويرون في قوّة المرأة إهانة للرجولة، وهذا لا يعجبني مطلقاً، لذلك لن يتحوّلوا إلى صناعيين أبداً، وسيبقون رعاة حتى لو امتهنوا التجارة، وعاشوا في المدن. الحبّ تحضّر يا بريتا.. هو الآن يفكر في طلب يدي للزواج كي ينالني، وإذا فعل هذا فسأبصق في وجهه.

تابعتها بريتا بعينين متّسعتين، فرجعت آينور لتقول:

– عليه أن يناضل من أجلي، ويتعذب، ويبقي جرحه نازفاً حتى أتحقّق من نقاء حبّه.. أيّ شيء غير هذا هو بيع وشراء، وخدعة، وكذب.

مع شروق الشمس، وصل زكريّا الكوّاز برفقة تابور إلى بيت البهجة. فتحت آينور لهما الباب، وهي تضع على كتفيها شالاً زهري اللون. كان زكريّا بزيّ عسكري أسود. قال لها وهو يفكّ اللثام عن وجهه:

– لم يحدث شيء يا هانم.. مستشفى الغرباء بخير.

سحبته من ذراعه إلى غرفة القعدة، وأمرت بريتا بتجهيز الفطور. سألها زكريّا بينما جلست بجواره ملامسة إيّاه بركبتها:

– هل أرسلتِ تابور لحمايتي؟

ابتسمت قائلة:

– إذا حدث شيء لفارسي، فمن الذي سينقذني؟

ردَّ، وقد انكسرت اللمعة في عينيه:

– معكِ حق يا هانم.

شدَّت جسدها قائلة:

– البلطجية لن يظهروا أبداً، لكنّ الخطر ازداد عن ذي قبل.. هانسفورد سيلجأ إلى وسيلة أخرى.

أمسكت آينور بأصابع يده اليسرى، وتابعت:

– عليك أن تساعدني يا زكريّا، وتبعد عن رأسي كلّ هذا الضجيج.

رفع يدها إلى فمه، وقبّل ظاهرها، فعادت آينور لتقول:

– أريد أن آخذك الآن إلى غرفة نومي، ولكن ما يمنعني هو أنّ السلطان يثق بوفائي له.. إذا قبلتُ أن تضاجعني، ففي صباح الغد

سنهرب معاً من هذه المدينة العفنة، ونترك كلّ شيء خلفنا.. لن يكون هناك جسر، ولا جامعة، ولا قماش موسلين.

– آينور هانم..

شدَّت على يده:

– لم أعد قادرة على التماسك.. ساعدني يا زكريّا.

الموصل

شباط – كانون الأول 1907

سبعة أمتار

كتب محرّر جريدة «موصل» على صدر الصفحة الأولى: وبينما سكة حديد برلين بغداد المباركة تشقُّ طريقها في الأناضول باتّجاه أرض ما بين النهرين العظيمين، تواصل الموصل المحروسة تسلق سلّم المجد، رافعة بهمّة الوالي الجديد رشيد باشا اسمها الناصع بين الأمم. وكما بالأمس القريب حقَّق طبيبها الهمام جرجس أفندي غزالة بإذن المولى القدير، نصراً مؤزراً على التيفوس اللعين، ها هي الموصل المحروسة اليوم تحرز إنجازاً عظيماً بتخصيص صفوف في مدرسة الصنايع لتعليم البنات اليتيمات الخياطة. إنَّ ما نالته الموصل المحروسة من عناية جليلة من السلطان المعظّم يدفع كلّ الشباب الآن إلى التسابق من أجل تحصيل العلم والتقدّم بخطى الأسود نحو المستقبل الزاهر في ظلّ راية مولانا سليل المجد والفخر، سلطان المسلمين عبد الحميد الثاني حفظه الله ورعاه.

***

لم تخف المراقبة الشرعية شكرية تذمّرها من الأشياء التي كانت تطرأ على أجواء بازار بيت الرغبة، فقد أضافت آينور ستارة من الترتر الأحمر

للقياس، وخصّصت ركناً للحلويات، وعطّرت الأجواء بالبخور الهندي. كان الانتشاء يجدّد ملامح النساء اللواتي أكثرن من الإنجاب، بينما تعابير الفرح، والشغف، والتعلق، تورّد وجوه المقبلات على الزواج من المطلقات والأرامل. تكرّرت اعتراضات شكرية على الموديلات الأوروبية، وأخذت تجاهر بشكوكها بشأن ما تفعله جليلة وصديقاتها اللواتي عدن لزيارة البازار من جديد، مُحْدثاتٍ في كلّ مرّة صخباً، بدل الهمس المؤدّب. لم تكن الملابس الداخلية وحدها التي تؤجّج سخط شكرية، بل أحاديث النساء وتلميحاتهنّ، وتلك الحسرات التي تطلقها الفقيرات اللواتي جئن للفرجة، فيُخيّل إليها أنّها المستهدفة بها. كانت آينور منتبهة للتقلبات التي تبين على وجه شكرية، فتتعمّد استدراج انفعالاتها بحديثها مع النساء عن كيفية إنتاج نوعيات غير دارجة من التغنّج الأنثوي، وعدم كتم توهّجات الرعشة، مهيّجة الجذور البكرية لروح المراقبة الشرعية. ويوم أطلق بازار بيت الرغبة مجموعة من السراويل القطنية التي استوحاها نارت الشركسي من أزياء الهنود الحمر في عيد القمر، طلبت شكرية من بريتا السماح لها بدخول السرداب، والانتقال إلى بيت المتعة للاطلاع على ما يجري في العيادة. رفضت آينور، وقالت لها باستهانة إنّها لا تجدها مدركة لدور الملابس في حياة الإنسان، فكيف تسمح لها بالاطلاع على أساليب ممارسة الطبّ النسائي في بيت المتعة. وحين أصرَّت شكرية، وعرضت أن تعدّها مريضة جاءت للعلاج، قالت لها آينور، وهي ترمقها بنظرة طولية، إنَّ هذا يتطلّب إخضاعها لكشف المهبل. غابت شكرية عن بازار بيت الرغبة أربعة أيّام انقطعت فيها جليلة عن العودة إلى بيتها في الخاتونية ما دفع شكيبة هانم إلى زيارة بيت البهجة لتكلّم آينور بشأن ما يسهل تلافيه، ويرضي جميع الأطراف، كي لا تجد زوجة الكتخدا جميلة خاتون ذريعة شرعية لإغلاق العيادة والبازار. حافظت

آينور على هدوئها، وطلبت من شكيبة هانم أن تكون واثقة من سلوك ابنتها لأنَّ من غير المعقول الأخذ بكلام شكرية المجنونة من دون وضع تربية جليلة وأصولها الكريمة في الحسبان. وقالت لها:

– لن أسمح لشكرية بالعودة إلى البازار.. أبلغي جميلة خاتون بهذا.

تساءلت شكيبة هانم، والقلق بادٍ على وجهها:

– لماذا لا تكسبين ودّها وتأمنين شرّها؟

– لا أستطيع أن أكون مسالمة مع الأغبياء.

***

أخذت آينور تابور إلى سوق السرّاجين، ووقفت أمام باب جامع الباشا، منتظرة انتهاء صلاة الظهر. كانت قبلها بيوم قد سألت زكريّا إن كان لها الحق بإصدار أمر قبض على من تجدهم يعوقون عملها، فردَّ عليها بأنَّ السلطان منحها السلطة على كلّ تشكيلات يلدز في ولاية الموصل. ظهرت على وجهها الخيبة، فعاد زكريّا ليقول موضحاً:

– آينور هانم.. تشكيلات يلدز تملك سلطة إبطال أوامر الوالي، وتعطيل عمل المجالس، وتحريك قطعات الجيش في حدود الولاية، والاشتباك المحدود، والملاحقة، وتملك حق المصادرة، وإلقاء القبض، والاحتجاز بلا محاكمة. يمكنها أن تكون أعلى سلطة إذا تطلب الأمر.

سألته ملاطفة:

– هل أستطيع سجنك؟

ردَّ بجدّية:

– نعم يا هانم.. وإقعادي على الخازوق إن أحببت.

كان الشيخ معروف آخر من خرج من الجامع. في الأربعين، بدين، وكبير الرأس. على جلبابه العسلي بقعة ماء. اعترضه تابور فرفع

رأسه ونظر إلى آينور بملامح متوجّسة. سار نحوها بتمهّل وسألها من دون أن يلقي عليها التحيّة:

– ماذا تريدين يا هانم؟

قالت بثقة، بعد أن وقف تابور خلف ظهرها:

– أريـدك أن تكفّ عـن خيانة الله والـكـذب عليه.. لا تغرّر بالناس، ولا تدفعهم إلى الباطل باسم الدين، وإلّا فإنَّ هذا الوحش الواقف خلفي سيشويك، ويأكل لحمك، ويرمي عظامك للكلاب.

احمرّ وجهه، وتلفّت حوله باضطراب، فعادت آينور لتقول:

– هانسفورد وجميلة الدميمة لن يحمياك منّي.

تركته ومضت فبقي تابور في مواجهته. حرّك له حاجبيه بينما الشيخ معروف جامد، ومقطوع النفس، وحين لحق بها سألته:

– كيف رأيتني؟

أجاب بمرح:

– شرسة يا مولاتي، لكنّ هذا لا يؤكل مشويّاً.. أفضّل طبخه مع البصل.

***

كان صباح يوم أربعاء حين حُوّل صبيّ في العاشرة يعاني من كسرٍ في ذراعه إلى قسم الأشعّة في مستشفى الغرباء. كان الدخول إلى بناية الأشعّة لا يتمّ إلّا لمن يحمل إذناً عليه توقيع الطبيب المعالج، ومصدّقاً بختم مدير المستشفى. ولا تسمح الجندرمة التي تحرس الباب الخارجي إلّا بدخول مرافق واحد إذا عجز المريض عن الحركة. وبينما كان الممرّض يقوم بالتجهيز الأولي للتصوير صرخ الصبيّ متوجّعاً. حاول والـده السيطرة على الموقف إلّا أنَّ الخوف أمسك بولده، وزاده تمنّعاً، فطلب من الممرّض السماح لخال الصبيّ بالدخول

لأنّه الأقدر على تهدئته. خرج الممرّض، وطلب من الجندرمة السماح للخال بالدخول، وما إن تمّ ذلك حتى استلّ والد الصبيّ خنجراً من بين ثيابه وطعن الممرّض بظهره بعد أن كمّم فمه، أمّا الخال فقد أغلق باب غرفة الجهاز، وأخرج من صدريّته زجاجات صغيرة فيها نفط أفرغها على الأثاث المكتبي والأجزاء الخشبية من الجهاز وأضرم فيها النار. لحظات وتصاعدت أذرع اللهب، وسحب الدخان. انتبهت الجندرمة للجلبة، وأخذت تطلق النار، بعد فقدانها السيطرة، لتلفت الانتباه لما يجري. تفاعلت النيران بسرعة مع الموادّ الكيميائية من دون أن يفطن أحد لوجود فاعل لهذا، إلّا أنَّ الخال طعن شرطيّاً أثناء محاولته الخروج من باب خلفي للمبنى، فلاحقته الجندرمة، وأردته قتيلاً. أمّا الأب والصبيّ فقد تمكّنا من الهرب مع الذين أخلتهم قوّة الجندرمة الإضافية التي هرعت إلى المكان. في تلك الأثناء كانت النيران قد انتشرت في كلّ المبنى، وامتدّت إلى مخزن الأدوية.

***

أغلق زكريّا الكوّاز متجر رودولف، والشركة، ووضع حراسة مشدّدة على مصنع الجوارب. تراجعت الحركة في خان خواجة أحمد، وغاب السير هنري هانسفورد عن المدينة مدّة أسبوع.

لازمت آينور غرفتها ولم تخرج منها. أمسك القلقُ بريتا وهي ترى سيّدتها غير راغبة في الطعام، وطوال الليل تنادي رودولف إلّا أنَّ شبحه لا يستجيب. لم تنفع توسّلات زكريّا الكوّاز التي كان يطلقها صباحاً ومساءً من أمام باب غرفتها، ولا حتى همهمات أنينه العاشق، في حثّ آينور على الخروج. فعل ذلك طوال ثلاثة أيّام وكان في نهاية كلّ محاولة يدوّن آخر الأحداث على ورقة ويدسّها من تحت الباب. انضمّ سعيد أفندي السعرتي إلى شاؤول، ونارت، وكروغر، وزكريّا في

بيت البهجة انتظاراً لخروج آينور. أرسل الوالي رشيد باشا مع خليل آغا رسالة مواساة لما حدث لجهاز الأشعّة والمستشفى، إلّا أنَّ تابور منعه من مقابلة شاؤول، وهدّده بالذبح إن رآه يقترب من بيت البهجة مرّة أخرى.

وفي صباح الخميس، صدرت جريدة «موصل» معزية الأهالي بالكارثة التي وقعت، ومطالبة بفتح تحقيق في الحادث والانتباه لما يحدث في الخفاء، وعدم السماح للمتطرّفين بعرقلة عجلة العلم. ونشرت الجريدة في صفحتها الأخيرة بياناً من القنصلية الألمانية تتعهّد فيه باستمرار دعم ألمانيا لجهود التحديث في الموصل، مؤكّدة حرص الإمبراطور فيلهلم الثاني على المضيّ قدماً في مشروع سكّة حديد بغداد برلين، وفي توفير الأجواء اللازمة لنموّ الاقتصاد الموصلي.

خفَّت الإجراءات الأمنية الليلية، وانسحبت الكتيبة العسكرية التي نشرها الوالي رشيد باشا فجر الجمعة بمركز المدينة. وفي مساء الثلاثاء نشب حريق في سوق الألمان تمّت السيطرة عليه بعد أن خلّف دماراً في متجرين اثنين، إلّا أنَّ المدينة استيقظت صباح الأربعاء على خبر مقتل الخيّاط الألماني فيرنر مساعد كروغر في مدرسة الصنايع الذي وُجِدَ ممزقاً بالطعنات في قاعة الخياطة.

عاد الوالي لنشر الكتيبة العسكرية في الموصل، وأغلقَ البنكُ الإمبراطوري العثماني أبوابه، ومعه توقف العمل في خان خواجة أحمد، وخلت الموصل من الإنكليز. طلب ممثل القنصل الألماني من السرايا مضاعفة الحراسة في محيط مبنى القنصلية، وأرسل إلى آينور مستعلماً عن مكان خبراء القطن، وكيفيّة توفير الحماية لهم. كانت بريتا قد وضعت رسالة ممثل القنصل في صينية الطعام ودخلت بها على آينور التي كانت جالسة على السرير وظهرها إلى الباب.

قالت آينور بصوتٍ واهن:

– جهّزي لي بانيو الإمبراطور، وعودي لتأخذيني إلى بيت لمتعة.

قالت بريتا:

– زكريّا، وشاؤول، ونارت هنا ينتظرون الاطمئنان عليك.

تساءلت آينور:

– وكروغر؟

– لم يأت اليوم.

قالت آينور وهي تنهض:

– أخبريهم أن يذهبوا إلى أعمالهم.

***

زدحم جامع الباشا يوم الجمعة بالمصلين، وما إن اعتلى الشيخ معروف المنبر حتى تعالت التكبيرات. طلب منهم الهدوء، واتّقاء غضب الله، لأنَّ ما حدثَ في الأيّام الماضية هو إنذار، فالله أعطى علامة، ويطلب من الجميع العودة إلى جادة الصواب، ولأنَّ الفساد ستشرى، والسكوت عنه إثم ومعصية، فعلى المسلمين تطهير أنفسهم ممّا لحق بحياتهم من تشويه باسم العلم والتطوّر كي يظهروا أمام الله براءتهم ممّا يحدث في مدينتهم. مدَّ الشيخ معروف يده في جيب جلبابه، وأخرج علبة بحجم الكفّ من القطيفة وتابع: في هذه العلبة توجد قطعة نسجها الشيطان كي يعلّم شبابنا وبناتنا الفسق والفجور. هنا في هذه العلبة يا إخواني قطعة ملابس ماجنة تلبسها نساء فاجرات كي يلهين بها المسلم عن عبادة الله. هذه القطعة من الملابس كانت ترتديها نساء نينوى حين كانت الأصنام تُعبد هنا، وبهذه القطعة من الملابس فقدت نينوى قوّتها، وانتشر فيها الفساد

لأنَّ الرجال مالوا للمتع الزائلة، فذهبت عقولهم، ووهنت قوّتهم، لكنّ الله كان أشفق عليهم من أنفسهم، فأرسل عزّ وجلّ إليهم النبيّ يونس لينذرهم، ويبعدهم عن المعاصي، فكان ما كان، ورجعت نينوى عن غيّها وفسادها، وتابت إلى الله. وها هو الشيطان يظهر فينا اليوم من جديد بهذه القطعة الماجنة من الملابس اللعينة نفسها، وإذا ما سكتنا، وعجزنا عنها، فغضب الله آتٍ لا محالة.

***

في مساء السبت رفضت آينور مقابلة أحد. كان القلق بادياً على زكريّا وشاؤول بينما كروغر هايس مستلقٍ على الأريكة يأخذ بين الحين والآخر جرعة ويسكي من قارورة جيب. لم يشارك في الحديث، وكلّما طلب منه شاؤول رأياً، لوّح بيده علامة اللامبالاة. كان زكريّا أكثرهم تأثراً، ويفوته الكثير ممّا يقوله شاؤول الذي يضطرّ إلى تبسيط فكرته ظنّاً منه أنَّ الإرهاق أخذ من الجميع القدرة على التركيز.

شبك شاؤول أصابعه، وانحنى قائلاً:

– لسنا بمنأى عن الخطر يا زكريّا أفندي، ودفاعاتنا غير كافية.. علينا حثّ آينور هانم على اتّخاذ قرار سريع ورادع.. في الغد سيغادر ممثل القنصل الألماني إلى بغداد.. الوالي لن ينجدنا إذا ما حدث شيء.

قال زكريّا وهو ينظر إلى كروغر:

– يبدو أنَّ موت فيرنر الخيّاط أسعده.

– علينا أن نغادر يا زكريّا أفندي.. لقد تأخر الوقت.. انهض يا سيّد هايس.

قال كروغر وهو يفتح عينيه بصعوبة:

– سأنام هنا.. أين بريتا؟

قال زكريّا:

– دعه.. تابور سيتكفل به.

وحين دخلت بريتا غرفة القعدة سألها هامساً:

– غادرا البيت؟

– نعم.. هل أجلب لك غطاءً ووسادة؟

قال وهو ينهض بنشاط:

– خذيني إلى غرفة سيّدتك يا فاتنتي.

– ماذا تريد منها؟ إنّها نائمة.

أخذ جرعة من الويسكي، وقال:

– اسبقيني إليها.

ساعدت بريتا سيّدتها على ارتداء الروب القطني القصير، ومشطت شعرها وأجلستها على طرف السرير بمواجهة الباب ثمّ سمحت لكروغر بأن يدخل. أشار لبريتا بغلق الباب خلفها، فقالت له آينور وهي تحاول زيادة انتباهها:

– إن كان الأمر تافهاً فسأطلق عليك النار.

وضع كروغر يده في جيب جاكيته الفستقية متقدّماً بخطوات قصيرة حتى اقترب منها، ثمّ أخرج يده وهي مقبوضة ومدّها إلى آينور منحنياً. فتح أصابعه ببطء فظهرت لفافة قماشية بيضاء بعرض ثلاثة سنتمترات وقال:

– هذا ما كنت تحلمين به يا آينور... سبعة أمتار من قماش الموسلين.

الخروف الأحمر

بينما المهترخانة تعزف ألحانها في باحة السرايا، ومدافع «إيج قلعة» تطلق قذائفها احتفالاً بتنصيب الوالي الجديد الفريق الأول محمد فاضل باشا، كانت قوّة من الضبطية تنفّذ أمر المحكمة بمصادرة وإغلاق متجر رودولف في شارع الكورنيش.

حُكم على نارت الشركسي بالحبس ستة أشهر لبيعه في الخفاء منتجات مخلّة بـالآداب، وقد ردّت المحكمة الدعوى المقامة من جمعية المرأة المسلمة ضدّ آينور هانز، وأجـازت عمل البازار نظراً لوقوع الإبلاغ بالعمل، ودفع الضرائب المترتبة على التجارة.

عارض شاؤول جلعادي فكرة فتح متجر بديل في سوق الألمان، لكنّ آينور أصرَّت على ذلك لأنَّ من المعيب أن تخلو الموصل من متجر يبيع الملابس الأوروبية العصرية. تحاشى زكريّا الانفراد بآينور وصار يبقى في بيت البهجة مع شاؤول وكروغر. تجرّأت بريتا وطلبت منه أن يكون أكثر ليونة في تقبّل دوافع سيّدتها، وأن يواسيها بدل معاقبتها، وقالت له:

– رودولـف لم يظهر منذ مدّة طويلة، وآينور متيقنة من أنّه يخونها مع نساء الجنّة.

جاء زكريّا في السابعة مساءً ومعه العود. جلس بباب غرفة آينور، وأخذ يعزف ألحاناً للحافظ عثمان أفندي الموصلي. ضعفت حماسته، وتراخت أصابعه، إلّا أنَّ بريتا شجّعته بتمايلها الشبحي وانفعالات وجهها على الاستمرار. تمكّنت روحه من التشبّث بالأوتار من جديد، وعلا صوته بشجن عميق مغنّياً بالتركية، بينما العود يتوهّج في حضنه بنغمات عذبة.

فتحت آينور الباب، وظهرت بالروب الأبيض وهي منكوشة الشعر، ومنتفخة العينين. أكمل زكريّا أغنيته، إلّا أنَّ أنفاسه بقيت متسارعة وهو يتطلع إليها برجاء. قالت له وهي تتثاءب:

– اترك العود هنا، واذهب لتنام.. عد في الثامنة صباحاً لنتكلم.

***

بعد أن أجازت غرفة تجارة الموصل فتح متجر لملبوسات الأفندية في سوق الألمان باسم الخروف الأحمر، أوكل شاؤول جلعادي إدارته إلى شاب يهودي يُدعى حنون، وحصل من شركات ألمانية متخصّصة بالأحذية ومشغولات الجلود على توكيلات بيع. لم يعترض السير هنري هانسفورد على إعلانات الترتر التي ملأت السوق ومحطة العربات، وأرسل لآينور نبيذاً في صندوق عليه علامة متجر نيكولاس الباريسي كعربون محبّة. كانت البلدية قد خصّصت في الجهة الجنوبية من السوق ساحة لتكون محطّة للعربات التي تجرّها الخيول، وحوّلت خان السعد المجاور للسوق إلى إسطبل، ووسّعت الساحة على مرحلتين، وسقفتها، وسيّجتها بعد وصول العربات من فرنسا، وفرضت تسعيرة موحّدة للنقل. أظهر حنون مهارة كبيرة في إدارة المتجر، واستطاع في شهرين مضاعفة المبيعات، وفاز بعقد مع السرايا لتجهيز الموظفين

بكسوتين كاملتين صيفية وشتوية لثلاث سنوات، وفاتح آينور بتأسيس شركة للإعلانات، ويوم بدأت العربات الفرنسية تعلق على مؤخّراتها إعلانات الترتر كانت آينور أول من فتح له كاندريان صباحاً أبواب مقهاه. وقفت في الشرفة ومعها شاؤول تنظر إلى القشلة العسكرية، وحين جلب لها كاندريان قهوتها العربية سألته:

– هل تحبّ أن يتغيّر هذا المنظر أمام شرفتك؟

ردَّ وهو يفكّر بالغبار:

– المقهى حياة يا هانم والحياة تحتاج إلى شارع وناس.

وصل السير هنري هانسفورد بعد ساعة، فمازحته قائلة إنّ عليه أن يكون أبطأ من هذا كي لا يكشف عن جواسيسه. ضحك نائب القنصل وهو يوصي كاندريان بأن يجلب له من باب الطوب فطيرة الكاهي بالجوز والسكّر، وقال لها:

– أنت تستحقين الشفقة يا آينور.. صحيح أنّني معجب بقوّتك، ولكن، في النهاية، الحصان الفائز في السباق هو حيوان يوشك أن يموت.

سألته بالفرنسية وهي تلكزه في خاصرته:

– هل أعجبتك فكرة شركة الإعلانات؟

– تثيرني كلّ أفعالك.

قالت آينور بجديّة:

– هنري.. أنا أعلم أنّك ستنتصر في النهاية ولكن دعني أستلذّ بأحلامي.. ماذا سيضرّك لو أنّك جنّبتني استعمال القوّة.. اتركني أشعر بالفخر لأشهر. لا تؤذني برجالك المتديّنين. دعني لحلمي، وأؤكد لك أنّني سأخسر.

ردّ هنري هانسفورد بملامح مشدودة:

– آينور.. أنت تفتحين قلبك للناس هنا بينما أنا أفكّر بملايين الإنكليز الذين يجب أن أضمن لهم المستقبل لقرن قادم. لست أقلّ منك شرفاً ونزاهةً.. الفرق بيننا فقط هو أنّك تريدين إسعاد الناس في الموصل بينما أنا أريد إسعاد الإنكليز في لندن.

بقيت آينور على جمودها، فعاد هانسفورد ليقول:

– لستُ شرّيراً يا صديقتي، ولكنّني لن أتركك تنجحين أبداً. سأدمّرك بكلّ ما أملك من قوّة.. سأفعل هذا رغم أنّ قلبي يحبّك.

***

اقتحمت مجموعة من طلبة علوم الشريعة مقرّ جمعية العِلم عصر الجمعة وحطّمت أثاثها، وأخرجت مكتبتها الصغيرة إلى الشارع وأضرمت فيها النيران. اتهمت الجمعية إمام جامع قدرية خاتون الشيخ مصطفى الشهرزوري بالتحريض على هذا، إلّا أنَّ الوالي أوقف الإجراءات القانونية والتقى، في السرايا، بممثلين عن الجمعية مستعيناً بحكمة سعيد أفندي السعرتي الذي أصرَّ على إبعاد الشهرزوري إلى خارج الموصل. تصدّى الشيخ معروف لقرار الإبعاد، وقابل الوالي، مدّعياً أنَّ ما حدث له صلة بثورة الرعيّة على الكفر والفساد، وأنَّ أعضاء الجمعية لا يؤمنون بالله، ويروّجون لحياة التكبّر والبذخ. وفي صلاة الجمعة قال الشيخ معروف وهو على منبر جامع الباشا إنَّ ميزان المساواة بين البشر مال لمصلحة التعالي، وإنَّ التفاخر بالملبس يؤذي الفقراء ويغضب الله. وأيّ علم من خارج علوم الشريعة هو كفر وبهتان.

في الثامنة من صباح السبت طرق زكريّا باب بيت البهجة. وجد آينور تشرب قهوتها في الحوش، وهي شاحبة الوجه. أثنت على أناقته وعدّتها لمسة وفاء منه لنارت الشركسي. كانت تلك

الملاحظات التي تبديها آينور في غير أوقاتها، تربك زكريا وتجرّده من الشجاعة، وتجعله ينسى ما عزم على قوله لها. أحضرت بريتا كرسيّاً خيزرانياً، فطلب منها أن تعدّ له طبقاً من البيض المقليّ. حاول زكريا الحصول على موافقة آينور كي تعتقل تشكيلات يلدز الاستخباراتية الشيخ معروف، إلّا أنّها فضّلت إلزامه بتعهّد عدم إثارة الشغب. أخبرها زكريّا أنَّ هذا الإجراء يتطلب موافقة السرايا، وبما أنَّ الوالي لا يرى الشيخ معروف مصدراً للمتاعب، فلن يقبل بالاستدعاء والإجبار. أصرَّت آينور على موقفها، فلمس بسبّابته ركبتها قائلاً:

– هذا الشخص يستهدفنا بأعوانه وبتحريض من الإنكليز.. فيرنر كان يعمل في الشرطة السرّية الألمانية، وهذا يعني أنَّ الاستخبارات الإنكليزية كشفت الشبكة الألمانية. لقد شدّدنا الحراسة على كروغر بطلب من الشرطة السرّية.. أعوان الشيخ معروف سيهاجمون مصنع الجوارب أو بيت المتعة.. علينا إلقاء القبض عليه في أسرع وقت.

قالت آينور، وهي تضع يدها على صدرها:

– أنت تخيفني يا زكريّا.

قال بوجه متشنّج، ونظرات حادّة:

– ولكن لا يبدو أنَّ هذا يفيد. أنت بعنادك ستسبّبين كارثة كبيرة لنا. ثلاث دول عظمى تتصارع هنا يا هانم.. سبعون عنصراً مسلحاً يحيطون ببيتك الآن لحمايتك. إنّهم يفعلون هذا ليل نهار، ومثلهم ينتشرون في الأسواق، وأماكن تنقلاتك. هؤلاء قد يتعرّضون للموت إن لم نحسن إدارة الموقف. أنا لا أخبرك بكلّ شيء حتى لا أخيفك.. أنت لا تعرفين أيّ شيء عمّا يجري.

قالت آينور وهي تسعل:

– تكلم مع الوالي بشأن الشيخ معروف.. هو رجل عسكري شريف ويهمّه الانضباط.

لاحت ابتسامة ساخرة على وجه زكريّا:

– لا تعتمدي على الشرف، والحق، والأخلاق، والصدق.. الوالي يرتشي، ويسرق الضرائب، ويبيع، ويشتري الأراضي الأميرية، ويقاسم التجّار أرباحهم، وبعدها يظهر أمام الناس بأنّه الحافظ لحدود الله، والمطبّق للشريعة الإسلامية. رجال الدين يسكتون عن نهب خزينة الولاية، ويغضبون لبيع ملابس داخلية شفافة.. علينا أن نعتقله لأنّه كذّاب ومنافق ويشتهي سفك الدماء.

قالت آينور وقد أمسكت بها الرجفة:

– إن فعلت، فلن أحلم، أو أحبّ بعدها.

جلبت بريتا البيض فأشار زكريا بيده أن ترجعه. تردّد قليلاً ثمّ قال:

– موقف سعيد أفندي السعرتي مع الشهرزوري دفع الشيخ معروف إلى معاداته.. لقد وصلنا أنّ جليلة تستغلّ عيادتك لإغواء النساء، أو للتحريض على أفعال مخلّة.. هذه شرارة جديدة ما تلبث أن تحرقنا يا هانم..

قاطعته آينور بانفعال:

– اسمع أيّها الصحراوي.. المرأة لحم ليّن تحفّزه اللمسة، وفي جسدها فجوات، وحجرات، وقنوات تتمدّد وتتقلص، ويحدث أن تضعف العضلات، وتتراخى، فنلجأ في الطبّ إلى التدليك، والإراحة، والتلمّس من أجل العودة إلى الانكماش. وبما أنّ مهبل المرأة قناة كبيرة مفتوحة والإنجاب يعتمد على بيت الرحم ومواسير الإباضة، لذلك نضطرّ إلى استعمال أيادينا كعلاج طبيعي.. هذا ما تفعله جليلة مع النساء أيّها المتخلف.

قال زكريّا والخيبة ترخي ملامحه:

– أنت يا هانم تتحدّثين عن المهبل بطريقة جيّدة، وربّما هذه هي خبرتك الوحيدة.. يبدو أنّ أحدهم خدع مولانا السلطان.

***

عرض شاؤول جلعادي على زكريّا تسفير آينور هانز إلى بغداد لأشهر ريثما تعود الأوضاع إلى استقرارها، وتستعيد الأعمال التجارية عافيتها. كانا قد أخفيا عنها عزم الطبيب جرجس غزالة على الهجرة إلى بيروت. حاول زكريّا ثنيه عن الأمر إلّا أنّه سار بإجراءاته وقدَّم استقالته من مستشفى الغرباء إلى الوالي محمد فاضل باشا الذي قبلها لأنّها ترضي الشيخ معروف وأتباعه، وتفصح عن ميوله. لم يكن زكريّا الكوّاز مع فكرة إبعاد آينور عن الموصل، وانتظر أن ينفذ الوالي تعهّداته بإعادة تنظيم الجيش والضبطيات وإحلال الأمن في المدينة. زاد الوالي قوّاته الداخلية من حملة البنادق إلى خمسمئة جندي، ونشر نقاط تفتيش ليلية، وكثّف من وجود قوّات الضبطية في الأحياء التي يقطنها الأجانب. عادت الحركة لتنشط في سوق الألمان واتفق الوالي مع السير هنري هانسفورد على فتح خان خواجة أحمد، وعقد اجتماعات عدّة مع رئيس غرفة تجارة الموصل محمد باشا الصابونجي لتنشيط التجارة مع بغداد والبصرة.

ازدادت تقلّبات كروغر هايس بعد حبس نارت. أخذ يتذمّر من متابعة العمل في مزارع القطن، وانقطع عن مدرسة الصنايع. كانت آينور تستغلّ ساعات الصفاء القليلة التي تمرّ به لتعيده إليها. نظم شاؤول لقاءات مع عائلات امتهنت النسيج لأجيال عدّة وتحوّلت بعد ذلك إلى تجارة الأقمشة. لم يكن كروغر هايس ميّالاً للعمل الإنساني، ولكنّه يأمل الخلاص سريعاً من عبء الموسلين، لذلك تأتي ساعاته غير متساوية فيعمل بنشاط كبير لأسبوع ثمّ ينال منه الخمول لأسبوعين.

كان شاؤول قد استأجر بيتاً كبيراً من طبقتين، وأجرى التعديلات التي طلبها كروغر، مستغلاً السرداب الكبير والطبقة العليا للتدريب ونسج الموسلين. عُقد اتفاق مع عائلتين توفّر بموجبه آينور مكان العمل ولوازمه، وتورّد القطن بنقاوة عالية، وبسعر مناسب، مقابل الالتزام بالاستمرار في نسج الموسلين، وتحسين جودته، مدّعية أنّ ما تقدّمه من دعم مادّي للمشروعين هو منحة تهبها الإمبراطورية الألمانية لصناعة النسيج في الموصل.

***

قبل مغيب شمس الجمعة بساعة، حضر زكريّا الكوّاز ومعه الطبيب جرجس غزالة لمقابلة آينور. أدخلتهما بريتا إلى غرفة القعدة، وعمل تابور لهما القهوة. ظهرت آينور بثوب كحلي مطرّز الصدر بالترتر الأصفر. قالت قبل أن تجلس قبالتهما:

– لا يبدو عليكما التفاؤل.

ابتسم جرجس وهو يلتفت ناظراً إلى زكريّا الذي قال قبل أن يخلع طربوشه:

– الدكتور جاء لتوديعك يا هانم.

ابتسمت، وهي تراه منكمشاً، وقد فقد لمعة وجهه التي عاد بها من ألمانيا:

– علمت من تابور بقصّة الاستقالة وبرغبتك في الهجرة إلى بيروت.

قال جرجس:

– وأنا جئت أشكرك على ما فعلتِه من أجلي، وأطلب مباركتك.

قالت آينور متصنّعة التماسك:

– لم أفعل أيّ شيء يا دكتور.. أنت أحرقت كتاب «غاية الإتقان في تدبير بدن الإنسان» لرئيس أطبّاء الدولة العثمانية ابن سلوم صالح أفندي، وهم أحرقوا جهاز أشعّة إكس.. هذا يعني أنّني لم أفعل أيّ شيء.

ظهر عليه الارتباك وهو يقول:

– أنت وقفت بجانبي، وحققت حلمي يا مدموزيل.

نظرت آينور إلى أصابع كفّها اليمنى، وقالت:

– أنا واثقة من أنّك ستعود في يوم ما يا دكتور.. أتمنّى لك التوفيق.

ثبّت طربوشه على رأسه وهو ينهض:

– ربّما أعود ومعي جهاز أشعّة إكس جديد يا مدموزيل.

ابتسمت آينور، فعاد جرجس ليقول:

– سأبقى في بيروت خمسة أشهر ثمّ أسافر إلى ميونخ لمقابلة رونتغن.. هو من حدّد الموعد.. لن أخذلك يا مدموزيل.

ردَّت بصوتٍ مخنوق:

– واثقة من هذا.

رافق زكريّا جرجس إلى الباب وعانقه مودّعاً. عند عودته، وجد آينور في مكانها وهي تبكي. جلس بجوارها واضعاً كفّه على كتفها:

– كلّ شيء ينهار أمامي يا زكريّا.

ضغط على كتفها قبل أن يسحب يده قائلاً:

– آينور هانم.. هناك خط من الخطر لا نقدر على تجاوزه. إذا بقيت الحال من دون قرار منك فسوف ينهار كلّ شيء حقاً.

الأفندية الجدد

في الثانية من بعد منتصف الليل هاجم العشرات من الملثمين، تعزّزهم مجموعة من الخيّالة، مصنع رودولف في باب سنجار. باغت الملثمون، في توقيت واحد، نقطة حراسة عند السياج الشرقي، وأخرى كانت قبالة بوابة المخزن الشمالية، وقتلوا طعناً ستة من الحرّاس. حاول الملثمون التسلّل إلى المخزن الذي كان فيه كروغر هايس مع أربعة من الخيّاطين، إلّا أنّ حارساً جوّالاً انتبه لحركتهم، وأطلق الرصاص قبل أن يتمكّنوا من اقتحام البوابة. غطى المدافعون بالرمي المكثف انسحاب الألمان الخمسة إلى سطح بناية المصنع الذي كانت تتوزّع بين زواياه العليا نقاط حراسة محصّنة بأكياس رمل تتخللها مزاغل للبنادق. استمرّ الردّ على مصادر النيران لدقائق هيمن فيها الخوف والارتياب، لكن سرعان ما سيطر المدافعون على الجوانب، وقتلوا ثمانية من المهاجمين بينهم ثلاثة من الخيّالة. أضرمت النار في الجزء الشمالي من المخزن. لم يمض سوى وقت وجيز حتى أمسك اللهب بمخزون الخيوط والجوارب. طوّق المهاجمون مبنى المصنع، لكنّ ذلك لم يضعف الدفاع عن البوابة الجنوبية الكبيرة. وما إن شعروا باقتراب نجدة خيّالة الجندرمة التي أخذت تطلق النار عن بعد، حتى

فرّوا باتّجاه الصحراء. دامت محاولة إطفاء النيران لساعات، إلّا أنّ المخزن، بما فيه، كان قد تحوّل، مع شروق الشمس، إلى ركام أسود.

***

رفع نائب القنصل الإنكليزي السير هنري هانسفورد، ومعه معاون القنصل الفرنسي فيكتور دولاباس، مذكّرة احتجاج إلى الوالي محمد فاضل باشا استنكرا فيها الهجوم الذي تعرّض له مصنع رودولف، وطالبا بحماية مصالح الدول الكبرى في الموصل، ومضاعفة الجهد من أجل الالتزام بالمعاهدات الدولية. وأعلنا، تضامناً مع الإمبراطورية الألمانية، وقف التعاملات التجارية إلى حين تقديم تعهّدات حقيقية بحماية المصالح الأوروبية في المدينة.

أغلقت القنصلية الألمانية أبوابها، فيما نشر ممثل القنصل كروس هوملز بياناً في جريدة «موصل»، تأسّف فيه، باسم حكومته، على استهداف أطراف، وصفهم بالمتشدّدين، للمرّة الثانية، جهود إمبراطور ألمانيا وملك بروسيا، فيلهلم الثاني، النبيلة لتخليص بلاد ما بين النهرين من البداوة وضمّها إلى جامعة الدول المتطوّرة. وعبّر عن استغرابه من النفور الذي يبديه الأهالي إزاء النوايا الحسنة التي تمدّها ألمانيا بيد الرايخ الثاني المفتوحة.

كلّف الوالي محمد فاضل باشا تشكيلات يلدز الاستخباراتية بالتحقيق في الحادث، وتفقد مصنع رودولف، واعداً بملاحقة الجناة، إلّا أنّ ذلك لم يغيّر موقف السير هنري هانسفورد، وبقي خان خواجة أحمد مغلقاً. وبينما أعلن رئيس غرفة تجارة الموصل محمد باشا الصابونجي توقف التصدير إلى مصر والسودان، والحجاز، وفلسطين، تحرّكت قوّة عسكرية باتّجاه سنجار لتأديب اليزيديين.

كانت آينور هانز قد رفضت طلب السرايا الحضور في المصنع لاستقبال الوالي، لذلك تراجع مجلس الولاية عن قرار المواساة الذي اتّخذه والقاضي بإعفاء شركة رودولف من دفع الضرائب مدّة عام. لم تتعرّف تشكيلات يلدز الاستخباراتية إلى هويّات قتلى الهجوم على المصنع، لكنّها استدلّت على أنّ الأسلحة المستخدمة غير مسجّلة في الدفاتر، وهي من منشأ روسي، ورفعت تقريرها إلى الوالي موصية بضرورة وضع خمسة أماكن في المدينة تحت حراسة الجيش المشدّدة. لم يتعامل الوالي بجدّية مع وصايا تشكيلات يلدز لأنّ الأماكن الخمسة تخصّ المصالح الألمانية فقط، وهذا الأمر سيغضب الإنكليز ويعطل اقتصاد المدينة.

لم يظهر زكريّا الكوّاز في بيت البهجة مدّة خمسة أيّام. استعان شاؤول جلعادي بسعيد أفندي السعرتي كي يخفف عن آينور هانز نوبات البكاء. كانت جمعية العِلم قد أطلقت ندوات يومية مفتوحة تناقش قضايا التّخلّف الشرقي والتقدّم الغربي، لكنّها ما لبثت أن تحوّلت إلى تجمّع داخلي احتجاجي عوضاً عن الخروج إلى الشارع. وحتى لا تفقد الجمعية روح التحدّي علّقت على بابها لافتة كُتب عليها «لا يُسمح للمعمّمين بالدخول». ازداد الإقبال على حضور ندوات الأفندية الجدد، وهي التسمية التي أطلقها محرّر جريدة «موصل» على الذين يعارضون الحملة العسكرية ضدّ اليزيديين، إلّا أنّ طلّاب الشريعة نظموا تجمّعاً يومياً في جامع قدرية خاتون، وحاولوا جذب الناس إليهم، مستغلّين قرب حلول شهر رمضان. كان الأفندية الجدد قد اتهموا الوالي بالوقوف مع المتخلفين في هجمة معاداة التطوُّر، وعدّوا الحملة العسكرية ضدّ اليزيديين في جبل سنجار بمثابة إطلاق ليد التخلّف المتستِّر بالدين. كُلّفت قوّة من حملة البنادق بالفصل بين الجامع والجمعية، وحين حضر الوالي فعاليات طلبة الشريعة

في جامع قدرية خاتون، أخلى حملة البنادق مقرّ الجمعية ومنعوا الأعضاء من الحضور لدواعٍ أمنية. استمرّ الوالي مدّة أربعة أيّام في المشاركة بفعاليات طلبة الشريعة، ما جعل الجمعية تفقد جماهيرها التي مالت إلى الاستعداد المبكّر لشهر رمضان.

تعهّد شاؤول جلعادي بإنجاز أعمال ترميم المخزن في ظرف ثلاثة أسابيع وهي المدّة التي ستستغرقها طلبية الخيوط الجديدة لقطع الطريق من ميناء البصرة إلى الموصل. كان كروغر هايس معبّأً بالانفعالات الحماسية، ويشعر في كلّ لحظة برغبة في اختبار عضلاته، وبدا أكثر إيماناً بآينور هانز منه في أيّ وقت آخر، وكلّه حنين لأصوات ماكينات المصنع. ظهر مجدّداً في مدرسة الصنايع، بعد إخضاع البناية لحراسة مشدّدة، فاتحاً ورشة لتعليم أرامل الجنود دون سنّ الخامسة والعشرين الخياطة والتطريز. رفع بمعاونة الألمان الأربعة كلّ مخلّفات الحريق من المخزن ليكون صالحاً مجدّداً كمكان للنوم، متابعاً مع آينور تفاصيل إحياء المصنع، وهو أكثر رقة ونظافة ممّا كانت تطمح إليه، وأشدّ خنوعاً من ذي قبل لشراسة رائحتها الباتشولية. كانت تنقلات كروغر، وشاؤول، تجري بعربة صندوقية، يرافقها ثلاثة من الخيّالة الأكراد بزيّهم الأزرق ومسلحين ببنادق ألمانية نوع ماوزر، كما خصّص زكريّا الكوّاز حارسات يفتّشن النساء في بيتَي الرغبة والمتعة. لم تكن هذه الإجراءات السبب في قلة الإقبال على البازار والعيادة، فبعد حبس نارت الشركسي تراجع شغف النساء المسلمات بشراء الملابس الداخلية، وانقطعت أغلب الحوامل عن مراجعة عيادة آينور، واقتصر الأمر على المسيحيات فقط، وحالات عاجلة تخصّ التّداوي الليلي، والحوادث البيتية العارضة كالحروق، والجروح العميقة، كما تلاشى اهتمام النساء بتمارين جليلة لما بعد الولادة، وانعدمت الرغبة في العناية بالبشرة، وتفتيح لون المناطق

المظلمة، فقد أقدمت جمعية العفاف التي تموّلها جميلة خاتون على الإعلان عن رابطة تعليمية باسم «النساء حطب جهنّم» تعطي دروساً للفتيات في جامعي الباشا وقدرية خاتون عن الملابس الشرعية، وآداب الإنجاب للمرأة المسلمة. ذبلت جليلة سريعاً، وظهرت عليها رغبة واهمة في حكّ الجسم، ما جعل آينور تطلب منها ملازمتها أثناء فحص الحوامل. وحتى تبعدها عن فراغ غرفة البانيو، وتعيد تغذية أصابعها بالحسّ، كانت تكلّفها بإجراء تلمّسات لحجم البطن عند الوقوف والاستلقاء، وتخلي مكانها عند تخت المعاينة موجّهة جليلة لتفقّد الوسط الهيدروجيني للمهبل، والتحقق من النشاط السليم للمخاط الجوفي. تلك الأوامر العابثة كانت ترعب آينور، فقد كانت جليلة تلين من بعدها، ويغمرها الانتعاش، وتترطّب شفتاها، وتعود الطراوة إلى مشيتها.

***

اتّسعت ابتسامة الشيخ سعد الدين آل دبّاغ حين رفعت آينور البوشية عن وجهها. كانت رائحة البخور تختلط بالتبغ في الغرفة التي يعوزها الترتيب. اعتذر الشيخ عن تأخره في مقابلتها، وأبدى أسفه لما حدث للمصنع ولسفر الطبيب جرجس غزالة. لاح الإنهاك على وجهه، وهو يترقّب ما جاءت آينور من أجله. بدا لها أكبر سنّاً ممّا كان عليه في اللقاء الأول.

قالت آينور وهي تظهر إجادتها لوضع الجلوس على الأرض:

– عملت لوقت طويل على إحياء نسيج الموسلين في الموصل، وقد نجحت في هذا.. قد لا يكون بإمكاني الاستمرار مع العائلتين اللتين تنسجان الآن هذا القماش بالسرّ، وحتى أبقي الأمر مخفيّاً عن الإنكليز لا أستطيع زيادة عدد الذين يعملون على إنتاجه، لهذا جئتك

كي تجد لي شخصاً محلّ ثقة يتولّى الإشراف على العمل ويبقيه على سرّيته إلى حين زوال الخطر الإنكليزي، وسوف أخصّص له المال الكافي، ويكون بعهدتك.

بقيت ملامح الشيخ سعد على انطوائها، فعادت آينور لتقول بصوت اعترته رجفة:

– لم يطلب منّي أحد فعل هذا.. هو حلم أحببت أن أحققه.

ابتسم الشيخ وقال وهو ينحني كي لا يواجه نظراتها:

– الأحلام تولد من رحم القلب، لذلك تستحق أن تتحقق.

سألته:

– هل ستساعدني؟

واجهها بعينين رماديتين:

– بالتأكيد سأفعل يا هانم.

قالت آينور وهي تقاوم مرارتها:

– سأكلف شاؤول جلعادي بمتابعة الأمر معك.

استدركت قائلة:

– مزارع القطن سأضعها أيضاً في عهدتك.

سارع الشيخ سعد إلى القول كي يبعد عنها أيّ شبحٍ للحزن:

– آينور هانم.. بعد الذي حدث لمصنعك اختلف الأمر تماماً. الكثيرون الآن يقفون معك.. لا يمكن لقماش الموسلين أن يبقى سرّاً. كلّ الموصل على علم به، لكن هناك من يريد ألّا تصل يد الإنكليز إليه.

شبك أصابعه، وعاد ليقول:

– حرق المصنع سيدفع الألمان إلى التوقُّف عن التطلُّعات، وفي القريب ستجدين فيلهلم الثاني يقطع الأموال عن شركة سكّة حديد الأناضول ويذهب للتفاوض مع الإنكليز.. أعدك بالمحافظة على نسيج الموسلين، ولكنّني لن أقدر على حماية المزيد من أحلامك.

– أحلامي هي شقائي المحبّب ولكنّني أريدك أن تنظر بعين الرأفة إلى أحلام شباب جمعية العِلم.

– أفهمك يا هانم.. اطمئني..

سألته بصوت طفولي:

– لماذا الشيخ معروف أقوى منك؟

تحسّس صدره، وقال بوجه يميل للزرقة:

– العثمانيون والإنكليز هم الذين بنوا جوامعنا يا هانم، ووضعوا العمائم على رؤوسنا.

تابع وابتسامته يشوبها الوجع:

– حين وزعوا العمائم لم تكن لديهم واحدة على قياس رأسي.

مدّت سبّابتها اليمنى باتّجاهه:

– لا تجعلهم يلفّون عمائمهم بالموسلين.

هز رأسه موافقاً، فشدّت جسدها وهي تأمره بصوت حازم:

– اخلع ثوبك لأفحصك.

بقي الشيخ على ذهوله، فقالت وهي تتقدّم على ركبتيها نحوه:

– رعاية الموسلين تستوجب أن تكون لك صحّة غزال يافع.

عادت آينور لتقول متستّرة على خجل الشيخ وهو يخلع ثوبه:

– الطبيبة الموهوبة هي التي تشخّص مرض المرأة من النظر إلى الرجل الذي يعاشرها، لهذا علّمنا الدكتور كيفن غميلينغ أن نفحص الرجال قبل البدء بمعالجة النساء وذلك بتسع علامات بصرية، وأنت يا شيخنا فشلت في ستٍّ منها.

***

صدرت جريدة «موصل» صباح الخميس بافتتاحية غامضة، هاجمت الدول التي ترفع شعار السلام والخير وتعمل في الخفاء على زعزعة

أركان الدولة العليّة. وقالت عن الحملة العسكرية التي يشنّها الجيش السادس على جبل سنجار بأنّها جاءت للدفاع عن أمن الأهالي. وقبل انتصاف ليل الجمعة بساعة ألقت الضبطية القبض على اثنين من اليزيديين كانا ينويان إحراق محطة العربات الفرنسية.

لم تفتح آينور هانز البازار والعيادة ليومين. وصباح الاثنين طلبت من كروغر هايس خياطة فساتين لها تحاكي الذوق الصاعد في برلين. وقبل انتصاف النهار أرسلت تابور لإحضار شاؤول جلعادي وزكريّا الكوّاز إلى بيت البهجة. كانت بريتا قلقة من الصحوة الشجاعة التي تلبّست سيّدتها. لم يحدث أن دققت آينور في أفعال خادمتها، حتى إنَّها لم تكن تنتبه للتغيُّرات التي تحدث في غرفة نومها، ولكنّها على غير عادتها، أخذت تراقب بريتا في المطبخ وتعطيها الملاحظات التي تنمّ عن الحزم، وصدمتها حين كشفت لها عن تذمّرها الدفين من سوء استعمالها للبهارات. أمرتها بتنظيف غرفة القعدة، ونبّهتها إلى ضرورة إبداء اللطافة المطيعة مع مساعديها.

ظهر الإنهاك على الرجلين وهما يتجاوران في الجلوس قبالة آينور التي بدت أنيقة وصافية الوجه. استقامة ظهر زكريّا وانحناء هامة شاؤول، جعلاهما يشبهان سارية تتدلّى منها راية خاملة. سألتهما بريتا بتكلف إن كانا يودّان تناول الكعك مع القهوة. أبعدتها آينور بحركة من يدها، وقالت موجّهة كلامها إلى زكريّا:

– أريدك أن تكتب رسالة إلى السلطان تطلب منه فيها عزل الوالي محمد فاضل باشا وإعادة سعيد أفندي السعرتي لرئاسة البلدية، وطرد الشيخ معروف من الموصل وإرساله إلى ولاية البصرة. وأريدك أن تطلب منه أيضاً أن ينعم علينا بأرض أميرية نخصِّصها لبناء جامعة الموصل.. تكتب الرسالة باسمي وترسلها في أسرع وسيلة إلى إسطنبول.

قال زكريّا وقد تملّكته الحماسة:

– كان علينا فعل هذا منذ زمن بعيد.

نظرت آينور إليه طويلاً قبل أن تقول:

– كنت أنتظر أن يملّ رودولف من الجنّة.

وجّهت عينيها إلى شاؤول، وتابعت:

– أريدك أن تجهّز لي الأموال غير المودعة في البنك كي نبدأ ببناء الجامعة حين تصل موافقة السلطان. نحن نحتاج إلى أضعاف ما لدينا لتحقيق هذا الحلم، لذلك أرسلت إلى الإمبراطورة أوغستا فيكتوريا طالبة مساعدتها.. جميل أن تكون في الموصل جامعة تشبه التي في توبنغن.. راهبات التقدمة سيبعن الفجل والبصل في سوق السرايا.

قال شاؤول بارتباك:

– الاستثمار في التعليم لن يحقّق لنا أيّ مكسب.. أرى أن نحافظ على وديعتنا ونطلب من السلطان تحويل قسم من عائدات الضرائب إلى مشروع الجامعة.

– لا أودّ الاستثمار، ولا أبحث عن مكاسب. الوديعة ليست ملكي يا سيد جلعادي.

ارتجفت يده اليمنى وهو يرفعها قائلاً:

– يا هانم، كلّ قرش نتداوله في عملنا هو ملكك، كما أنَّ الوديعة زادت بنسبة ثلاثين بالمئة من صافي أرباح السنوات الماضية. الوديعة هي سند موقفنا المالي، لهذا نحن نصمد في الظروف الصعبة ونقدر على مواجهة الخسائر. إذا وهبناها لعمل الخير، فسننهار مع أول عارض يصيبنا.. سنكون بلا غطاء.

قالت آينور بصلابة:

– حين نفتح في الموصل جامعة تدرّس العلوم سيفهم الناس الله فهماً صحيحاً، وعندها لن يكون باستطاعة الشيخ معروف الظهور مجدّداً.

انكمش وجه شاؤول وكأنّه يحدّق في عين الشمس، فقال زكريّا وهو ينحني:

– لم نر القهوة ولا الكعك يا هانم.

***

بعد أسبوع من ظهور ممثل القنصل الألماني في مقهى كاندريان تلقّت آينور دعوة من كروس هوملز إلى حفلة شاي تقام في بيته يحضرها السير هنري هانسفورد، ومعاون القنصل الفرنسي فيكتور دولاباس. اعتذرت آينور في رسالة قائلة إنّها تجهل إتيكيت الشاي الإنكليزي، وتخشى إحراج القنصلية الألمانية. فضّل كروس هوملز التعبير عن انزعاجه أمام شاؤول جلعادي الذي استقبله بمقرّ الشركة في شارع الجامع النوري، وأطلعه على ما أنجز من عملية إعادة تشغيل مصنع الجوارب. قال ممثل القنصل الألماني إنّه يقدّر الأزمة الصعبة التي تمرّ بها شركة رودولف لكنّه كان يتوقّع من الآنسة آينور هانز أن تكون حريصة على إنجاح جهوده في المحافظة على مصالح الإمبراطورية الألمانية، وتابع وهو يشعر بالفخر:

– برلين ولندن تتنافس إحداهما في إيذاء الأخرى، لكنّ الألمان والإنكليز في أطراف العالم لا يتصرّفون معاً بالحقد نفسه. هذا يُسمّى البعد عن الحلبة.. يُفترض بمرشدة سياحية أن تكون على دراية بإتيكيت الشاي الأسود.

تجنّب شاؤول جلعادي اللقاء بآينور، واعتمد على زكريّا في نقل تفاصيل تواصله مع الشيخ سعد الدين آل دبّاغ، الأمر الذي أتاح لها

التمسُّك أكثر بكبرياء حكمتها، وجعلها تولي تابور المزيد من عطفها. عادا للخروج فجراً إلى باب الجسر، وأخذت تستحسن صمته وهي تكلّمه عن كوابيس الليل. لم تمنع نفسها من وضع كفّها على عضلة ثديه الأيسر، ولم يبدِ أيّ تفاعل مع نوبات الامتنان التي اجتاحتها لصباحات عدّة وهي متألمة من بخل حظّها، وحين وهبته قطعة ذهبية ثقيلة على شكل زهرة عبّاد الشمس تشبّع من النظر في عينيها، وقال إنَّ الرجل المخصيّ لا يحبّ سوى اللحم والعرق. كانت حزينة العقل ومتورّطة القلب بذكريات شديدة الإلحاح. تتوق للخلاص من كلّ ما يجعل أنفاسها ثقيلة، وسيطر على رأسها منظر أن تنثر القروش التي تملكها على الأرض عند باب الجسر ليلتقطها كلّ عابر، وتهرب راجعة إلى توبنغن.

كان متجر حسين الطاهر يزدحم بالنساء، على النقيض من سوق القماش التي بدت حركتها بطيئة. انتعشت روح آينور بتأثير البخور، وانتابها إحساس الانغمار بالماء. وضع حسين الطاهر في راحتها حفنة من الزبيب، وأخذ مكانه في الركن وفي عينيه الرماديتين لمعة ثقة. جمع جانبي ثوبه الحريري الأزرق بين ساقيه، وسألها بوجه مشرّب بالحمرة:

– هل أنت بحاجة إلى المزيد من ترتر بالي يا هانم؟

ردّت آينور وهي تتطلّع إلى ألوان الديباج، والساتان، والتفتا:

– لا أظنّ هذا يا سيد الطاهر.. أنا هنا لأنني أحبّ متجرك.

ابتسم بزهد قائلاً:

– لا تأسفي على الذي لم تحققيه يا هانم، فحتى نحن الذين نبيع الأقمشة الغالية ونكسب الكثير من الأموال، ستكون نهايتنا محزنة، وفقيرة. نحن هنا نتذكّر الحروب، وزيارات الطاعون،

والفيضانات، أمّا الأحلام، والأماني، والتطلّعات، فنتخلّص منها بسرعة لأنّها غير مجدية.

وافقته قائلة:

– الخلاص السريع هو ميزة ممارسة فنّ الطبّ.

سألها:

– هل أنت واثقة من أنّك لست بحاجة إلى المزيد من الترتر؟

سقطت حبّة زبيب من راحة يدها، قبل أن تقول:

– واثقة تماماً يا سيّد الطاهر.

وقفت آينور هانز، عند انتصاف الظهيرة، على رصيف الكورنيش وظهرها إلى دجلة تتأمّل بوجع واخز متجر رودولف الذي طمست في أعلاه أحرفه العربية المنحوتة على رقعة بيضوية من الرخام الأسمر، وبدا لها هيكل المتجر كالحاً، وأركانه مُعلَّمة بسخام النفايات التي يحرقها عمّال التنظيف صباحاً. التفتت مستقبلة ضجّة أحدثتها عربة زكريّا الكوّاز المحروسة باثنين من الخيّالة الأكراد. بدا عليه وهو يترجّل بحذر أنّه نام ببدلة الخروف الأحمر وأنّه لم يأخذ كفايته من الأحلام. جال بصره في المكان، وتطلّع إلى سطوح البنايات القريبة قبل أن يقول لها:

– السلطان المعظم يطلب منك السفر إلى إسطنبول لمقابلته. علينا مغادرة الموصل بعد منتصف الليل باتّجاه حلب ومن هناك إلى اللاذقية لنبحر بعدها على اليخت الإمبراطوري.

سألته وهي ترفع البوشية عن وجهها:

– وماذا قال أيضاً؟

ردّ زكريا وهو يغمض عينيه:

– هذا كلّ ما قاله يا هانم.

إسطنبول

الثلاثاء 1908/7/1

دولمة باهجة

في الخامسة فجراً، رسا اليخت السلطاني عز الدين عند قصر دولمة باهجة. كان منير باشا في استقبال آينور هانز وخلفه تقف العربة الأرجوانيّة المعلَّمة بالتّاج بين ستّة من خيّالة أرطغرل ببزاتهم الاستعراضية البيض، وطرابيشهم الحمر، وسيوفهم المذهَّبة.

ابتسم منير باشا وهو يأخذ بيدها لتصعد إلى العربة. خلّص أذيال ثوبها الفيروزي كي يساعدها على الجلوس. قال دون أن يفلت يدها:

– سيلتقيك السلطان هنا بعد خمس ساعات.. بإمكانك تناول فطورك هذه المرّة.

شدّت آينور على أصابعه، وهي تتطلَّع إلى القصر النديّ بالمطر، فعاد منير باشا ليقول ووجهه منبسط:

– سعيد برؤيتك من جديد.

ردّت آينور بعينين غائمتين:

– ما زلت على وسامتك وقوّتك يا باشا.. هذا يجعلني أتوقع المزيد من المؤامرات.

ضحك بتكلُّف، وقال وهو يقرّب رأسه من أذنها:

– إذا أمرتِ هؤلاء الفرسان بقطع رأسي فسينفّذون في الحال.. أنتِ آينور هانز.

بدت له معصورة الملامح، ومشتّتة الذهن، وبعيدة تماماً عن كلماته. سألته وهي تضع كفّها على صدرها:

– هل السلطان غاضب عليّ؟

تجمّعت الدهشة على وجهه:

– ما بكِ؟ مولانا المعظم أمر بإغلاق الدردنيل بعد مرور يختك، ومنع الإبحار في مرمرة تكريماً لك، وحين تصلين إلى قصرك ستطلق المدافع نيران التّرحيب بك.. إسطنبول اليوم في عيد يا هانم.

أدّى حرّاس بوابة القصر التحيّة العسكرية عند مغادرة عربتها دولمة باهجة. شعرت آينور ببرودة هواء إسطنبول، وانتبهت لكثرة العصافير فيها. تملّكتها رغبة في البكاء وهي ترى مجدّداً حيّ بشكطاش. أغمضت عينيها وراحت تتخيّل بإجهاد وجه رودولف.

سارعت بريتا التي كانت تنتظر سيّدتها بباب قصر يلدز شاله إلى شبك ذراع آينور ومساندة جسمها على تخطّي العتبة. توقفت خطواتها عند الصالون الكبير متأمّلة سجّادة هيريكيه المشغولة برسوم نارية، والشمعدانات الأرضيّة التي لها كؤوس زنبقيّة ملطّخة بسيلان نبيذي، وعناقيد الثريّات المتدلّية من السقف المزخرف. سألتها بريتا إن كانت تودّ تجهيز الفطور، فطلبت آينور أن تقودها أولاً إلى غرفة الإمبراطور لتحاول أن تنام ولو لساعة.

بدا لها سرير الإمبراطور أصغر ممّا كان يظهر لإحساسها وهي في الموصل، ويفتقر إلى اللمعة التي تحبّها في الخشب. تلمّست حوض المغسلة، مستغربة صورة فيلهلم الثاني بصدره العاري وهي تتجلّى، لومضة خاطفة، في المسافة التي تفصلها عن المرآة. سمعت

من خلف ظهرها طرقة خفيفة على الباب الموارب، ثمّ أعقبها صوت ناريمان الذي خدشه الزمن:

– أمّك ستعرفك دائماً يا حبيبتي.. الأبناء لا يكبرون أبداً.

***

في العاشرة صباحاً عادت بها العربة الأرجوانية المعلَّمة بالتاج إلى قصر دولمة باهجة. كانت إسطنبول أشدّ سطوعاً، وعصافيرها أكثر حركة. طُلب منها الترجُّل، وقادها رجل أسود البشرة إلى الجناح الخلفي. خُيِّل إليها، وهي تتبع دليلها في ممرّات ضيّقة ومعتمة، أنّ المسافات قصرت عن ذي قبل. في الفسحة المربّعة، الجيّدة الإضاءة، كان بانتظارها شابّ يرتدي بدلة رمادية مقلّمة. لم يستغرق الأمر أكثر من دقيقة حتى وجدت نفسها تقف أمام الباب الأبيض الخالي من النقوش والمجسّمات. لم يظهر منير باشا. أشارت إلى الشاب بأنّها ستتولّى الباقي، فودّعها منحنياً. أخذت آينور نفساً عميقاً قبل أن تفتح الباب لتواجهها الطاولة نفسها ومعها الكراسي الخفيفة الصمّاء. لم تختلف الغرفة عمّا كانت عليه سوى بضوء الشباك الذي انتشر باتساع. جلست آينور على كرسيّها نفسه وهي بثوب أسود مقفل عند الرقبة بحجر أحمر. أغمضت عينيها متخيّلة وجه رودولف وهو يفكّر، إلّا أنَّ الباب طُرق، وأطلّ السلطان عبد الحميد الذي حيّاها قائلاً:

– مرحباً آينور هانم.

لاحت على وجهه ابتسامة هادئة وهو يقف مقوَّس الجسد ببدلة سوداء وحذاء روغان يتأمّل انحناءة آينور المرتبكة، ورجفة فكّها وهي تردّد كلام الترحيب، وتكرّر تحريك يدها اليمنى بين صدرها وجبينها:

– أنت متوهّجة الهيبة كمنتصرة.

شكرته بخجل وهي تعصر أصابعها. انتظرت حتى جلس السلطان على كرسيّه في الجهة المقابلة. نظر حوله، وقد بدا لها أنفه أضخم من ذي قبل، بينما لحيته الكثّة تقترب من وسام آل عثمان. رفع رأسه قائلاً إنَّه هذه المرّة لا يضع اللوم على منير باشا. تلاقت نظراتهما، فقال موضحاً:

– اعتقدت أنَّك تحبّين أن نكرّر اللقاء والغرفة على حالها.. أنت وأنا نحبّ التاريخ.

جارته في الضحكة نفسها. زاد انكماشه على الكرسيّ. قال وهو ينظر إلى الأرض:

– آينور هانز.. لقد أثبتِّ أنَّك أشجع من جيشي السادس، وأنا فخور بك.

قالت آينور:

– مولاي المعظم.. سعيدة بنيلي رضاكم.. كلامكم يمنحني العزم لتحقيق المزيد من الأحلام.. لديّ الكثير من الأفكار يا مولاي، وطلب عزل الوالي الذي رفعته لمقامكم الجليل كان من أجل السعي لخلق ثقافة حياتية جديدة.. الله يريدنا أن نحبّ لا أن نخاف.

هزَّ السلطان رأسه قائلاً:

– كلّ ما فعلتِه كان محطّ فخري وتقديري.. كلّما وصلتني تقارير تشكيلات يلدز الاستخبارية عنك كنت أستمتع بقراءتها، وأقول لنفسي ها أنت أخيراً تفعل الصواب يا عبد الحميد.. أنباء الانتصارات العسكرية لم تكن تفرحني أبداً لأنَّها تأتيني ملطَّخة بالدَّم، وأشعر دائماً مع التقارير الاستخبارية بأنَّها تتملَّقني، وفيها مبالغة لأنَّ أفعالها منسوبة لأشخاص برتب عالية. الأمر معك يختلف تماماً يا آينور هانم. لقد كانت التقارير المكتوبة عنك ممتعة، وتهبني الفرح.. صادقة، وفيها أمل.

قالت آينور وحلقها جافّ:

– أشكر جلالتكم.. في البداية شعرت بالضياع، ولكن مع مرور الوقت استطعت أن أحبّ الموصل.. لقد تعلّمت الكثير من هذه التجربة وكان دعمكم لي يقوّيني.. أشكركم على السلطة التي شرّفتموني بها، ولكنّني لم أكن أرغب في استخدامها.. لا أعرف إن كنتم راضين عن موقفي بعدم اعتقال الشيخ معروف.. الأوضاع كانت أسوأ بكثير من قدرتنا.

قال السلطان وهو يبتسم:

– منحتك كامل السلطة لكنّني كنت على ثقة من أنّك لن تستخدميها.. آينور هانم.. حين جرى اختيارك لهذه المهمّة كنت أثق بقلبك، ومشاعرك، وأعرف أنّك ستنجحين.. المشكلة الكبيرة أنّ العالم يتغيّر. كما ترين، أنا الآن غير ذلك السلطان الذي قابلك قبل سنوات.. الذين يعارضون حكمي يزدادون، وأنا لن أسمح بانقسام الناس بعضهم على بعض. لن أسمح بسفك دماء المسلمين من أجل المحافظة على عرشي.. كنت أظنّ أنّني سأنتصر على الفوضى إذا ما أمسكت كلّ الخيوط بيدي، وحتى حين خسرت الكثير من الأراضي، اعتقدت أنّ هذا لمصلحة السلطنة.. لم يكن أمامي أيّ خيار آخر.. لست منزعجاً ممّا يحدث.. المؤامرات تساعدني على الزهد في كلّ شيء.. لكنّ ما يؤلمني حقّاً أنّني لن أقدر بعد اليوم على إعادتك إلى الموصل.

– مولاي..

رفع السلطان يده مقاطعاً:

– في الغد سيأخذك زكريّا على يخت إلى جزيرة ثيرا.. أريدك أن تطمئنّي، فكلّ الذين كانوا معك بأمان. سنعيد كروغر هايس إلى بغداد ثمّ نرحّله إلى ألمانيا، أمّا شاؤول جلعادي، فسيأتي إلى إسطنبول.

قالت آينور بصوت فيه أسى:

– لكنّي لم أنهِ مهمّتي بعد يا مولاي.

نظر في عينيها:

– أنا من انتهت مهمّته يا آينور.

فتح كفّه للهواء، مغيّراً نبرة صوته:

– آينور هانم.. شركة سكّة حديد الأناضول مفلسة منذ سنوات، والألمان عقدوا اتفاقات سريّة عدّة مع الإنكليز للمحافظة على مصالحهم في ممتلكاتنا السابقة.. لا أعرف في أيّ لحظة يتمّ عزلي، وهذا الأمر سيجعلك في خطر.. عليك السفر في الغد إلى بيتك في ثيرا.. سترافقك أمّك، وبريتا، وزكريّا، وهناك يمكنك أن تبدئي حياة جديدة. أموالك ستُنقل إليك وستحبّين بيتك هناك.

قالت بارتباك:

– سينهار كلّ شيء في الموصل يا مولاي.. لقد نجحنا في نسج الموسلين.

– أعرف أنَّك نجحت ولكن أنا من فشل يا آينور هانم.

قالت بتوسّل:

– مولاي.. أرجوكم.. دعوني أرجع إلى الموصل وأكمل ما بدأته. يمكنني الدفاع عن نفسي.. لا يهمّني أيّ شيء.. الأمر لم يعد يتعلّق بمشروع سكّة حديد برلين بغداد.. وأرجو منكم ألّا تعتبروا أنّ المهمّة انتهت بفشل المشروع.. أنا أودّ البقاء في الموصل.. لا أعرف كيف أشرح الأمر.. حين أقف فجراً بباب الجسر وأنظر إلى وجوه الناس وهم يترقّبون دخول المدينة أشعر بأنَّني وجدت هدفي وحياتي.. عليَّ أن أكمل ما بدأته يا مولاي..

وقف السلطان وقطع خطوات نحوها:

– لا يمكنني القبول بهذا.. ستسافرين في الغد إلى ثيرا ورحلتك ستكون طويلة وعلى مراحل.. علينا خداع الإنكليز كي يضيع أثرك.. آينور.. أنا أيضاً أريدك أن تعودي وفكّرت في وسائل عدّة تعينك على هذا ولكنّني لا أستطيع المخاطرة بحياتك.. الإنكليز سيستولون على الموصل في النهاية وسيكون من الصعب عليهم مسامحتك على أحلامك.

وضع يده على كتفها، وأردف:

– الطيّبون والحالمون يخسرون دائماً ولكنّني لا أعتقد أنَّ هذا الأمر له علاقة بقوّة الشرّ.. لو أنَّنا نجحنا وحقّقنا ما نريد فما الذي سيبقى للذين سيولدون بعدنا؟ أنت جرَّبت وشاهد الناس أعمالك وعرفوا أنَّ الأحلام يمكنها أن تتحقق.. هذا هو إنجازك العظيم يا آينور هانم.

سألته بعينين مائيتين:

– وإن لم تُعزَلوا يا مولاي.. فهل سأبقى في ثيرا؟

بالغ في ضحكته:

– سأجعلك الصدر الأعظم لدولتنا العليّة.

ابتسم قائلاً:

– اطمئنّي.. ناظم بك سيستمرّ في وضع الزهور على قبر رودولف.

استوقفته:

– وماذا عن بانيو الإمبراطور يا مولاي؟

ضيّق عينيه:

– سأرسله إليك.

وضع كفّه على خدّها، وقال:
– شكراً آينور هانز.. شكراً.
لوَّح لها بيده قبل أن يغلق الباب خلفه.

1918

بعد مرور شهر على
الاحتلال الإنكليزي للموصل

الموصل 1918/12/23

إلى الكولونيل تايلر إليوت المحترم

سيّدي العزيز

بالإشارة إلى تقريرنا السابق، نعلمكم أنّ بحثنا في المكانين N29 وA30 لم يسفر عن نتيجة، فلم نعثر على الأشخاص: آينور هانز، وشاؤول جلعادي، وزكريّا الكوّاز. كذلك لم نتوصّل إلى معلومات جديدة في التحقيق مع السيدة جليلة السعرتي، وكلّ الإجابات التي حصلنا عليها من القائد العثماني علي إحسان باشا ضمن شروط هدنة مودروس كانت مضلّلة، وغير صحيحة. أمّا بالنسبة للمصانع الأهلية لنسج قماش الموسلين التي تحدّثت عنها التقارير، فقد أثبت البحث والتفتيش أنّها غير موجودة، وبهذا، وبناءً على أوامركم السابقة، تنتهي مهمّتنا السريّة، وتتوقّف الملاحقات والتحقيقات التي كلّفتمونا بها.

ونودّ إعلامكم أنّنا دمّرنا وأزلنا أنقاض بيوت آينور هانز في حيّ النصارى، وسوق الألمان، ومتجر الملبوسات، ومقرّ شركة رودولف، ومصنع الجوارب، والقسم الملحق بمستشفى الغرباء، الذي كان جهاز أشعّة إكس يشغله، كما حذفنا اسم آينور هانز من كلّ السجلّات

المدنية المستلمة من السلطة العثمانية المنسحبة من الموصل، وأتلفنا الأرشيف الصحافي في مبنى السرايا، وكلّ الوثائق والمخاطبات وإشعارات البنك الإمبراطوري العثماني والتلغرافات الخاصّة بها، وبذلك يكون اسم آينور هانز لا وجود له على الإطلاق.

نحن على ثقة بأخذكم هذه المعلومات في الاعتبار.

مع الاحترام

ليوتنانت روني لوك

ترتر — في تشرين الأول من عام 1898، يقوم إمبراطور ألمانيا فيلهلم الثاني برحلة إلى الشرق. في إسطنبول، يلتقي السلطان عبد الحميد الثاني ويخطّطان لإنشاء سكّة حديد برلين-بغداد بهدف منافسة التجارة الإنكليزية وقطع طريق الهند البرّي. لمواكبة المشروع، يجب قبل كلّ شيء إدخال التجّار الألمان إلى ولاية الموصل والعمل على تأسيس صناعة نسيجية تتفوّق على تلك الإنكليزية. ومَن غير آينور هانز، وليدة الأب الألماني والأم التركية، التي تعمل مرشدة سياحية في وكالة توماس كوك للسفر، للقيام بهذه المهمّة؟

لكنّ آينور هانز المسكونة بالأحلام، والمسيَّرة بالحبّ، تذهب إلى أبعد من ذلك، متحدّية جبروت ثلاث دول عظمى هي إنكلترا وفرنسا وروسيا القيصرية.

«نزار عبد الستار ينجح في إثارة الأسئلة المصيرية للإنسان الذي سعى لأن يكون المقدَّس قريباً منه، يحميه ويستعين به في حياته.»

— الناقد ياسم عبد الحميد حمودي

نـزار عبـد السـتار — قـاصّ وروائـيّ عراقـيّ وُلـد في بغـداد عـام 1967. نالـت روايتـه الأولى «ليلـة المـلاك» اهتمامـاً واسـعاً ومُنحـت عـام 1999 جائـزة أفضـل روايـة عراقيّـة عـن اتّحـاد أدبـاء العـراق، وجائـزة الإبـداع، وهـي أرفـع جائـزة رسـميّة عراقيّـة. كمـا حقّقـت مجموعتـه القصصيّـة «رائحـة السـينما» رواجـاً كبيـراً، وأعيـد طبعهـا أكثـر مـن مـرّة. عمـل بعـد عـام 2003 فـي الصحافـة، حيـث أدار تحريـر جريـدة «المـدى»، كمـا أسّـس جريـدة «تاتـو» الثقافيّـة. هـذه روايتـه الثانيـة عـن دار نوفـل بعـد «يوليانـا» (2016).

مكتبة نوميديا 179
Telegram @Numidia_Library

ISBN 978-614-469-292-9
9 786144 692929

نوفل هي دمغة الناشر

هاشيت أنطوان A.